مجلة
إسلامية
شهرية
جامعة

البيان

AL BAYAN

السنة الثامنة والعشرون . العدد ٣١٢ . شعبان ١٤٣٤ هـ . يونيو - يوليو ٢٠١٣ م

الدولة العميقة..
معضلةُ الربيع العربي

الموقف الأمريكي
من الثورة السورية

الوقف..
بوابة العطاء

9 771658 646803 >

الافتتاحية

٦ حقيقة الإحسان
التحرير

العقيدة والشريعة

٨ أغلوطة التفويض في صفة الاستواء على العرش
سلطان العميري

ملف العدد

١٨ الوقف والحضارة الإسلامية
د. عبد الرحمن بن عبد العزيز الجريوي

٢٨ العوامل الحرجة لبقاء الأوقاف
سلطان بن محمد الدويش

٣٠ تجربة الوقف
د. سامي تيسير سلمان

٣٣ الوقف في الصناديق الاستثمارية
د. عبد الله بن محمد الدخيل

٤٠ دور الوقف الإسلامي في الحيلولة دون تهويد فلسطين
د. عبد الكريم إبراهيم السمك

٤٦ أوقاف السلطان الأشرف شعبان على الحرمين
راشد بن سعد بن راشد القحطاني

٥٠ جناية الأنظمة على الأوقاف
د. محمد بن عبد الله السلومي

٥٨ جناية الأنظمة العلمانية على الأوقاف الإسلامية
محمد إلهامي

٦٢ حوار مع الشيخ بدر الراجحي
أجرى الحوار: أحمد أبو دقة

مجلة البيان
إسلامية . شهرية . جامعة

رئيس التحرير
أحمد بن عبد الرحمن الصويان
alsowayan@albayan.co.uk

مدير التحرير
د. عبد الله بن سليمان الفراج

هيئة التحرير
أحمد بن عبد العزيز العامر
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
د. يوسف بن صالح الصغير
فهد بن صالح العجلان
د. أحمد بن عبد المحسن العساف
فيصل بن علي أحمد الكاملي

سكرتير التحرير
إسلام بن سعد داود

الإخراج الفني
محمد سالم لرضي
صلاح الدين الحجري

عنوان المجلة على الشبكة العالمية
www.albayan.co.uk

YouTube | | |

اشتراكات البيان Whatsapp & SMS
٠٠٩٦٦٥٥٤١٩٢٤١٣

الحسابات

السعودية: مصرف الراجحي
آي بان: SA١٣٨٠٠٠٠٢٩٦٦٠٨٠١٠٠٢١٠٠٧

الاشتراكات

السعودية ودول الخليج	١٢٠	ريال سعودي
بريطانيا وإيرلندا	٤٧	يورو
أوروبا	٥٥	يورو
البلاد العربية وإفريقيا	٤٥	يورو
أمريكا وبقية دول العالم	٥٥	يورو
المؤسسات الرسمية	٦٠	يورو

خدمة العملاء

السعودية
ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
الهاتف الموحد: ٩٢٠٠٠٤٥٤٨
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني

التحرير
editors@albayan.co.uk
خدمة العملاء
sub@albayan.co.uk
التسويق
sales@albayan.co.uk
العلاقات العامة
pr@albayan.co.uk

الموزعون

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣.
الإمارات العربية المتحدة: شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩
هاتف : ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦ .
سلطنة عُمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠ .
البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ **المنامة:** ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
السعودية : الشركة الوطنية للتوزيع:
هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
السودان: الخرطوم، مكتب المجلة ٨٣٢١٢١٨٣.
قطر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ - ٤٥٥٧٨١١ - ٤٥٥٧٨١٢ - فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.
الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.
المغرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.
اليمن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء : ص. ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥
تونس: الشركة التونسية للصحافة، ت ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٤٩٩ - فاكس: ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٠٠٤

المسلمون والعالم

٦٨ **حقيقة الموقف الأمريكي من الثورة السورية**
علي حسين باكير

٧٢ **سوريـــة.. إلـــى أيـــن؟**
هيثم بن محمد الكناني

٧٦ **هـل يـمـكـن لـلـجـهـاد فـي سـوريـة أن يـحـقـق مـا لـم يـحـقـقـه فـي الـعـراق؟**
طلحة المسير

٨٠ **حـوار مـع الـشـيـخ عـبـد الـهـادي أوانـج رئـيـس الـحـزب الإسـلامـي الـمـالـيـزي**
أجرى الحوار: فيصل بن سعيد الحذيفي

٨٦ **مرصد الأحداث** عمرو عبد البديع

تاريخية

٩٠ **نظرة معاصرة إلى أيام العرب وحالة انفراط السلام**
محمد وقيع الله أحمد

الورقة الأخيرة

٩٥ **الـدولـة الـعـمـيـقـة.. معضلةُ الربيع العربي**
أحمد عمرو

[كلمة صغيرة]

سلامٌ جديدٌ بلا شجعان!

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين.. وبعد:

فتاريخ العالم العربي في صراعه مع الكيان الصهيوني حافلٌ بالإحباطات التي يُعبَّر عنها في كل مرحلة من مراحل الصراع بشعار يصف جزءاً من الواقع؛ بدأت بما سمي «عام النكبة»، ثم «النكسة»... وهكذا إلى أن جاءت مرحلة إلقاء شعار المقاومة والسقوط في مستنقع السلام.. ولكي يُشبع العرب غرورهم وانتفاخهم أسموه سلام (الشجعان!)؛ لتدفعهم هذه العنترية الجوفاء إلى مزيد من التنازل والتفريط بالحقوق.

وها نحن الآن نبدأ مرحلة جديدة من السلام؛ فوزير الخارجية الأمريكي جون كيري يقوم بجولات متتابعة للتبشير بحل (عادل!) يرضي جميع الأطراف!

والسؤال المهم في هذا السياق: هل سيحقق كيري شيئاً يُذكر، أم سيراوح مكانه كما فعل مَن قبله مِن رؤساء أمريكا ووزراء خارجيتها؟!

والجواب الذي لا شك فيه: أنَّ روح الانهزام والاستكانة التي تقود السلطة الفلسطينية تشي بمزيد من التنازل والقبول بالشروط الصهيوأمريكية، خاصة أن الأنظمة العربية مهمومة برياح التغيير التي جاءت بها الثورات.

لكن الجديد في هذه المرحلة أنَّ للشعوب رأياً آخر، فسياسة التجهيل وتغييب الوعي في طريقها إلى الانحسار، والحراك الشعبي رفع سقف المطالب والتطلعات؛ فمزيد من التنازل العربي يعني مزيداً من المانعة المجتمعية.. وتصاعُد الكيد الصهيوني حول المسجد الأقصى، سيفتح أبواباً جديدة من المقاومة الشريفة، فزمن الشعارات القومية الفارغة انتهى، وبدأ زمن الشعوب!

حقيقة الإحسان

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على محمد رسول الله ﷺ.. أما بعد:

فقد أعلى الشرع من قيمة الإحسان في كل مجالاته، وكثير من الناس يظن أن حقيقة الإحسان تكمن في التصدق على الفقراء والمساكين والمحتاجين، حتى صار يقال عن بعض المتصدقين الذين أكثروا من التصدق على المحتاجين «محسنون»، وإن كان التصدق على الفقراء والمحتاجين من الإحسان إلى عباد الله تعالى، لكن ذلك ليس حقيقة الإحسان، بل حقيقة الإحسان تعتمد تجويد الأمر في كل شيء مع المراقبة حتى يصل إلى أعلى درجة في الإتقان، وقد جاء في الحديث المشهور المتفق على صحته، حديث جبريل - عليه السلام - الذي يعلّم فيه المسلمين دينهم: "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"(١). والمسلم إذا قام بعبادة الله وكأنه يرى الله تعالى لا بد من أن يؤدي العبادة بأركانها وواجباتها وسننها باغياً وجه الله وحده بذلك، محافظاً على وقتها بجد وهمة ونشاط وسعادة بغير تأخير ولا كسل، فإن من يتصور أنه يرى الله أثناء عبادته فيكون إقباله على العبادة إقبالاً قوياً فورياً دون كسل أو إهمال، ويجد في عبادته - وإن كانت تبدو في الظاهر فيها مشقة - الراحة والهدوء والسكينة كما كان رسولنا الكريم يقول لبلال: "يا بلال، أرحنا بالصلاة"(٢)، وكان إذا حزبه أمر لجأ إلى الصلاة(٣).

والمسلم إذا فقد درجة كأنه يرى الله ربه وهو يعبده، فلن يفقد الدرجة التي تليها، وهي أن الله تعالى يراه، فتحدث هذه الدرجة من المعرفة حياء من الله تعالى أن يرى عبده أثناء عبادته وهو مقبل عليه لاهياً منصرفاً عنه إلى غيره بفكره أو بجسده؛ لأن يقينه أن الله يراه يمنعه من الغفلة أو الانصراف عنه، ومن هنا جاء قوله ﷺ: إن العبد إذا قام إلى الصلاة فإنما هو - أحسبه قال - بين يدي الرحمن تبارك وتعالى، فإذا التفت يقول تبارك وتعالى: إلى مَن تلتفت؟ إلى خير مني؟ أقبل يا ابن آدم إليّ فأنا خير ممن تلتفت إليه"(٤)، ومن أجل ذلك عندما رأى سعيد بن المسيب رجلاً يعبث في صلاته، قال:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه رقم ٥٠؛ ومسلم رقم ٨.
(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم ٢٣٠٨٨.
(٣) تعظيم قدر الصلاة ١ / ٢٣١.
(٤) مسند البزار رقم ٩٣٣٢ من حديث أبي هريرة مرفوعاً وموقوفاً.. والموقوف في حكم المرفوع؛ لأنه لا يقال من قبل الرأي.

«لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»[1]، وقال أبو هريرة: إذا صلى أحدكم فلا يلتفت، إنه يناجي ربه، إن ربه أمامه، وإنه يناجيه». قال: "وبلغنا أن الرب تبارك وتعالى يقول: يا ابن آدم، إلى من تلتفت؟ أنا خير لك ممن تلتفت إليه"[2]، وقد كان رسول الله ﷺ يوصي أصحابه بذلك، فعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه: «أوصاني خليلي ﷺ أن أخشى الله كأني أراه، فإن لم أكن أراه فإنه يراني»[3]، وعن عبد الله بن عمر قال: أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي فقال: «اعبد الله كأنك تراه، وكن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»[4]، وعن معاذ بن جبل قال: يا رسول الله أوصني. قال: «اعبد الله كأنك تراه»[5]، وعن زيد بن أرقم قال: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[6]، وقال حبيب بن مسلمة لأبي الدرداء: "أوصني. فقال: عليك بكتاب الله ثلاث مرات. فلما ولى دعاه قال: اعبد الله كأنك تراه، واعدد لنفسك قبراً، واحذر دعوة المظلوم"[7].

فقد صارت كلمة: "اعبد الله كأنك تراه"، وصية الصالحين لمن دونهم، وهي تبيّن حقيقة الإحسان الذي تدعو إليه النصوص وتثني على المتحققين به، وقد ورد في نصوص كثيرة: "إن الله يحب المحسنين"، وفي هذا تحريض من الله تعالى لعباده على الإحسان حتى يدخلوا فيمن يحبه الله تعالى، إذ من أهم ما يحرص عليه المؤمن أن يحبه ربه؛ لأن في حب الله للعبد الخير العميم كما قال في الحديث القدسي: ".. وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته"[8]، فمن أحبه الله تعالى فهو يتقلب في النعم وتلفه العطايا والنفحات من جميع جوانبه، وقد قيل في تفسير ذلك أقوال متعددة حاصلها يرجع إلى معنى متقارب، فيكون معنى ما تقدم أي يجعل الله سلطان حبه غالباً عليه حتى لا يسمع إلا ما يحبه الله، ولا يرى إلا ما يحبه الله، ولا يفعل إلا ما يحبه الله، ويكون الله سبحانه في ذلك له يداً وعوناً ووكيلاً يحمي سمعه وبصره ويده ورجله عما لا يرضاه، فأكرم بها من منزلة، وأكرم بها من جائزة.

قال النووي – رحمه الله – في تفسير الإحسان المذكور في حديث جبريل: "هذا من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ؛ لأنّا لو قدّرنا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى لم يترك شيئاً مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها إلا أتى به، فقال ﷺ اعبد الله في جميع أحوالك كعبادتك في حال العيان، فإن التتميم المذكور في حال العيان إنما كان لعلم العبد باطلاع الله سبحانه وتعالى عليه فلا يقدم العبد على تقصير في هذا الحال للاطلاع عليه"[9]، وقال ابن دقيق العيد: "حاصله راجع إلى إتقان العبادات ومراعاة حقوق الله ومراقبته واستحضار عظمته وجلالته حال العبادات"[10]. وما يقع فيه بعض الناس أو أكثرهم من تقصير في العبادات وفعل المأمورات وترك المنهيات، إلا بإهمال هذا الأصل؛ فإن المسلم إذا كان مستحضراً لرؤية الله إياه فلن يقصر فيما طلبه الله منه، ولن يقدم على ما حرمه الله عليه، ولن يحتال في إسقاط ما أوجبه الله عليه، فكانت مراعاة هذا الأصل في كل حين سبباً عظيماً من أسباب استقامة المرء ونجاته من أليم العذاب، ولو قدّر أن الشيطان استحوذ عليه في لحظة ضعف أو غفلة، فإنه سرعان ما يتذكر، فإذا به راجع إلى الصراط المستقيم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، قال ابن جرير: "إن الذين اتقوا الله من خلقه، فخافوا عقابه، بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه؛ إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا يقول: إذا ألم بهم لمم من الشيطان من غضب أو غيره مما يصد عن واجب حق الله عليهم، تذكروا عقاب الله وثوابه، ووعده ووعيده، وأبصروا الحق فعملوا به، وانتهوا إلى طاعة الله فيما فرض عليهم، وتركوا فيه طاعة الشيطان"[11].

اللهم وفقنا للصالح من الأمر، وإذا حدنا عنه فمنَّ علينا بأوبة وتوبة تردنا بها إلى الطريق وتزيل بها عنا الآثام.

(١) الزهد لابن المبارك رقم ١١٨٨.
(٢) مصنف عبد الرزاق ٢/٢٥٦.
(٣) الأربعون على مذهب المتحققين من الصوفية حديث رقم ٢.
(٤) أخرجه أحمد في المسند برقم ٦١٥٦، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.
(٥) مسند الشاشي رقم ١٤٠٠.
(٦) الزهد والرقائق لابن المبارك ٢/٦٣.
(٧) الزهد لأبي داود برقم ٢٣٠.
(٨) أخرجه البخاري في صحيحه رقم ٦٥٠٢.
(٩) شرح النووي على صحيح مسلم المسمى بالمنهاج ١/١٥٧.
(١٠) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد ١/٣١.
(١١) تفسير ابن جرير ١٣/٣٣٣-٣٣٤.

أغلوطة التفويض

في صفة الاستواء على العرش

سلطان العميري

لا يملّ علماء الأشاعرة من تكرار القول بأن مذهبهم موافق لما كان عليه أئمة السلف الأطهار، وتراهم يؤكدون مرة بعد أخرى أن طريقتهم في إثبات الصفات الإلهية لا تختلف عن طريقة السلف ومنهجهم.

وقد حرصوا كثيراً على شرح مذهب أئمة السلف في الصفات، وتجدهم يؤكدون دوماً أنهم كانوا يعتقدون وجوب عدم الأخذ بظواهر نصوص الصفات، وأنهم لم يقرّوا بما تدل عليه من معانيها اللغوية الظاهرة، وأن حال أئمة السلف دائر بين التفويض للمعنى وترك التعرض له والسكوت عن البحث فيه، وبين التأويل وصرف ظواهر النصوص إلى معانٍ أخرى لا تقتضي التشبيه.

ويعد البيهقي من أقدم من نسب التفويض إلى السلف، وأشار إلى أن حالهم دائر بين التأويل والتفويض[1].

وتبعه إمام الحرمين الجويني، حيث يقول: «اختلفت مسالكُ العلماء في الظواهر التي وردت في الكتاب والسنة، وامتنع على أهل الحق اعتقاد فحواها وإجراؤها على موجب ما تبتدره أفهام أرباب اللسان منها، فرأى بعضهم تأويلها والتزم هذا المنهج في آي الكتاب وما يصح من سنن الرسول ﷺ، وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الرب تعالى»[2].

(١) انظر: الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد (١٢٠).
(٢) العقيدة النظامية (٢٣).

ثم تتابع علماء الأشاعرة جيلاً بعد جيل على تأكيد نسبة هذا المذهب إلى أئمة السلف، وفي التصريح بذلك يقول الشهرستاني: «فأما أحمد بن حنبل وداود بن علي الأصفهاني وجماعة من أئمة السلف؛ فجروا على منهاج السلف المتقدمين عليهم من أصحاب الحديث، مثل مالك بن أنس ومقاتل بن سليمان، وسلكوا طريق السلامة؛ فقالوا: نؤمن بما ورد به الكتاب والسنة ولا نتعرض للتأويل بعد أن نعلم قطعاً أن الله عز وجل لا يشبه شيئاً من المخلوقات وأن كل ما تمثل في الوهم فإنه خالقه ومقدره»[1].

ومن الصعب جداً رصد جميع مقالات أئمة المذهب الأشعري التي تتالوا فيها على نسبة مذهب التفويض إلى السلف؛ لكثرة عددها، وفيما ذُكر كفاية في إيضاح المقصود.

نسبة التفويض إلى السلف في صفة الاستواء على العرش:

لا يختلف الحال في صفة الاستواء على العرش عن غيره من الصفات الأخرى، فقد توارد علماء الأشاعرة والمتأثرون بهم على تصوير مذهب أئمة السلف فيها بأنهم يفوضون معناها وأنهم لا يتعرّضون لتفسيرها ولا للبحث في مقصودها، وإنما يجرونها على ما جاء به لفظها فحسب، ويعدّ البيهقي من أقدم من أسس هذا التصور عن أئمة السلف، حيث يقول: «فأما الاستواء، فالمتقدمون من أصحابنا – رضي الله عنهم – كانوا لا يفسرونه ولا يتكلمون فيه، كنحو مذهبهم في أمثال ذلك»[2].

ويقول ابن جماعة بعد أن ذكر الأقوال المتعددة في معنى الاستواء: «واتفق السلف وأهل التأويل على أن ما لا يليق من ذلك بجلال الرب تعالى غير مراد؛ كالقعود والاعتدال، واختلفوا في تعيين ما يليق بجلاله من المعاني المحتملة؛ كالقصد والاستيلاء، فسكت السلف عنه وأوّله المؤولون على الاستيلاء والقهر لتعالي الرب عن سمات الأجسام من الحاجة إلى الحيز والمكان»[3].

وفي بيان موقف أئمة السلف من نصوص الاستواء يقول البيجوري: «إذا ورد في القرآن والسنة ما يشعر بإثبات الجهة والجسمية أو الصورة أو الجوارح، اتفق أهل الحق وغيرهم ما عدا المجسمة والمشبهة على تأويلها».. ثم ذكر أمثلة فقال: «ومنه قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥]، فالسلف يقولون: استواء لا نعلمه، والخلف يقولون: المراد به الاستيلاء والملك»[4].

ومن علماء الأشاعرة من ينسب إلى بعض السلف تأويل صفة الاستواء، وفي هذا يقول الجويني: «ولا يبعد حمل الاستواء على قصد الإله إلى أمر في العرش، وهذا تأويل سفيان الثوري»[5].

ونصوص ومقالات علماء الأشاعرة المتقدمين والمعاصرين في نسبة التفويض والتأويل لصفة الاستواء كثيرة جداً[6].

منتهى تصوير علماء الأشاعرة لمذهب أئمة السلف:

وحاصل ما ينقله علماء الأشاعرة عن أئمة السلف في صفة الاستواء على العرش، هو أنهم كانوا يعتقدون أن ظواهر نصوص الصفات – ومنها صفة الاستواء – تدل على معانٍ باطلة لا تجوز نسبتها إلى الله تعالى؛ لأنها تقتضي التجسيم والتشبيه؛ ولهذا فإنهم يحرمون الأخذ بما يدل عليه ظاهرها، ويفوضون معناها إلى الله، ويوجبون الإمساك عن البحث في المراد منها، ويلتزمون السكوت عن الخوض فيها، ويعدون كل من بحث فيها أو حدد المقصود منها بما يدل عليه ظاهرها المتبادر؛ منحرفاً عن الجادة وسالكاً سبل التشبيه والتجسيم.

حقيقة موقف أئمة السلف من صفة الاستواء ونصوصها:

قبل أن نصدر الحكم بالصحة والخطأ على ما ينقله علماء الأشاعرة عن أئمة السلف في صفة الاستواء وما يصوّرون به موقفهم من نصوصها؛ لا بد من استعراض ما نقل إلينا عنهم وما وصل إلينا من مقالاتهم ومواقفهم.

(١) الملل والنحل (١/١٠٣).
(٢) الأسماء والصفات (٥١٤).
(٣) إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل (١٣١).
(٤) شرح جوهرة التوحيد (١٥٧).
(٥) الإرشاد (٥٩).
(٦) وقد اعتمدوا في تصحيح نسبة تفويض أئمة السلف إلى مقالات متعددة جاءت عنهم، ومن أشهرها: مقالة الإمام مالك، وسيأتي في بحوث قادمة الكشف عما في اعتمادهم ذلك من الخطأ والخلل المنهجي.

ولا بد من التأكيد أولاً على أن أئمة السلف المتقدمين قد اهتموا بصفة الاستواء اهتماماً خاصاً؛ كونها من أكثر وأول الصفات التي أظهر الجهمية فيها الانحراف والتعطيل؛ ولأجل هذا كَثُر كلام السلف فيها جداً، حتى إن عدداً من العلماء أفردوا مؤلفات خاصة في جمع مقالاتهم حول هذه الصفة[1]، وهذا يساعدنا بشكل كبير جداً على تبيّن حقيقة موقفهم من هذه الصفة ومن سائر الصفات الإلهية.

ونحن إذا رجعنا إلى ذلك الكم الكبير الذي وصل إلينا عن السلف في هذه الصفة، نجده يدلّ بوضوح لا خفاء فيه على نقيض ما ينسبه إليهم علماء الأشاعرة من التفويض وترك البحث في معناه والتزام السكوت عن تحديد مدلوله اللغوي والشرعي، ويدل على أنهم كانوا يأخذون بما يدل عليه ظاهرها ويسلّمون به وينافحون عنه.

ويمكن إثبات ذلك بطرق متعددة سنعرض منها أربعة طرق، وهي:

الطريق الأول: تفسير أئمة السلف معنى الاستواء وحمله على الحقيقة اللغوية:

فقد جاءت روايات كثيرة عن عدد كبير من السلف فسَّروا فيها صفة الاستواء بناءً على معناها في اللغة، ودخلوا في بيان مدلولها وأعلنوا فيها التزامهم به ووجوب الأخذ بما يقتضيه من معانٍ.

وقد تنوعت المعاني التي نقلت عنهم في صفة الاستواء على العرش، ومما نقل عنهم أنهم فسَّروها بالعلو والارتفاع والصعود والقعود والاستقرار.

فقد روى البيهقي وغيره عن الفراء أنه قال: «قال ابن عباس «ثم استوى» أي: صعد»[2].

وفي رواية أخرى أن ابن عباس فسر الاستواء بالقعود[3].

وروى البخاري تعليقاً على أبي العالية أنه قال: (استوى إلى السماء) ارتفع، وروى عن مجاهد أنه قال: (استوى) علا على العرش[4].

(١) كالذهبي في كتابيه: العلو والعرش، وابن عبدالهادي في كتابه: الكلام على مسألة الاستواء على العرش، وغيرهما.
(٢) الأسماء والصفات (٢/ ٣١٠).
(٣) نقله ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية عن تفسير السدي (٢٥١).
(٤) صحيح البخاري (٩/ ٥١).

وروى ابن جرير الطبري عن الربيع ابن أنس: «ثم استوى إلى السماء». يقول: «ارتفع إلى السماء»[5].

وقد كان كثير من السلف يعدّ قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، من الآيات الدالة على صفة العلو الذاتي لله تعالى.

وروى اللالكائي عن بشر بن عمر أنه قال: «سمعت غير واحد من المفسرين يقولون: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] ارتفع»[6].

وروى اللالكائي وغيره عن نقطويه قال: حدثني أبو سليمان داود بن علي قال: كنا عند ابن الأعرابي فأتاه رجل فقال له: ما معنى قول الله عز وجل: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]؟ فقال: هو على عرشه كما أخبر عز وجل. فقال: يا أبا عبد الله، ليس هذا معناه، إنما معناه استولى. قال: اسكت، ما أنت وهذا، لا يقال: استولى على الشيء إلا أن يكون له مضاد فإذا غلب أحدهما قيل استولى[7].

فقد أقرَّ ابن الأعرابي صحة السؤال عن المعنى وأجاب عليه، ولو كان مذهبه التفويض لأنكر أصل السؤال، ثم إن إنكاره على تعقيب السائل كان لأجل أنه حدد معنى خاطئاً للاستواء، وليس لأنه بحث في أصل المعنى.

وقال الإمام المفسر أبو الفتوح، سليم ابن أيوب الرازي، في تفسير قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾: قال أبو عبيدة: علا، وقال غيره: استقر[8]، وقال البغوي: «ثم استوى على العرش» قال الكلبي ومقاتل: استقر، وقال أبو عبيدة: صعد[9].

وهذا الاختلاف بين أئمة التفسير واللغة يدل على أن السلف كانوا يبحثون في معنى الاستواء ولم يكونوا يفوضون المعنى ويسكتون عنه.

وروى اللالكائي عن أبي العباس/ ثعلب أنه قال: «استوى على العرش»: علا، ثم قال: هذا الذي يعرف من كلام العرب[10].

وقال الأخفش في قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ أي: علا، يقال: استويت فوق الدابة وعلى ظهر البيت أي علوته[11].

(٥) تفسير الطبري (١/ ٤٢٩).
(٦) شرح اعتقاد اهل السنة والجماعة (٣/ ٣٩٧).
(٧) شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٤٤٢).
(٨) نقله عنه الذهبي في العلو، رقم (٥٢٨).
(٩) معالم التنزيل (٣/ ٢٣٥)
(١٠) شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢/ ٣٩٩).
(١١) تهذيب اللغة، الأزهري (١٣/ ١٢٥).

وقال الإمام القصاب في تفسيره: «قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ حجة على الجهمية؛ لأن الاستواء في هذا الموضع هو الاستقرار، فقوله: ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: استقر عليه»[1].

وينقل ابن تيمية عن ابن المبارك وغيره أنهم فسروا الاستواء بالاستقرار، فيقول: «وقال ابن المبارك ومن تابعه من أهل العلم – وهم كثير – إن معنى استوى على العرش: أي: استقر، وهذا قول القتيبي»[2].

وقال المزني – إمام الشافعية في وقته – في وصف الله تعالى: «السميع البصير العليم الخبير الرفيع عالٍ على عرشه وهو دانٍ بعلمه»[3].

وقال ابن قتيبة في سياق إنكاره على الجهمية: «وكيف يسوغ لأحد أن يقول إنه بكل مكان على الحلول مع قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ أي: استقر، كما قال: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: ٢٨] أي: استقررت»[4].

وأما ابن جرير الطبري فإنه فسر جميع المواطن التي جاء فيها ذكر الاستواء على العرش بأنه العلو والارتفاع[5].

وقال ابن عبد البر في سياق تفسيره لصفة الاستواء: «الاستواء: الاستقرار في العلو، وبهذا خاطبنا الله عز وجل، وقال: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٣]...»[6]، ثم ساق بعض النقول عن أئمة اللغة وغيرهم، وابن عبد البر في كلامه السابق يقرّر قاعدة كلية قام عليها مذهب أئمة السلف، وهي أن الله خاطبنا بما نعرف في لغة العرب، فلا بد من فهم كلامه بناءً على ما تقتضيه تلك اللغة.

وقد أكد القرطبي – صاحب التفسير – أن أئمة السلف كانوا يعتقدون أن الاستواء صفة حقيقية، فقال: «ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة، وخص العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته، وإنما جهلوا كيفية الاستواء، فإنه لا تعلم حقيقته»[7]، وقال أبو بكر ابن موهب المالكي شارح رسالة ابن أبي زيد في تلخيص معتقد أئمة السلف: «أقروا بصفة الاستواء على عرشه وأنه على الحقيقة لا على المجاز»[8].

هذه بعض التفسيرات المتنوعة التي وردت عن أئمة السلف في تفسير صفة الاستواء على العرش، وهناك غيرها مما لم ينقل، وتواردُ ذلك العدد من المقالات عن الأئمة والعلماء يدل على أن الدخول في تفسير صفة الاستواء ليس قضية خفية في عهد السلف، وإنما هو قضية مشهورة ومنقولة ومتداولة باستفاضة ظاهرة.

ونقلُ أئمة السنة لتلك التفسيرات وروايتهم لها دليلٌ على قبولهم ورضاهم بها، ولو كان تفسير الاستواء بتلك المعاني أمراً منكراً لبادر أئمة السلف إلى إعلان النكير عليه، كما فعلوا مع تفسير الجهمية للاستواء بالاستيلاء، فكون أئمة السلف يتركون الإنكار على ذلك، بل ويبادرون إلى نقلها وروايتها؛ هو دليلٌ على أن مبدأ تفسير نصوص الصفات مقبول لديهم وأنه من صميم منهجهم.

ومع ذلك لا بد من التأكيد على أن بعض علماء أهل السنة خطَّأ بعض تلك التفسيرات، لكن ليس المقصود من هذا البحث تحرير القول في معاني الاستواء المنقولة عن السلف ولا تفصيل القول فيها، وإنما المقصود منها إثبات أن السلف لم يسكتوا عن نصوص الاستواء ولم ينهوا عن الدخول في بحث معناها، ولم يكونوا مفوضة لمعانيها كما يصور علماء الأشاعرة، بل كانوا على النقيض من ذلك.

ومما يدل على أن تلك التفسيرات مناقضة للتفويض: أن علماء الأشاعرة أنفسهم حكموا على ما ورد عن السلف من تفسير صفة الاستواء بأنه تشبيه وتجسيم، فقد حكم الرازي باستحالة تفسير الاستواء في حق الله بالاستقرار والعلو والجلوس، وفي هذا يقول: «لا يمكن حمل قوله «ثم استوى على العرش» على الجلوس والاستقرار وشغل المكان والحيز»[9]، وفي سياق حديثه عن مقتضيات مذهب التفويض ذكر منها: إنه لا يجوز تبديل لفظ من الألفاظ المتشابهة بلفظ آخر، «وإنه يجب الاحتراز عن التصريف فيها، فإذا ورد قولنا «استوى» فلا ينبغي أن نقول: إنه مستوٍ؛ لما ثبت في البيان أن اسم الفاعل يدل على كون المشتق

(١) نكت القرآن (٤٢٦).
(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٥١٩).
(٣) نقله ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (١٦٦).
(٤) تأويل مختلف الحديث (٢٧١).
(٥) انظر مثلاً: (١٦/ ٣٢٥).
(٦) التمهيد (٧/ ١٣١).
(٧) أحكام القرآن (٧/ ٢١٩).
(٨) نقله ابن القيم في اجتماع الجيوش (١٨٩).
(٩) التفسير الكبير (٥/ ٢٦٩).

منه متمكناً ثبتاً مستقراً»[1]، فإذا كان الأمر كذلك فكيف يكون السلف مفوضة وهم قد فسروا لفظ الاستواء بألفاظ متعددة وتصرفوا في اللفظ بطرق مختلفة؟!

وقال ابن جماعة: «قوله تعالى ﴿اسْتَوَى﴾ يتعيّن فيه معنى الاستيلاء والقهر، لا القعود والاستقرار؛ إذ لو كان وجوده تعالى مكانياً أو زمانياً للزم قدم الزمان والمكان»[2].

وأما الآمدي فإنه بعد أن ذكر قول من جعل مستنده في إثبات الصفات النصوص الشرعية وسرد عدداً منها، قال: «وفي الاستواء قوله تعالى «ثم استوى على العرش» وإلى غير ذلك من الآيات، واعلم أن هذه الظواهر – وإن وقع الاغترار بها بحيث يقال بمدلولها اللغوي والعرف الاصطلاحي – فذلك لا محالة انخراط في سلك التجسيم ودخول في طرف دائرة التشبيه»[3]، وقال أبو العباس القرطبي في سياق حديثه عن مذاهب الأمة في الصفات الإلهية: «وقال بعضهم: نقرؤها ونفسرها على ما يحتمله ظاهر اللغة، وهذا قول المشبهة»[4].

وأما ابن جهبل فإنه وصف كل من فسر الاستواء بالفوقية والاستقرار والجلوس، بأنه مشبه مجسم خارج عن السنة[5].

وقال ابن التلمساني: «ذهبت الحشوية والكرامية إلى أن الباري تعالى مختص بجهة فوق.. والحشوية حملت الاستواء على ظاهره، وامتنعت عن التأويل»[6].

وذكر السبكي – الأب – أن الاستواء في اللغة له معنيان، وقال بعد أن ذكر المعنى الأول: «والمعنى الثاني للاستواء في اللغة: الجلوس والقعود، ومعناه مفهوم من صفات الأجسام، لا يعقل منه في اللغة غير ذلك، والله منزه عنها»[7]، وقال السبكي بعد أن ذكر استعمال ابن القيم للألفاظ التي استعملها أئمة السلف؛ كالقول بأن الله فوق السماء وأنه بائن من خلقه وأنه فوق العرش وأن القدمين فوق الكرسي وأن النبي ﷺ يقعده الله معه على العرش؛ قال: «وهكذا أكثر ما ذكره لم يجيء لفظه في قرآن ولا سنة، بل هو زيادة قد كذب فيها على الله وعلى رسوله ﷺ، وفهمها على الحق، ونسب إلى علماء المسلمين البرآء من السوء كل قبيح»[8]، مع أن ابن القيم لم يذكر شيئاً من ذلك إلا نقلاً عن أئمة السلف!

وقال الحصني الدمشقي: «من جعل الاستواء بمعنى الاستقرار والتمكن فقد ساوى بينه وبين خلقه»[9].

وحين شرع ابن خلدون في شرح منهج أبي الحسن الأشعري وأتباعه قال: «وأما لفظ الاستواء والمجيء والوجه واليدين والعينين وأمثال ذلك، فعدلوا عن حقائقها اللغوية لما فيها من إيهام النقص بالتشبيه»[10].

وقال الكوثري: «الاستواء لم يذكر في تلك الآيات إلا بصيغة الفعل المقرون بأداة التراخي، ومن قال: إنه مستوٍ نطق بما لم يأذن به الله كائناً من كان، ومن زاد وقال: استوى بذاته بمعنى استقر، فهو عابد وثن خيالي، إن لم يكن عامياً»[11].

وقد اعترض علماء الأشاعرة على ابن تيمية في مواطن متعددة في العقيدة الواسطية، ومنها: أن بعضهم قال: نقر باللفظ القرآني كما هو، ولا نقول الله على العرش استوى ولا نقول مستوٍ، بحيث يقال اللفظ بعينه ولا يبدل بلفظ يرادفه ولا يفهم منه معنى، وقالوا لابن تيمية: «قولك حق على حقيقته، الحقيقة هي المعنى اللغوي، ولا يفهم من الحقيقة اللغوية إلا استواء الأجسام وفوقيّتها، ولم تضع العرب ذلك إلا لها، فإثبات الحقيقة هو محض التجسيم»[12].

وهذه المقالات والمواقف من علماء الأشاعرة تدل على أن إثبات المعاني اللغوية للاستواء وذكر مرادفاتها في اللغة والتصرف في اللفظ – وكل ذلك وارد عن أئمة السلف –؛ يعد أمراً مناقضاً للتفويض؛ ولهذا حكموا عليه بالتشبيه والتجسيم.

ونتيجة هذا التقرير تؤكد أن ما ينقله علماء المذهب الأشعري عن أئمة السلف من أنهم كانوا يفوضون فيها المعنى ولا يبحثون عنه وينهون عن السؤال عنه والحديث فيه؛ غير صحيح، بل هو متناقض مع حالهم تمام التناقض.

(١) أساس التقديس (٢٣٣).
(٢) إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل (١٣٢).
(٣) غاية المرام في علم الكلام (١٣٧–١٣٨).
(٤) أحكام القرآن (١/ ٢٥٤).
(٥) انظر: طبقات الشافعية، تاج الدين السبكي (٩/ ٣٥).
(٦) شرح معالم أصول الدين (٢٠٩).
(٧) السيف الصقيل (٧٧).
(٨) المرجع السابق (٥٣–٥٤).
(٩) دفع شبه من شبه وتمرد (٢٠).
(١٠) المقدمة – ت/ علي وافي – (١٠٨٨).
(١١) السيف الصقيل – حاشية – (٩٩).
(١٢) مجموع الفتاوى (٣/ ١٧٨).

الطريق الثاني: استعمال أئمة السلف ما يدل على أنهم يثبتون استواءً ذاتياً حقيقياً:

ومما يدل على أن أئمة السلف لم يكونوا مفوضة في صفة الاستواء، ولم يمنعوا من الدخول في معناها ومدلولها، وأنهم كانوا يعتقدونها صفة حقيقية قائمة بذات الله، وأنها تعني العلو والارتفاع الحقيقي على العرش؛ أنهم كانوا يؤكدون كثيراً أن استواء الله على العرش يكون بذاته وبنفسه، وأنه في استوائه على العرش بائن من خلقه، فهذه التقييدات والتوضيحات تدل على أنهم يؤمنون بأن استواء الله على عرشه استواء حقيقي ذاتي.

ومقالات أئمة السلف التي استعملوا فيها تلك الألفاظ كثيرة جداً، وقد وردت عن أكثر من عشرين منهم نصاً، ومن ذلك:

ما رواه ابن أبي حاتم أن هشام بن عبيد الله الرازي صاحب محمد بن الحسن - قاضي الري - حبس رجلاً في التجهم فتاب فجيء به إلى هشام ليطلقه فقال: الحمد لله على التوبة. فامتحنه هشام فقال: أتشهد أن الله على عرشه بائن من خلقه؟ قال: أشهد أن الله على عرشه، ولا أدري ما بائن من خلقه. فقال: ردوه إلى الحبس فإنه لم يتب»[1].

وروى عن يحيى بن معاذ أنه قال: «إن الله على العرش بائن من الخلق، وقد أحاط بكل شيء علماً»[2].

وروي عن عبدالله بن أبي جعفر الرازي أنه كان يضرب قرابة له بالنعل على رأسه يرمي برأي جهم ويقول: «لا حتى تقول «الرحمن على العرش استوى» بائن من خلقه»[3].

وعن علي بن الحسن ابن شقيق عن ابن المبارك قال: قيل له كيف نعرف ربنا؟! قال: بأنه فوق السماء السابعة على العرش بائن من خلقه»[4].

ويقول ابن أبي شيبة: «توفرت الأخبار على أن الله تعالى خلق العرش فاستوى عليه بذاته، ثم خلق الأرض والسموات، فصار من الأرض إلى السماء، ومن السماء إلى العرش، فهو فوق السموات وفوق العرش بذاته»[5].

وقال يوسف بن موسى القطان: «قيل لأبي عبدالله: الله فوق السماء السابعة على عرشه، بائن من خلقه، وعلمه وقدرته بكل مكان؟! قال: نعم»[6].

وقال الدارمي: «الآثار التي جاءت عن رسول الله في نزول الرب تبارك وتعالى تدل على أن الله عز وجل فوق السموات على عرشه بائن من خلقه»[7].

وقال ابن خزيمة: «من لم يقرّ بأن الله على عرشه، استوى فوق سبع سمواته، بائن من خلقه؛ فهو كافر يستتاب، فإن تاب وإلا ضُربت عنقه»[8].

وأما أبو القاسم الطبراني فإنه عقد باباً خاصاً في كتابه «السنة» قال فيه: «باب ما جاء في استواء الله على عرشه وأنه بائن من خلقه»[9].

وقال ابن أبي زيد المالكي في رسالته الشهيرة: «وإنه فوق عرشه المجيد بذاته، وعلمه في كل مكان»[10].

واستعمال هذه الألفاظ مشتهر جداً عند السلف حتى قال أبو نصر السجزي: «وأئمتنا: الثوري ومالك وابن عيينة وحماد ابن سلمة وحماد بن زيد وعبدالله ابن المبارك وفضيل بن عياض وأحمد وإسحاق؛ متفقون على أن الله فوق عرشه بذاته، وأن علمه بكل مكان»[11].

بل إن بعض أئمة أهل السنة نقل إجماع أئمة السلف على استعمال هذه الألفاظ، فقد قال عبدالرحمن ابن أبي حاتم: «سألت أبا حاتم وأبا زرعة الرازيين رحمهما الله عن مذاهب أهل السنة في أصول الدين، فقالا: أدركنا العلماء في جميع الأمصار: حجازاً وعراقاً ومصراً وشاماً ويمناً، وكان من مذهبهم: أن الله على عرشه بائن من خلقه، كما وصف نفسه بلا كيف، أحاط بكل شيء علماً»[12]، وقال أبو عمرو الطلمنكي: «أجمع المسلمون من أهل السنة على أن الله استوى على العرش بذاته»[13].

والغريب حقاً أنه مع تلك الكثرة والاستفاضة والإجماع المنقول ينكر ابن الجوزي استعمال السلف للفظ «بذاته»، حيث يقول: «ولم يقل السلف: تلاوة ومتلو، وقراءة ومقروء، ولا قالوا: استوى على العرش بذاته، ولا قالوا: ينزل بذاته،

(١) نقله عنه ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (١٤٠).
(٢) نقله الذهبي في العلو (١٣٩).
(٣) نقله الذهبي في العرش (٢٣٩).
(٤) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية (٤٧).
(٥) كتاب العرش، لابن أبي شيبة (٢٩١).
(٦) أورده ابن بطة في الإبانة/ تتمة الرد على الجهمية، رقم (١١٥).
(٧) الرد على الجهمية (٧٣).
(٨) نقله الذهبي في العرش (٢٧٧).
(٩) نقله الذهبي في العرش (٣١٦).
(١٠) رسالة ابن أبي زيد (٤).
(١١) نقله الذهبي في العرش (٣٤١).
(١٢) أخرجه اللالكائي في شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة، رقم (٣٢١).
(١٣) نقله ابن تيمية في درء التعارض (٢/ ٣٥)، والذهبي في العلو (٢٦٤).

بل أطلقوا ما ورد من غير زيادة»[١].

وتلك التصريحات المستفيضة من أئمة السلف تدل على أنهم كانوا مدركين معنى الاستواء في حق الله تعالى، فقد كانوا يقصدون بها تأكيد المعنى الحقيقي الذاتي للاستواء، ومما يدل على ذلك أن أئمة السلف إنما استعملوا تلك الألفاظ – مع عدم ورودها في نصوص الشريعة – من أجل الرد على الجهمية الذين يقولون إن الله بذاته في كل مكان، فعبّروا بتلك الألفاظ ليكشفوا عن حقيقة إيمانهم المناقض لما تقول به الجهمية في صفة العلو والاستواء.

فتلك الألفاظ إذن دالة بالضرورة على أن أئمة السلف لم يكونوا مفوضة ولم يكن حالهم هو السكوت وترك البحث في معنى الاستواء.

ومما يدل على ذلك ويؤكده أن عدداً من علماء الأشاعرة عدّوا استعمال تلك الألفاظ تشبيهاً وتجسيماً، فقد قال ابن الجوزي: «وقد حمل قوم من المتأخرين هذه الصفة على مقتضى الحس، فقالوا: استوى على العرش بذاته، وهذه زيادة لم ينقلوها، وإنما فهموها من إحساسهم»[٢]، وقال ابن جماعة: «فمن جعل الاستواء في حقه تعالى ما يفهم من صفات المحدثين، وقال: استوى بذاته، أو قال: استوى حقيقة؛ فقد ابتدع بهذه الزيادة»[٣]، وقال الحصني الدمشقي: «وزاد بعضهم استوى على العرش بذاته، فزاد هذه الزيادة، وهي جرأة على الله بما لم يقل»[٤].

فهذه المقالات إقرار من علماء الأشاعرة بأن من يستعمل تلك الألفاظ – التي توارد أئمة السلف على استعمالها – لا يكون مفوضاً أبداً، فكيف ينسبون مع ذلك التفويض إلى السلف؟! أليس في ذلك تناقض ظاهر وبيّن؟!

ولا بد من التأكيد هنا على أن بعض علماء أهل السنة والجماعة المتأخرين – كالإمام الذهبي – كان يفضّل ترك استعمال لفظة «بذاته وبائن ونحوها»[٥]، لكن سبب ذلك منحصر في عدم ورودها في النص فقط، وليس له علاقة بقضية تفويض المعنى كما يريد أن يصوره بعض الأشاعرة المعاصرين.

(١) صيد الخاطر (٢٣).
(٢) دفع شبه التشبيه (٣٢).
(٣) إيضاح الدليل (١٠٧).
(٤) دفع شبه من شبه وتمرد (١٩).
(٥) انظر: كتاب العلو (١٢٩١).

الطريق الثالث: تحدث السلف عن قضية الحد لله نفياً وإثباتاً:

تعدُّ قضية الموقف من إثبات الحد لله من القضايا الدقيقة، وقد خاض فيها السلف بعد أن صرح الجهمية في زمنهم بإنكار الحد لله، ويقصدون به إنكار صفة العلو الذاتي والاستواء. واستعمل أئمة السلف لفظ الحد في قضية الاستواء والعلو والنزول، وقد اختلفت طرائقهم وأنظارهم في الموقف من الحد إثباتاً ونفياً، فمنهم من أثبت الحد لله، ومنهم من نفاه، ومنهم من ورد عنه النفي والإثبات، فممّن أثبت الحد لله: عبدالله ابن المبارك، وعبدالله ابن الزبير الحميدي، وسعيد بن منصور، والإمام أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وحرب بن إسماعيل الكرماني، وعثمان بن سعيد الدارمي، وعبدالله ابن الإمام أحمد، وغيرهم كثير[٦].

وممّن روي عنه إنكار الحد: الإمام أحمد في رواية عنه، والإمام أبي حنيفة، وأبو نصر السجزي، وغيرهم.

وهذا التنوع عنهم في الموقف من الحد إثباتاً ونفياً ليس اختلافاً حقيقياً، وإنما هو اختلاف تنوع بحسب المقصود من الحد والمراد منه، فالحد يطلق ويراد به عدة معانٍ، بعضها صحيح وبعضها باطل، فإن قصد بالحد الإحاطة بالشيء علماً وإدراكاً، فهذا المعنى باطل في حق الله، وعليه يحمل كلام من نفى الحد من السلف، وإن

(٦) انظر في جمع أقوالهم: إثبات الحد لله وبأنه قاعد وجالس على العرش، أبو القاسم الدشتي.

قصد بالحد تميّز الشـــيء عن غيره وانفصاله عنه وعدم اختلاطـــه به، فهو معنى ثابت للـــه، وهو المقصود بصفة العلو والاســـتواء على العرش، وعليه يُحمل كلام من أثبت الحد لله من الســـلف، وفي تلخيص هذين المعنيين يقول ابـــن أبي العز: «ومن المعلوم أن الحد يقال على ما ينفصل به الشـــيء ويتميز به عن غيره، والله تعالى غير حال في خلقه، ولا قائم بهم، بل هو القيوم القائم بنفسه، المقيم لما ســـواه.. فالحد بهذا المعنى لا يجوز أن يكون فيه منازعة فـــي نفس الأمر أصلاً، فإنه ليس وراء نفيه إلا نفي وجود الرب ونفي حقيقته.. وأما الحد بمعنى العلم والقول، وهو أن يحده العباد، فهذا منتف بلا منازعة بين أهل السنة»[1].

ودخول السلف في قضية الحد نفياً وإثباتاً دليلٌ أكيد على أنهم لم يكونوا مفوضة في صفة الاستواء على العرش ولا غيرها؛ لأن ذلك الدخول يدل على أنهم تجاوزوا مجرد الوقوف على لفظ النص والســـكوت عن البحث في معناه إلى البحث في مقتضيات إدراك المعنى وفهمه، ولأجل ذلك أمكنهم أن يتحدثوا في قضية الحد نفياً وإثباتاً.

وممـــا يدل على أن إثبات الحد في صفة الاســـتواء مناقـــض للتفويض: أن بعض علماء الأشـــاعرة بادر إلى تأويل الروايات التي نقلت عن الســـلف في هذه القضية، ولهـــذا فإن البيهقي حين أورد قول المبارك الذي جاء فيه إثبات الحد، أوّله بمعنى بعيد جداً عن مدلول الســـياق، فقال: «إنما أراد عبدالله بالحد حد السمع، وهو أن خبر الصادق ورد بأنه على العرش اســـتوى، فهو على عرشه كما أخبر، وقصد بذلك تكذيب الجهمية فيما زعموا أنه في كل مكان»[2]، وهذا التصرف من البيهقي يدل على أنه مدرك بأن ما روي عن أئمة الســـلف في إثبات الحد لله يتناقض مع التفويض الذي ينسبه إليهم.

وحين تعرض الكوثري لكتاب «إثبات الحد لله، وبأنه قاعد وجالس على العـــرش»، الذي نقل فيه مؤلفه كلام أئمة السلف في إثبات الحد لله وفي صفة الاستواء على العرش؛ ذمه ذماً شديداً بحجة أنه قرر ما يثبت التجسيم والتشبيه في حق الله تعالى، فكيف يكون أئمة السلف مع ذلك مفوضة في صفة الاستواء؟!

(١) شرح الطحاوي (١/ ٢٤٠).
(٢) الأسماء والصفات (٢/ ٣٣٦).

الطريق الرابع: موقف السلف من قضية إقعاد النبي عليه الصلاة والسلام على العرش:

وردت أحاديـــث متعددة جاء فيها إثبات إقعاد الله تعالى النبـــي ﷺ معه على العرش، لكن كل الأحاديث المرفوعة في هذه القضية موضوعة[3]، ومـــع ذلك فقد صح عن مجاهد أنه قال في تفسير قوله تعالى: «عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً»، قال: «يجلسه معه على العرش»[4].

وقـــد أنكر الجهمية هذه الفضيلة للنبي ﷺ، فقام أبو بكر المروزي بتأليف كتاب جمع فيه فتاوى أئمة السلف الذين أيّدوا مجاهـــد في إثباته تلك الفضيلة، وممـــن أفتاه في ذلك: «أبو داود صاحب الســـنن، وعبدالله ابن الإمـــام أحمد، وإبراهيم الحربي، ويحيى بن أبـــي طالب، وأبو جعفر الدقيقي، ومحمد ابن إسماعيل الســـلمي الترمذي، وعباس بن محمد الدوري، ومحمد بن بشر بن شريك بن عبدالله النخعي»[5].

وأفتاه أيضاً: «أبو قلابة عبدالملك بن محمد الرقاشـــي، وأبـــو بكر بن حمـــاد المقـــري، وعلي ابـــن داود القنطري، ومحمد بن عمران الفارسي الزاهد، وإسماعيل بن إبراهيم الهاشـــمي، ومحمد بن يونس البصـــري، وأحمد بن أصرم المزنـــي، ومحمدان بن علي، وأبو بكـــر بن صدقة، وعلي بن سهل، والحســـن بن الفضل، وهارون بن العباس الهاشمي، وأبو عبدالله بن عبدالنور، وإبراهيم الأصبهاني.

وكذلـــك أفتى من الأئمة قبل هذه الطبقة إســـحاق بن راهويه، وأبو عبيد القاســـم بن ســـلام، ومحمد بن مصعب العابد، وبشر الحافي، وهارون بن معروف، وجماعة غيرهم من أئمة الحديـــث والفقه يطول ذكرهم، اختصرت نصوص قولهم، لكنهم يقولون ما معناه إن هذا الخبر يسلم كما جاء، ولا يعارض – يعني خبر مجاهد»[6].

وليـــس المقصود من هذه الورقـــة تحقيق القول في هذه القضية، وإنما المقصـــود منها إثبات أن عدداً كبيراً من أئمة السلف المشهورين خاضوا في هذه القضية وصرحوا بإثباتها والأخذ بها، وجعلـــوا ذلك فاصلاً بينهم وبين الجهمية، وهذا يدل بالضرورة على أنهم لم يكونوا مفوضة في صفة الاستواء؛ إذ لو كانوا كذلك لما خاضوا في هذه المسألة ولما صرحوا بها؛

(٣) انظر: درء التعارض، ابن تيمية (٥/ ٢٣٧)، والعلو، الذهبي (٧١٦).
(٤) أخرجه: ابن أبي شيبة في المصنف، رقم (١١٦٩٨)، والآجري في الشريعة، رقم (١١٠١، ١١٠٢)، وغيرهما كثير، وصححه عدد من الأئمة.
(٥) العرش، الذهبي، (٢١٨).
(٦) العرش، الذهبي، (٢٦٥).

لأن إثبـــات هذه الفضيلة للنبي ﷺ لا يمكن أن يتصور إلا مع تصور معنى الاستواء على العرش والقعود عليه.

ومما يدل على أن هذا الإثبـــات مناقض للتفويض: أن عدداً من أئمة المذهب الأشـــعري أنكـــروا قضية إقعاد الله النبي ﷺ على العرش، بحجة أن ذلك تشـــبيه وتجســـيم[١]، وقد صرح ابن فـــورك بأنه لا يأخذ بأثر مجاهد وأنه يجب تأويله على معنى النصرة والتأييد[٢].

وهـــذا إقرار ضمنـــي من علماء الأشـــاعرة بأن أولئك الأئمة من السلف لم يكونوا مفوضة في صفة الاستواء على العرش، بل كانوا يســـتعملون ألفاظاً ظاهرة في الإثبات وفي العلم بالمعنى، ولهذا اضطروا إلى تأويل ما جاء عنهم.

ولا بد من التأكيد هنا على أن من أهل السنة من أنكر قضية إقعاد الله النبي ﷺ على العـــرش، لكن إنكاره راجع إلى أن هذه القضية لم تثبـــت في النصوص، وإلى أن ذلك مخالف للنصوص الصريحة الصحيحة في تفســـير المقام المحمود[٣]، وليس راجعاً إلى أن ذلك يقتضي التشبيه والتجسيم كما يقول علماء الأشاعرة.

فهذه الطرق الأربعة مفردة ومجتمعة تدل دلالة قوية ظاهرة على أن أئمة السلف لم يكونوا مفوضة في صفة الاستواء، وأنه لم يكن من منهجهم الســـكوت عن البحث في معاني النصوص الشـــرعية الـــواردة في تلـــك الصفات ولا تـــرك الحديث عن مقتضياتها؛ وإنما كانوا على النقيض من ذلك، فقد فسروا صفة الاســـتواء وحددوا معناها وتكلموا في المراد منها، مع تأكيدهم على عدم إدراكهم كيفيّتها، واستعملوا العبارات والمقالات الدالة على أنهم يؤمنون باستواء حقيقي ذاتي قائم بالله تعالى.

ومجموع مـــا روي عنهم في صفة الاســـتواء يعدّ بمنزلة النص الظاهر الدال على عدم ســـلوكهم منهج التفويض، ويعدّ بمنزلة النص المحكم الذي يجب أن تحمل عليه المقالات المجملة التي رويت عن بعض أئمة الســـلف، لكن الغريب حقاً أن علماء الأشـــاعرة قلبوا القضية، فجعلوا تلـــك العبارات المجملة هي الأصـــل المحكم، وأغفل بعضهم النظر إلى تلك المقالات الدالة على الإثبات الحقيقي، وقام بعضهم بتأويلها أو تكذيبها[٤]!

وما ثبت في صفة الاســـتواء فإنه يثبت في كل الصفات الأخرى؛ أما على مذهب أهل السنة فلأنهم يقررون أن باب الصفات واحد، وأن القول فـــي بعض الصفات كالقول في بعض[٥].. وأما على مذهب علماء الأشاعرة فلأنهم يؤكدون أنه لا فـــرق بين بعض الصفات الخبريـــة وبين بعض، وأنه لا فرق بين الصفات التي تقتضي الجســـمية وبين بعض[٦]، وصفة الاستواء على العرش من النوع الخبري الذي يقتضي الجسمية عندهم.

وإذا قـــارن الباحث البصيـــر – الملتـــزم بقوانين العلم والمحترم قيمة المنهجية البحثية الصارمة – بين ما ينســـبه ابن تيمية ومن عداه من أهل الســـنة المتأخرين والمعاصرين إلى أئمة الســـلف، وبين ما ينســـبه إليهم علماء الأشاعرة؛ يدرك بيقين الفرق بين النســـبتين، ويعلـــم علماً يقيناً أن ما يذكره ابن تيمية وغيره من علماء أهل السنة هو المتوافق مع ما كان عليه أئمة الســـلف والمتفق مع نصوصهم ومقالاتهم ومواقفهم، وأن ما ينسبه إليهم علماء الأشاعرة متناقض مع مقالاتهم الكثيرة والمتنوعـــة، ومتعارض مع نصوصهم، حتى اضطرهم ذلك إلى التأويل لمقالات أئمة السلف أو التكذيب لما هو ثابت عنهم.

خاتمة: ليس إلا واحد من خيارين:

بعـــد تحليل مذهب أئمة الســـلف في صفة الاســـتواء ودراســـة ما ورد عنهم حولها والتوصّـــل إلى أنهم لم يكونوا مفوضة فيها وأنهم كانوا عارفين بمعناها ومدلولها، وتأكيد ذلك بالطرق المتعددة والنقول الكثيرة؛ فإنه ليس أمام علماء المذهب الأشعري إلا واحد من خيارين:

إما أن يتراجعوا عن قولهم في تفويض الصفات وتأويلها ويأخـــذوا بما كان عليه أئمة الســـلف مـــن الإثبات لمعاني الصفات الإلهية وتفويض معناها.

وإمـــا أن يبقوا على مذهبهم ويتبرأوا من أئمة الســـلف ويصفوهم بالتشبيه والتجسيم.

وأما الخيار الثالث: وهو أن يبقوا على مذهبهم ويدَّعوا أن أئمة الســـلف متفقون معهم فيما هم عليه من التفويض والتأويـــل للصفـــات الإلهية، فهو خيـــار متناقض ومخالف للنصوص القطعية الظاهرة الواردة عن أئمة السلف.

(١) انظر: إيضاح الدليل، ابن جماعة، (٢٧٨).
(٢) انظر مشكل الحديث وبيانه (٣٣٩).
(٣) انظر: العلو، الذهبي، (٧١٦).
(٤) وسيأتي في بحوث لاحقة مناقشة تلك المقالات والكشف عن الخطأ المنهجي في تعامل علماء الأشاعرة معها.
(٥) انظر: العقيدة التدمرية، ابن تيمية، (٣١).
(٦) انظر: القول التمام بإثبات أن التفويض مذهب للسلف (١١٥).

الوقف.. بوابة العطاء

الوقف أنموذج إسلامي فريد يتجلى فيه الإبداع وعمق النظر وبُعد الرؤية، ومن أهم مقاصده: استمرار العطاء واستقرار أبواب المعروف؛ فالمال عرضة للزوال، والوقف سببٌ لحفظه وتنميته.

إنَّ بعض المشاريع الإسلامية ربما تتعثر بسبب ضعف التدفقات المالية، وربما تحاصَر ويضيَّق عليها، والوقف هو المخرج المستقبلي الآمن؛ فتعزيز ثقافته عند المقتدرين من أهل الدثور، وعند رواد الدعوة والإصلاح؛ من الأولويات المهمة التي تضمن حُسن التخطيط، وبناء الأهداف، ورسم التطلعات المستقبلية.

وفي هذا العصر تعدَّدت فرص الوقف، وتنوعت ميادينه، وتأكدت ضرورته، مع توسع مصالح المسلمين، وكثرة حاجاتهم؛ وهذا يعني أننا أحوج ما نكون إلى العناية به وتطويره وتعزيز دوره الدعوي والإصلاحي والتنموي.

وهنا نحن في مجلة البيان نفتح هذا الملف ليكون لبنة في نشر ثقافة الوقف، وجسراً لبناء الوعي، ونرحب بأي مقالات إثرائية أخرى تتم الملف وتعالج أبعاده الأخرى.

الوقف والحضارة الإسلامية

■ د. عبد الرحمن بن عبد العزيز الجريوي(*)

إن الوقف يعدُّ مفخرة من مفاخر الإسلام، حيث نشأ وتطور في ظل الحضارة الإسلامية، وقد عَرفت الأوقاف منذ عهد النبوة وعبر العصور الإسلامية نموّاً وتنوّعاً واتساعاً، فشمل كل ما يعتمد عليه الناس في معيشتهم وحاجاتهم الأساسية، ولم يقتصر على العناية بفئات المجتمع فحسب، بل وصل خيره وبره غير البشر من الدواب والطيور وغيرها مما لم يُعرف في حضارة سابقة أو معاصرة.

ومن قرأ تأريخ الوقف سيرى بوضوح أن الدول والحضارات ارتبطت بالوقف ارتباطاً وثيقاً من حيث النهضة والانحطاط والتقدم والقوة وضدها، وكم كانت الشعوب والأمم في اطمئنان اقتصادي واستقرار اجتماعي في ظلاله.

وفي هذه المقالة عرضٌ مختصر يبيّن مدى ارتباط الوقف بالحضارة واعتمادها – بعد الله – عليه.

(*) المشرف العام على مركز استثمار المستقبل للأوقاف والوصايا بالرياض، وأمين أوقاف جامعة سلمان بن عبدالعزيز بالخرج.

تعريف الوقف:

الوَقْف لغةً: بفتح فسكون: مصدر وقَفَ الشيء وأوقفه، يقال: وقف الشيء وأوقفه وقفاً أي حبسه، ومنه: وقف داره على الفقراء لأنه يحبس الملك عليهم، قال ابن فارس: «الواو والقاف والفاء أصل واحد يدل على تمكث في الشيء يقاس عليه»[1]، ومن هذا الأصل المقيس عليه يؤخذ الوقف، فإنه ماكث الأصل. فالوقف لغة: الحبس، والوقف والتحبيس والتسبيل بمعنى واحد، وهو: الحبس والمنع[2]، يقال: وقف وقفاً أي: حبسه، وشيء موقوف، والجمع وقوف وأوقاف مثل ثوب وأثواب ووقت وأوقات.

والفصيح أن يقال: وقفت كذا – من دون الألف – ولا يقال: أوقفت – بالألف – إلا في لغة تميمية وهي رديئة، وعليها العامة، وهي بمعنى سكت وأمسك وأقلع[3]. والحُبُس: بضم الحاء وسكون الباء بمعنى الوقف، وهو كل شيء وقفه صاحبه من أصول أو غيرها، يحبس أصله وتُسبل غلته[4].

والفقهاء يُعبّرون أحياناً بالوقف وأحياناً بالحبس، إلا أن التعبير بالوقف عندهم أقوى. وقد يُعبّر عن الوقف بلفظ الصدقة بشرط أن يقترن معها ما يفيد قصد التحبيس[5]. وجمع الحبس: حُبُس – بضم الباء – كما قاله الأزهري، وأحبُس بالألف أكثر استعمالاً من حبس[6]، على عكس (وَقَفَ)، فالأولى فصيحة، والثانية رديئة. أما التعريف الاصطلاحي للوقف: فقد جاءت تعريفات الفقهاء للوقف متباينة، ويُعزى ذلك إلى الاختلاف في بعض شروط الوقف؛ فقد عرّفه الحنفية بأنه عبارة عن: «حبس المملوك عن التمليك من الغير»[7]. وعرّفه المالكية بقولهم: هو «إعطاء منفعة شيءٍ مدةَ وجوده، لازماً بقاؤه في ملك معطيها، ولو تقديراً»[8]. وعرّفه الشافعية بأنه: «حبس مالٍ يمكن الانتفاع به مع بقاء عينه بقطع التصرف في رقبته على مصرف مباح»[9]. وعرّفه الحنابلة بأنه: «تحبيس الأصل وتسبيل المنفعة»[10]. والتعريف الأخير أجودها، إذ هو مأخوذ من قول النبي ﷺ لعمر – رضي الله عنه –: «احبس أصلها وسبل ثمرتها»[11]، «ويقصد بذلك حبس العين عن تمليكها لأحد من العباد، والتصدق بالمنفعة على الفقراء أو على وجه من وجوه البر»[12].

(١) معجم مقاييس اللغة ٦/١٣٥.
(٢) ينظر: مادة (وقف)، القاموس المحيط للفيروز آبادي، ٣/٢٠٥.
(٣) ينظر: القاموس المحيط ٣/٢٠٥.
(٤) القاموس المحيط ٢/٢٠٥.
(٥) كتاب شرح ألفاظ الواقفين والقسمة على المستحقين، للحطاب، ص١١.
(٦) تهذيب اللغة، للأزهري، ٤/٣٤٢.
(٧) المبسوط، لشمس الأئمة محمد بن أحمد السرخسي، ٢/٢٧.
(٨) شرح منح الجليل، لمحمد بن أحمد المالكي، ٤/٣٤.
(٩) تحفة المحتاج بشرح المنهاج، لأحمد بن محمد بن حجر الهيثمي، ٦/٢٣٥.
(١٠) المقنع في فقه إمام السنة أحمد بن حنبل الشيباني، لموفق الدين ابن قدامة المقدسي، ٢/٣٠٧.
(١١) سنن النسائي، كتاب الأحباس، باب حبس المشاع، برقم ٣٦٠٧.
(١٢) الوقف في الشريعة والقانون، لزهدي يكن، ص ٧.

الفرق بين الوقف والوصية:

يختلف الوقف عن الوصية في جملة أمور، ملخصها فيما يلي:

- الوصية: التبرع بالمال بعد الموت. أما الوقف فهو: تحبيس الأصل وتسبيل المنفعة، حال الحياة.

- في الوصية: يجوز لصاحبها أن يرجع عنها، وأن يغيّر فيها ما لم يكن في مرض موته؛ لأنها ملك له. أما الوقف: فلا يجوز الرجوع عنه، ولا يحق له أن يُغير فيه؛ لأنه ملكٌ لله تعالى.

- لا تتجاوز الوصية الثلث، إلا بإجازة الورثة. أما الوقف: فيجوز أن يتجاوز الثلث، مع ضرورة مراعاة عدم الإضرار بالورثة.

- الوصية: لا تجوز لوارث، إلا بإجازة الورثة. أما الوقف: فيصح على وارث.

- في الوصية: الموصى له يمتلك العين والمنفعة فله أن يتصرف بالعين كما يحب. أما في الوقف: فالموقوف عليه يتملك المنفعة دون العين، فلا يجوز له التصرف بعين الوقف مطلقاً.

التأصيل الشرعي للوقف:

الوقف من أعظم القربات التي يتقرب بها العبد إلى الله تعالى، وهو مندوب الفعل، سواء كان وقفاً على جهة من الجهات العامة، كالفقراء، وطلبة العلم، أو وقفاً على القرابة والذرية؛ دلَّت على مشروعيته نصوص عامة من القرآن الكريم، وفصَّلته أحاديث من السنة المطهرة، وعمل به الصحابة رضي الله عنهم، وأجمعت الأمة من السلف والخلف على مشروعيته. ومما يدل عليه من القرآن الكريم: قول الله جل وعلا: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢]. وقد جاء في الصحيحين، عن أنس رضي الله عنه أنه قال: (كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً، وكان أحبَّ أمواله إليه بَيرُحاء[١]، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما أُنزلت هذه الآية: «لن تنالوا البر...» قام أبو طلحة، فقال: يا رسول الله، إن الله تبارك وتعالى يقول: «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» وإن أحب أموالي إليّ بيرحاء، وإنها صدقة لله، أرجو برّها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. فقال رسول الله ﷺ: «بَخٍ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين». فقال: أفعلُ يا رسول الله. فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه)[٢]. ويدل عليه أيضاً عموم الآيات التي تحث على الإنفاق، وبخاصة صدقة التطوع، وقد تكررت في القرآن الكريم آيات كثيرة في هذا المقام، منها على سبيل المثال لا الحصر: قوله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٥]. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]. وغيرها من آيات الحث على البر التي تشمل الوقف باعتباره من أمثل وجوهها وأبوابها[٣].

---

(١) بيرحاء على صيغة فعيل من البراح وهي الأرض الظاهرة. انظر: لسان العرب، ٢/٤١٢. وهي موضع قِبَل المسجد النبوي يعرف بقصر بني جديلة (ينظر: هدي الساري مقدمة فتح الباري، ص٩١). على بعد ٨٤ متراً من المسجد، وهي داخلة حالياً في نطاق توسعة المسجد النبوي من الناحية الشمالية. انظر: (تاريخ معالم المدينة، للخياري، ص ١٨٩).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، رقم الحديث ١٤٦١.

(٣) يمكن لمن أراد أن يرجع إلى بعض منها أن ينظر على سبيل المثال: سورة البقرة الآيات: ٢١٥، ٢١٩، ٢٥٤، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٧٤؛ وسورة آل عمران، الآيتان: ١١٧، ١٣٤؛ وسورة النساء، الآيتان: ٣٤، ٣٨؛ وسورة الأنفال، الآية: ٣؛ وسورة التوبة، الآية: ٥٣؛ وسورة الحج، الآية: ٣٥؛ وسورة القصص، الآية: ٥٤؛ وسورة السجدة، الآية: ١٦؛ وسورة الشورى، الآية: ٤٢؛ وسورة الفرقان، الآية: ٦٧؛ وسورة الحديد، الآية: ١٠.

وأما نصوص السنة المطهرة الدالة عليه المرغبة فيه فكثيرة: حيث ثبت الوقف بقول النبي ﷺ وفعله وإقراره[1] بما ورد في شأنه من أحاديث عدة، منها: حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً واحتساباً فإن شبعه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة حسنات»[2]. وحديث وقف عمر رضي الله عنه، وفيه قوله ﷺ: «إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها، غير أنه لا يباع أصلها، ولا يبتاع، ولا يوهب، ولا يورث»[3]، وقد قال الحافظ ابن حجر في هذا الحديث: (وحديث عمر هذا أصل في مشروعية الوقف)[4]. وخبر شراء عثمان بن عفان رضي الله عنه بئر رومة ووقفه لها[5]. وحديث وقف طلحة بن عبدالله رضي الله عنه، وأَمْرِ الرسول ﷺ له بذلك[6]. ويستدل له كذلك بما ورد عن النبي ﷺ في الصدقة الجارية، من مثل قوله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له»[7]. وأما فعل النبي ﷺ للوقف فقد ابتدأ بمسجد قباء، ثم المسجد النبوي، كما أوقف ﷺ سبعة حوائط لرجل من اليهود يدعى مخيريق، قتل يوم أحد، وكان قد أوصى بأنه إن أُصيب فأمواله لرسول الله ﷺ يضعها حيث أراه الله[8]. وإما إقراره فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «فأما خالد فقد احتبس أدراعه وأعتاده في سبيل الله»[9].

أما الإجماع: فقد صرّح غير واحد من أهل العلم بأن إجماع الصحابة منعقد على صحة الوقف، فقد ذكر صاحب المغني «أن جابراً رضي الله عنه قال: «لم يكن أحد من أصحاب النبي ﷺ ذو مقدرة إلا وقف»، وهذا إجماع منهم، وقد اشتهر ذلك ولم ينكره أحد، فكان إجماعاً»[10].

وقد ظهر اتفاق الصحابة رضوان الله عليهم على مشروعية الوقف، حتى إنهم رضوان الله عليهم سارعوا في الوقف رغبة في الثواب العظيم من الله تعالى، قال الشافعي رحمه الله: بلغني أن ثمانين صحابياً من الأنصار تصدقوا بصدقات محرمات»[11]. وكان الشافعي رحمه الله يسمي الأوقاف الصدقات المحرمات[12].

ومذهب جمهور العلماء يؤكد الإجماع على الوقف منذ عهد النبي ﷺ وعهد الصحابة والتابعين وعلى مر تاريخ الأمة الإسلامية.

ولذلك؛ كان القياس أحد أدلة ثبوت الوقف: حيث «اتفق الفقهاء على أن بناء المساجد وإخراج أرضها من ملكية واقفها أصل في وقف الأصل، وحبس أصولها، والتصدق بثمرتها، فيقاس عليه غيره، ويلاحظ أن القليل من أحكام الوقف ثابتة بالسنة، ومعظم أحكامه ثابتة باجتهاد الفقهاء بالاعتماد على الاستحسان والاستصلاح والعرف»[13]. ولذا «أقرَّ جمهور العلماء من السلف ومَنْ بعْدَهم بأن الوقف جائز شرعاً»[14]، وفي هذا يقول ابن قدامة رحمه الله: «وأكثر أهل العلم من السلف ومن بعدهم على القول بصحة الوقف»[15]. ويقول الإمام أحمد رحمه الله: «من يُرِدّ الوقف، إنما يريد السنة التي أجازها النبي ﷺ وفعلها أصحابه»[16]. الشاهد من ذلك أنه لا خلاف بين الأئمة الأربعة في أن الوقف مسنون، فضلاً عن مشروعيته، وأنه قربة إلى الله تعالى، بل إنه من أحسن القرب التي يُتَقرّب بها إلى الخالق سبحانه وتعالى. يقول الإمام الشوكاني رحمه الله: «اعلم أن ثبوت الوقف في هذه الشريعة وثبوت كونه قربة أظهر من شمس النهار»[17].

وخلاصة القول في حكم الوقف: أن جمهور الفقهاء[18] من الشافعية والمالكية والحنابلة والحنفية – إلا رواية عن أبي حنيفة وزفر – يقولون إن الوقف جائز شرعاً – بل مندوب إليه –، وإن أصل مشروعيته ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة والقياس.

---

(١) ينظر: التصرف في الوقف لإبراهيم بن عبد الله الغصن، ١/ ٦٤.
(٢) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من احتبس فرساً في سبيل الله، ٢٨٥٣.
(٣) صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب الوقف كيف يكتب، برقم ٢٦٢٠.
(٤) ينظر: فتح الباري، كتاب الوصايا، باب الوقف كيف يكتب، ص ٤٦٩.
(٥) صحيح مسلم، كتاب الوصية، ٢/ ١٢٥٥.
(٦) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، رقم الحديث ١٤٦١.
(٧) أخرجه مسلم كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان بعد وفاته.
(٨) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٥٠١– ٥٠٣ بأسانيد متعددة. السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٩٩. البداية والنهاية ٥/ ٤١٦–٤١٧. وانظر: أحكام الوقف لمصطفى الزرقاء، ص١١، وأحكام الوقف لأحمد الخصاف ص٥.
(٩) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب في تقديم الزكاة ومنعها، برقم ٩٨٣.
(١٠) ابن قدامة، المغني، ٨/ ١٨٦.
(١١) ينظر: مغني المحتاج شرح المنهاج، الشربيني، ٢/ ٣٧٦.
(١٢) ينظر: مغني المحتاج للشربيني، ٢/ ٣٧٦.
(١٣) الأحكام الفقهية والأسس المحاسبية للوقف، د. عبد الستار أبو غدة ود. حسين شحاتة، ص ٤٨.
(١٤) مغني المحتاج ٢/ ٣٧٦– المغني ٨/ ١٨٥.
(١٥) المغني لابن قدامة، ٨/ ١٨٥.
(١٦) المبدع، ابن مفلح، ٥/ ٣١٢.
(١٧) السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، محمد بن علي الشوكاني، ٣/ ٣١٣.
(١٨) للوقوف على تفصيل آراء الفقهاء في ذلك يراجع: الأم، للشافعي، ١/ ٢٧٤–٢٧٥؛ والمدونة الكبرى للإمام مالك، رواية سحنون، ٦/ ١٥؛ والشرح الكبير على متن المقنع، لابن قدامة المقدسي، ٦/ ٨٥؛ والمبسوط، السرخسي، ١٢/ ٢٧؛ والإسعاف في أحكام الأوقاف، إبراهيم بن موسى الطرابلس، ص ٣.

أنواع الوقف:

يُستنبط مما ذكره الفقهاء من صور الوقف أنه يمكن أن يقسم إلى أقسام ثلاثة:

١. الوقف الخيري أو «الوقف العام»: وهو يصرف ريعه إلى جهات البر التي لا تنقطع.

٢. الوقف الأهلي أو «الخاص»: وهو ما يطلق عليه الوقف الذري، ويسمى في المغرب الأحباس المعقبة[١]، وهو تخصيص ريع للواقف أولاً ثم لأولاده ثم إلى جهة برّ لا تنقطع.

٣. الوقف المشترك: وهو ما خصصت منافعه إلى الذرية وجهة بر معاً.

خصائص الوقف:

يتميّز الوقف بمزايا عظيمة أكسبته قوة وفاعلية استمر أثرها قروناً طويلة، ولعل من أبرزها:

١. امتناع التصرف في أصل الوقف، وقد تحقق بهذا المبدأ حماية الوقف وعدم تعريضه لطيش المتولين عليه أو سوء نيتهم، وهو ما جعل الأصل في الوقف الاستمرار والبقاء. هذا وقف عثمان رضي الله عنه الذي ورد اسمه في أسماء المؤسسين في جبل عمر بمكة (بمبلغ عيني يمثل: ١٠,٥٣٧,٩٢٩) ريال[٢]. وقد درس باحث أمريكي حال أكثر الأسر الأمريكية ثراء منذ تأسست أمريكا وماذا آل إليه حال الورثة بعد سنوات طويلة، فوجد أن عائلة الثري الأمريكي (روك فلر) هي الوحيدة من بين قدماء العوائل الثرية التي احتفظ أبناؤها وبناتها بثرائهم بعد وفاة عميد الأسرة بمائة سنة، والسبب أنه: منعهم من بيع أصول التركة وأوصى بتوزيع العائد عليهم وجزء منه للمشاريع الخيرية[٣].

٢. ما استقر لدى الفقهاء من أن شرط الواقف الصحيح مثل حكم الشارع، فتحققت بذلك حماية الوقف واطمئنان الواقف إلى استمرار صرف وقفه في الأغراض التي تهمه ويُعنى بها، وتحقق بذلك سهولة إدارته، بل سهولة تشكيله وإمكانية بناء أنظمته حسب الحاجة والرغبة بما لا يتعارض مع القواعد الشرعية.

٣. ولاية القضاء على الأوقاف، فتحققت بذلك حماية الوقف من تدخل الحكومات[٤].

٤. تنوع الأموال الموقوفة بحيث يصح وقف ما يُملك على الصحيح من أقوال الفقهاء، فكان ذلك سبباً لفتح باب الوقف على مصراعيه أمام مريديه من كل فئات المجتمع.

٥. تنوع مجالات صرفه، بحيث تتسع لاحتياجات الناس ومصالحهم، وهكذا كان الوقف عبر مراحل التأريخ الإسلامي، حيث كان يقوم بجميع مصالح رعايا الدولة المسلمة.

٦. حفظ الله للمال الموقوف ورعايته له، وشواهد التأريخ على ذلك مبرهنة، وإليك أيها القارئ الكريم خبر هذا الوقف الذي يوضح هذه الخاصية: ذلك هو وقف عائشة المرشد بمحافظة الرس، التي أوقفت عام ١٢١٣هـ قطعة أرض خارج البلد، وجعلت ريع الوقف على محفظي القرآن الكريم، وظل الوقف قرابة مائتي عام لا يعرف، إلى أن أحياه - بأمر الله - قاضي البلد في تفصيلات طويلة، وقبل سنوات صارت الأرض الموقوفة داخل البلد، فبيعت بثلاثين مليون ريال، لجمعية تحفيظ القرآن الكريم بمحافظة الرس، والآن تقدر قيمة الوقف بـ ١٥٠ مليوناً، فإذا صلحت النية تقبل الله العمل وحفظه وبارك فيه، ولك أن تعرف أن هذه المرأة - عائشة المرشد رحمها الله - لم تعرف لها ذرية، وإنما تولى هذا كله واستخرجه بعد ضياع وأحياه - بأمر الله - قاضي الرس في حينه معالي الشيخ عبدالعزيز بن حميِّن الحميِّن، رئيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سابقاً، وهو الذي حدثني شخصياً بخبر هذا الوقف.

٧. النماء والبركة في المال الموقوف، حيث هو تجارة مع الله جل وعلا، ولعلنا هنا نكتفي بإيراد مثال معاصر تتبيّن من خلاله هذه الميزة العظيمة للوقف: إنه وقف الحاج رحيم في مكة «حاج من تركستان»: حيث وقفه صاحبه عام ١٣٠٧هـ، وكان أصل هذا الوقف عبارة عن غرفتين فقط، وفي عام ١٣٨٩هـ أصبح ريعه ٣٠٠،٠٠٠ ريال، وفي عام ١٤١٦هـ كان الوقف يملك ثلاثة أبراج في مكة، ثم حصلت للوقف نقلة كبيرة عندما تولى النظارة عليه أستاذ جامعي، فتفرغ له وطور استثماراته وحوله لإدارة مؤسسية، فأصبح الوقف في عام ١٤٣٣هـ يملك أحد عشر برجاً في مكة يقدر أحدها بـ ٤٠٠ مليون ريال، وبعد التوسعة الحديثة للحرم أصبحت بعض أبراج هذا الوقف تطل على ساحات الحرم مباشرة، وقد حدثني بخبر هذا الوقف الشيخ سعد بن محمد المهنا، رئيس محكمة القطيف، وهو من المهتمين بموضوع الأوقاف وله فيها جهود مباركة.

---

(١) تجربة الأوقاف في المملكة المغربية، لدرويش عبد العزيز، ص١١.

(٢) بحسب ما ورد في نشرة الاكتتاب الخاصة بشركة (جبل عمر) والمنشورة على موقع هيئة سوق المال.

(٣) مقال بعنوان: وقف عثمان رضي الله عنه للكاتب: عبدالله الجعيثن. (الموقع الإلكتروني لمركز استثمار المستقبل للأوقاف والوصايا).

(٤) الخصائص الثلاث من محاضرة الشيخ صالح الحصين حفظه الله، بعنوان: (تطبيقات الوقف بين الأمس واليوم، وهي من مطبوعات مركز استثمار المستقبل للأوقاف والوصايا بالرياض).

نماذج من الوقف عبر التاريخ الإسلامي:

من أشهر ما يمكن الإشارة إليه في استعراض نماذج الأوقاف وشمولها شتى مناحي الحياة، ما يلي:

١. الوقف على القرآن والحديث والمساجد والعلم، وما يتعلق به من إنشاء المدارس، والجامعات، والمكتبات، وصرف الرواتب على الطلبة والمعلمين: فقد كانت المساجد أول وقف في الإسلام، حيث بنى رسول الله ﷺ مسجد قباء (أول وقف في الإسلام)، ثم بنى مسجده ﷺ، وكان الناس يتسابقون إلى إقامة المساجد والصرف عليها، والتأريخ يسجل بإعجاب كثرة الأموال التي أنفقها الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك على بناء الجامع الأموي بدمشق مما لا يكاد يصدقه الإنسان لكثرتها[١].

ومما ذكر من مآثر نور الدين زنكي أنه بنى في بلاده مساجد كثيرة، ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن أوقافاً كثيرة، إذ يروي الأصفهاني أنّ نور الدين أمر بإحصاء ما في محال دمشق من مساجد هجرت أو خربت، فأناف على مائة مسجد، فأمر بعمارتها وعيّن له أوقافاً دارّة.

أما أوقاف العلم فقد ذكر بعض المؤرخين أنها وجدت في عصر الصحابة رضوان الله عليهم، وكانت من الكثرة بحيث عدَّ ابن حوقل ثلاثمائة كتّاب في مدينة واحدة من مدن صقلية[٢].

وكان «الكُتَّاب» في بعض البلدان من السعة بحيث يضم مئاتٍ وآلافاً من الطلاب، ومما يروى عن أبي القاسم البلخي أنه كان له كتّاب يتعلم به ثلاثة آلاف تلميذ، وكان كتّابه فسيحاً جداً، ولذلك كان أبو القاسم يحتاج إلى أن يركب حماراً ليتردد بين طلابه وليشرف على شؤونهم[٣]، وكانت هذه الكتاتيب تمول بأموال الأوقاف.

٢. الوقف على توفير الماء: حيث تبارى المسلمون في إنشاء الأسبلة، باعتبارها نوعاً من الصدقة الجارية التي يصل ثوابها إلى صاحبها حتى بعد موته، فقد روي عن سعد بن عبادة رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله! أي الصدقة أفضل؟ قال: «سقي الماء»[٤]. وقد كانت الأسبلة تقوم مقام مرفق المياه حالياً. ومن أشهر الأسبلة: عين زبيدة بمكة، وموجودة آثارها حتى هذا اليوم.

٣. الوقف على توفير الغذاء: تنافس المسلمون في تخصيص الأوقاف لإطعام ذوي الحاجة من البائسين وأبناء السبيل والمغتربين في طلب العلم، وقد تبارى المسلمون في إنشاء (التكايا) التي كان لها دور بارز في توفير الطعام لطوائف كثيرة من الفقراء والمساكين وابن السبيل وطلبة العلم، ولم يقتصر دور التكية على تقديم الطعام والشراب، بل كانت مؤسسة إسلامية متعددة الأغراض تستخدم لاستضافة الغرباء والمسافرين، وإيواء الفقراء، وطلبة العلم. وقد أبدع الواقفون في عمارة التكايا وتصاميمها، بحيث لا تبدو مجرد مأوى أو مطعم. واشتهرت الجامعات الإسلامية العريقة، مثل الأزهر، بتوزيع ما عُرف بالجراية، وهي وجبات طعام يومية على طلابها، وكان يتم تمويل هذه الجرايات من عوائد الأوقاف.

٤. الوقف على البلاد المقدسة: ومن أشهر ملوك الإسلام الذين اعتنوا بهذه الأوقاف صلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس.

٥. وقف الدور: لإيواء اليتامى واللقطاء ورعايتهم، ولرعاية المقعدين والعميان والشيوخ، ووقف الدور هو أشهر أوقاف الصحابة[٥].

٦. الوقف على الرعاية الصحية: تجلى الدور البارز للوقف في المجال الصحِّيِّ منذ القرن الأول الهجري، حيث اتخذت البيمارستانات، وأوَّل مَن اتَّخذها للمرضى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك؛ حيث بنى بيمارستاناً بدمشق سنة ٨٨ للهجرة وسبَّلَه للمرضى. وقد أبدى الوليد اهتماماً خاصّاً بمرضى الجذام، ومَنَعَهُمْ من سؤال الناس، ووقف عليهم بلداً يَدِرُّ عليهم أرزاقاً، كما أمر لكل مُقْعَدٍ خادماً، ولكلِّ ضرير قائداً[٦]. ويذكر ابن جبير في رحلته أنه وجد ببغداد حياً كاملاً من أحيائها، يشبه المدينة الصغيرة، كان يسمَّى سوق البيمارستان، ومباني كثيرة كلها أوقاف وُقِفَت على المرضى، وكان يؤمه الأطباء والصيادلة وطلبة الطب، إذ كانت النفقات جارية عليهم من الأموال الوقفية المنتشرة في بغداد[٧]. وبلغ الاهتمام بالبيمارستانات الموقوفة مَبْلَغاً عظيماً من الرُّقِيِّ والاعتناء والتَّقَدُّم؛ حتى ذكر بعض المؤرخين أن شخصاً كان متمارِضاً في هذا المستشفى فكتب له الطبيب بعد ثلاثة أيام من دخوله: بأن الضيف لا يُقيم فوق ثلاثة أيام[٨]. وكان من اهتمامهم ودقتهم في هذه المستشفيات التي أقاموها أنه لم يكن يؤذَن لأحدٍ بمباشرة عمله حتى يكون كبير الأطباء قد شهد له بالمعرفة الكاملة والضبط والدقة، ونتيجة لخطأ طبي حدث في زمن الدولة العباسية وتحديداً في زمن الخليفة المقتدر عام ٣١٩ توفي بسببه أحد المسلمين، فكان أن

(١) من روائع حضارتنا، لمصطفى السباعي، (ص ١٢٥).
(٢) ينظر: معجم البلدان، لياقوت الحموي، ٣/٤١٧ – ٤١٨؛ ومجلة الوعي الإسلامي، عدد (٣٨٢)، ص ٣٧.
(٣) ينظر: معجم البلدان ١/٤٧٩ – ٤٨٠؛ ومجلة الوعي الإسلامي عدد (٣٨٢) ص ٣٧.
(٤) أخرجه ابن ماجه، كتاب الأدب، باب فضل صدقة الماء، برقم ٣٦٨٤.
(٥) ينظر: الأوقاف النبوية ووقفيات بعض الصحابة الكرام، ص ١٦٧.
(٦) ينظر: الكامل، ابن الأثير ٤/٢٩٢؛ والجوهر الثمين، ابن دقماق، ص ٦٥.
(٧) التذكرة بالأخبار في اتفاقات الأسفار، ابن جبير.
(٨) ينظر: التمريض في التاريخ الإسلامي، عكرمة سعيد صبري، ص ٢٩ – ٣٠.

أمر الخليفة بمنع سائر المتطببين إلا من امتحنه كبير الأطباء سنان بن ثابت بن قره. ومن لطيف الأوقاف الطبية: ما يعرف بوقف مؤنسي المرضى الذي خُصص ريعه لرعاية قوم عملهم الأساس إدخال السرور على قلوب المرضى وإيناسهم، مما يكون سبباً بإذن الله لشفائهم، فهل عرف التأريخ مثل هذا؟ وتأكيداً على رقي هذه الأوقاف جاء في كتاب الدكتورة الألمانية زيغريد هونكة «شمس العرب تسطع على الغرب»، وصفاً للمستشفيات في عهد هارون الرشيد من خلال عرض رسالة من مريض إلى أبيه يقول فيها: «أبتي الحبيب، تسألني إن كنت بحاجة إلى نقود، فأخبرك بأنني عندما أخرج من المستشفى سيعطونني ثوباً جديداً وخمس قطع ذهبية حتى لا أضطر إلى العمل حال خروجي.. واليوم قال لي رئيس الأطباء: إن بإمكاني الخروج من المستشفى معافى وأنا أكره ذلك».

٧. الوقف على سكنى الحجيج وإطعامهم وسقياهم وعلى طريق الحج: فقد وقف عمر رضي الله عنه داره التي في مكة على الحُجاج، وتصدق عمر بن عبد العزيز رحمه الله بداره على الحجاج والمعتمرين[١]. وأعمال زبيدة زوجة الرشيد رحمهما الله في سقيا الحجيج أشهر من أن تذكر[٢]. وَوَقَف المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث المخزومي ضيعة له لعمل طعام بمنى أيام الحج[٣]. ووقف السلطان أحمد بن محمد بن مراد أوقافاً على طريق الحج بين مصر ومكة[٤].

٨. الوقف على العاجزين عن الحج: ذكر ابن بطوطة رحمه الله في رحلته أثناء حديثه عن الأوقاف في دمشق أن منها أوقافاً على العاجزين عن الحج يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته[٥].

٩. الوقف على الأيتام والأرامل: وقد اعتنى الوقف الإسلامي بالأرامل والمساكين انطلاقاً من توجيهات النبي ﷺ، ويعدُّ الزبير رضي الله عنه أول من وقف وقفاً لصالح الأرامل والمطلقات من بناته، وهذا أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يشير إلى الاهتمام بهذه الفئة فيقول: «لئن سلمني الله لأدعنَّ أرامل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدي أبداً»[٦]. وقد ذكر ابن العماد الحنبلي رحمه الله في ترجمة نور الدين زنكي رحمه الله سنة ٥٦٩ أنه بنى المكاتب للأيتام ووقف عليها الأوقاف[٧].

١٠. الوقف على الأولاد والأقارب والذرية: قال الحميدي: «تصدق أبو بكر بداره على ولده، وعمر بربعه على ولده، وعثمان برومة، وتصدق علي بأرضه بينبع، وتصدق الزبير بداره بمكة، وداره بمصر، وأمواله بالمدينة على ولده، وتصدق سعد بداره بالمدينة على ولده، وداره بمصر على ولده، وعمرو بن العاص بالوهط[٨]، وداره بمكة على ولده، وحكيم بن حزام بداره بمكة والمدينة على ولده، فذلك كله إلى اليوم»[٩]. و«الزبير جعل دُوره صدقة على بنيه، لا تباع ولا توهب، وللمردودة من بناته السكنى غير مضرة ولا مضراً بها، فإن استغنت بزوج فلا حق لها فيه»[١٠]. وفي هذا تنبيه على مصرفٍ ذي أهمية، وهو المطلقات، خاصة بنات الواقف.

١١. الوقف على الثغور والجهاد وفكاك الأسرى، ولك أن تتخيل كيف سيكون حال الأمة اليوم لو وُجِدت فيها مثل هذه الأوقاف.

١٢. الوقف على أبناء السبيل.

١٣. الوقف على إعمار الأوقاف: وهذا من اهتمامهم بالوقف وعنايتهم به، وقد قرر الفقهاء أن نفقة إعمار الوقف تكون من حيث شرط الواقف، فإن لم يكن عيَّن مصدراً فإنها تكون من غلته[١١]، وقد تُوقَف الأوقاف لإحياء أوقاف سابقة لأهميتها أو لمحل موقفها، وقد ذكر أن بعض خلفاء بني العباس كانوا يوقفون بعض الضياع على إعمار صدقات النبي ﷺ[١٢].

١٤. الوقف على التزويج وأوقاف للحلي والزينة للأعراس وغيرها: وهو من غرائب الوقف، وقد ذكر ابن بطوطة أنه وجد وقفاً بالشام لتزويج البنات الفقيرات اللواتي لا قدرة لأهلهن على تزويجهن. وكذا في تونس والمغرب. وفي أكثر من بلد إسلامي كان هناك وقف لإعارة الحلي والزينة في الأعراس والأفراح، فيستفيد منها المحتاج لأجل التزيُّن بها في الحفلات، ثم يُعيدها إلى مكانها بعد انتهائه منها[١٣].

١٥. وقف الأواني وحاجات الموالي: وقد كان هذا الوقف مثار إعجابٍ للرحالة ابن بطوطة، إذ يقول: «رأيت في دمشق مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحفة من الفخار، فتكسرت واجتمع عليه الناس، فقال له بعضهم: اجمع شقفها، واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني. فجمعها، وذهب إليه فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن»[١٤].

١٦. أوقاف لتنزه الفقراء والمساكين بأولادهم: ومن ذلك

(١) ينظر في خبر العمرين: أخبار مكة ٢/٢٦٣ – ٢/٢٤١.
(٢) ينظر: أخبار مكة ٢٣٧ – ٣٢٧.
(٣) كتاب نسب قريش لمصعب الزبيري، ٢/٣٠٥ – ٣٠٦.
(٤) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، للمحبي، ١/٢٩٠.
(٥) تحفة النظار، لابن بطوطة، ١/١١٨.
(٦) الخراج، ليحيى بن آدم القرشي، ص ٥٩.
(٧) شذرات الذهب ٤/٢٢٨.
(٨) الوهط: ما كان لعمرو بن العاص بالطائف على ثلاثة أميال من مرج.
(٩) المغني لابن قدامة ٨/١٨٥ – ١٨٦.
(١٠) المغني لابن قدامة ٨/٢٠٥ – ٢٠٦.
(١١) المغني ٨/٢٣٤.
(١٢) الأخبار الموفقيات للزبير بن بكار، ص ٤٩١ – ٤٩٢، تحقيق: سامي مكي العاني.
(١٣) حاضر العالم الإسلامي، شكيب أرسلان، ٣/٨.
(١٤) المصدر نفسه ص ١٠٠.

الوقـف الذي أقامه السـلطان نور الدين الشـهيد قرب ربوة دمشـق، حيث جعل مكاناً فسـيحاً جميلاً ليتنزه فيه الفقراء بأولادهم مثل ما للأغنياء؛ حتى لا يشعروا بالحرمان والمسكنة.

١٧. أوقاف للنسـاء المرضعات: ومن عجائب الأوقاف في هذا ما ذكره بعضهم: أن أوقافاً خُصصت للنسـاء المرضعات تسمى «أوقاف نقطة الحليب» يوزع منها الحليب على المرضعات فـي أيام محددة في كل أسـبوع، إلى جانـب الماء المذاب فيه السـكر، وقد كان ذلك من صنيع القائد المجاهد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله[١].

١٨. أوقاف لمـن يقع بينها وبين زوجهـا نفور: حيث كان بمَرَّاكش بالمغرب مؤسسة وقفية تُسـمى «دار الدُّقة»[٢]، وهي ملجأ تذهب إليه النساء اللاتي يقع بينهن وأزواجهن نفور، فلهن أن يقمن آكلات شاربات إلى أن يزول ما بينهن وأزواجهن[٣]!

١٩. أوقـاف على رعاية البيئة والحيوانات والطيور: امتدت الأوقاف إلى رعاية البيئة والحيوان فوجدت أوقاف لصيانة الترع والأنهار، وأوقاف لطيور الحرم المكي الشـريف، وأنشئت أوقاف لإطعام الطيور والعصافير في مدن عديدة، منها: دمشق والقدس وفاس، وأوقاف للحيوانات الأهليـة الهرمة أو المعتوهة لإيوائها وعلاجها كما هو شأن وقف المرج الأخضر في دمشق وغيرها.

إن هـذه الأمثلة الناصعة في تاريخ المسـلمين توضح بجلاء كيف كانت الأوقاف مكوناً أساسياً للحضارة الإسلامية العظيمة، وكيف شـمل خيرها وبرها وأثرها نواحي الحياة بلا اسـتثناء، ويكفـي أن تعلـم أن الإمام النووي رحمه اللـه (٦٧٦هـ) لم يكن يأكل من فواكه دمشـق وخضراواتهـا؛ لأن أكثر أراضيها وقف، وهو الإمام الورع الذي يخشى أن يكون خرج الموقوف عن الوقف بغير استحقاق.

واختصاراً: فإن حقائق التأريخ وشواهده تثبت أن الأوقاف الإسـلامية كانت تقوم بجميع مصالح رعايا الدولة المسـلمة واحتياجاتهم المهمة بلا اسـتثناء؛ لتخفـف وترفع بذلك عبأً كبيراً عن الدولة المسـلمة، وتعطي أماناً وطمأنينةً لرعاياها. وقد كانت الدول والممالك الإسلامية تزول ويحل محلها غيرها ومصالح المسـلمين لا تتأثر بذلك! بسـبب قيام تلك المصالح على الأوقاف بكل استقلالية عن الدول وسيادتها وتعقيداتها، ومحاسنها ومساوئها.

(١) من روائع حضارتنا، لمصطفى السباعي، ص ١٢٨.
(٢) الدقة: التوابل المخلوطة بالملح، والمقصود هنا: الدار التي تَدُقُّ على يد الزوج الظالم المسيء لزوجه، حتى توقفه عند حدِّه.
(٣) الحضارة العربية الإسلامية، شوقي أبو خليل، ص ٣٣٦ – ٣٣٧.

الوقف والعمل الخيري عند الغرب:

تنبَّهت الدول الغربية اليوم (كالولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا) لأهميـة الوقف، وتفتحت أعينهم على أثره، وما يعود به من الاسـتقرار والتنمية، وما يعطيه للنظام من قوة؛ فسعت جاهدة إلى أن توليه أهمية بالغة، فعلى سبيل المثال: في المملكة المتحدة البريطانية والولايات المتحدة الأمريكية، هناك نظام يشـبه الوقف يسمى (الترسـت)[٤]، سنَّته هذه البلدان، ونجحت فيما يَعُوْلُه من مؤسسـات وقفية وخيرية؛ فنجـد في الولايـات المتحدة الأمريكية كبرى المؤسسـات والجامعـات تقوم على أسـاس الوقف وتعتمـد على ذاتها اعتمـاداً كلياً، ومـن الأمثلة في ذلك: وقـف بيل وميليندا جيتس الذي يعد من أضخم الأوقاف في عصرنا الحاضر. وهذا الوقف مقره (واشنطن)، وأسسه: بيل غيتس وزوجته ميليندا في عام ١٩٩٤م، وتقدر قيمة رأسماله حتى الآن بأكثر من (١٣٦,٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠) ريـال[٥]، كما يسـهم فيه أثرى أثرياء العالم، ويعمل في ثلاثة مجالات رئيسة، هي: الصحة العالميـة، والتنمية العالمية، وبرامج خاصة بالولايات المتحدة الأمريكية! ويتَّبع الوقف منهج الشراكة مع الجهات الخيرية. المثال الثاني: وارن بافت رجل الأعمال المعروف، والذي دخل في شراكة خيرية مع مؤسسة بيل وميلندا جيتس الخيرية بـ ٣١ مليار دولار في جون ٢٠٠٦م، لتصبح أكبر مؤسسة خيرية مانحة في العالم متخصصـة بالصحة والتعليم وأبحاثهما. واللافت أن وارن بافت انضم إلى مؤسسة بيل غيتس لتكون الشراكة الخيرية بينهم رغم أن عمر الأول (٧٥) سنة وعمر الثاني (٥٠) عاماً، حتى علق المدير التنفيذي للمركز الخيري فـي جامعة إنديانا قائلاً: «إن معظـم من لديهم هذا المبلغ من المال يحاولون تشـكيل مؤسسـة خاصة تكون مرتبطة بصورتهـم الخاصة، إنه يهبها لشـخص أصغر منه بخمس وعشـرين سنة!». ثم علّق وارن بافت بعد ذلك قائلاً: «إنني أشعر بمتعة عميقة بما أقوم به»[٦].

المثال الثالث: أوقاف جامعة هارفارد التي تأسست في عام ١٩٧٤، والتي تقـدر أصولها بما يقارب من ١٢٠ مليار ريـال[٧].

(٤) محاضرة تطبيقات الوقف بين الأمس واليوم، معالي الشيخ صالح الحصين (من مطبوعات مركز استثمار المستقبل بالرياض).
(٥) حسب آخر إحصائية لأصول الأوقاف، في ٢٠١٢/١٢/٣١م، انظر: موقع مؤسسة ميليندا وبيل جيتس الخيرية: http://cutt.us/zCfU. وتساوي قيمة الوقف بالدولار الأمريكي: (٣٦,٤) مليار دولار.
(٦) الجمعيات الخيرية ودعاوى الإرهاب، للدكتور محمد السلومي.
(٧) مقال للدكتور إبراهيم البعيز http://cutt.us/Cc1.

سبل النهوض بالأوقاف[1]:

تراجع الوقف كثيراً في العصر الحاضر عما كان عليه في عصور قوَّته، فلم يعد (مع ضخامة بعض الأوقاف) ملجأ ومعيناً للفقراء مثلاً، أو للحد من ظاهرة البطالة، أو خدمة التعليم والاقتصاد والمجتمع، وكل ذلك بسبب ضعف الأوقاف وتراجعها، ولذلك التراجع أسبابٌ ليس هذا مكان إيرادها.

ولكي يعود الوقف إلى سابق عهده في خدمة المسلمين والقضاء على الفقر والبطالة والنهوض بالاقتصاد، فإن الواجب عل صنَّاع القرار وأهل الحلِّ والعقد اتخاذ إجراءات مهمة، منها:

أولاً: أن يتم تنظيم الوقف بعيداً عن سلطة الحكومات؛ نظراً لما ظهر من فشل الإدارة الحكومية في مجال قطاع الأعمال، واعتبار الأوقاف أموالاً خاصة تدار بطريقة معينة. وقد أدى إطلاق أيدي الحكومات في إدارة الأوقاف إلى إحجام المسلمين عن وقف أموالهم، حيث تولد لديهم إحساس بأن الأوقاف يتم تأميمها واستخدامها في غير الأغراض التي حددها الواقف. والقاعدة: أن شرط الواقف كنص الشارع، فلا يصح مخالفة الشرط إلا إذا خالف نصاً شرعياً.

ثانياً: إعادة النظر في القوانين التي تعوق الوقف، وتنظيمها في ضوء الأحكام الشرعية الغراء، ووضع نصوص صارمة للحفاظ على أموال الوقف.

ثالثاً: وضع نظم مرعية لقياس وتقويم الأداء في الأوقاف، حيث تعد ضمانة لاستمرار نجاح الوقف، بحيث يمكن المحافظة على الأداء المتميز وتطويره، والتعرف على الأداء الضعيف ومعرفة أسبابه ومعالجتها.

رابعاً: تطبيق معايير عالية في التنظيم المحاسبي، فالمحاسبة المالية من المنظور الإسلامي تشمل تعيين الحقوق والكشف عن الوضع المالي ونتائجه، بكيفية يراعى فيها التمييز بين الحلال والحرام.

خامساً: القيام بحملات توعية في وسائل الإعلام، خصوصاً الحديث منها، للتوعية بأهمية الوقف وحث المسلمين على الاشتراك في وقفيات خيرية أو وقف جزء من ممتلكاتهم.

(١) ينظر في هذا بحث جميل للدكتور خالد المشيقح بعنوان: الأوقاف في العصر الحديث، وهو من أحسن ما كتب في هذا.

الوقف واستثمار المستقبل:

من محاسن شريعة الإسلام أن شرعت لأهلها ما ينفعهم ديناً ودنياً، ليس هذا حال كونهم أحياء فحسب، بل بعد موتهم، فإذا كانت صحائف بعض العباد تطوى بعد موتهم، فهناك من لم تطو صحائف أعمالهم بعد رحيلهم! روي عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال: «لم نر خيراً للميت ولا للحي من هذه الحبس الموقوفة، أما الميت فيجري أجرها عليه، وأما الحي فتحبس عليه، لا توهب، ولا تورث، ولا يقدر على استهلاكها»[2]. ولكنَّ كثيراً من الناس عن هذا قد غفلوا، وانشغلوا في أمور الحياة، والتكاثر في الأموال والأولاد، وقلَّما نجد من يعتني بهذا وينتبه له، مع أن ذلك من الأمور المهمة التي عن طريقها تتحقق سعادة الإنسان في آخرته، وتزداد أعماله الصالحة، وهو بهذا يعد وسيلة عظيمة بعد انقضاء الأجل لرفع الدرجات، وتكفير السيئات، واستمرار الثواب، هذا من جانب النفع العائد على الواقف، أما المنافع التي تعود على المجتمع – وبخاصة في عصرنا الحاضر – فكثيرة، من أهمّها: التكافل بين أفراد المجتمع، وتنميته، وتكاتف أهله وترابطهم، وإعانة الفئات المحتاجة فيه، ودعم مؤسسات الخير والدعوة والعطاء.

فالوقف استثمار رابح للمستقبل القريب؛ لأنه استثمار مع رب العالمين، فالمال طريق عظيم للجنة، وباب واسع من أبوابها، فتسعة من العشرة المبشرين بالجنة هم من أصحاب الأموال – هم العشرة باستثناء أبي عبيدة رضي الله عنه –، وقد كان المال بعد فضل الله ومنته أحد أهم أسباب بلوغهم رضوان الله وجنته. والوقف: علوٌّ للواقف، وعزيمة مؤكَّدةٌ للقضاء على الجشَع والشُّحِّ وحبِّ الذات: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال: (أن تتصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الروح الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان..) متفق عليه. وفي هذا الحديث لفتة نبوية للمبادرة قبل فوات الأوان.

وتعظم المصيبة عندما يفرط الإنسان في الوقف أو الوصية ويأمّل نفسه في أنه سيوصي، لكنه يهمل ويعوّل على المستقبل وينشغل حتى يفجأه الموت ولم يوصِ، فيكون قد أُتي من قبل تفريطه.

(٢) الإسعاف في أحكام الأوقاف لإبراهيم الطرابلسي، ص ٢.

ويالله العجب من إنسان يملك الثروة الطائلة يموت وهو لم يوقف أو يوصِ، وحينئذ يكون قد حرم نفسه من خير هذه الثروة، فكان عليه حسابها ولغيره غنمها، أفنى عمره في جمع المال وتعداده، وكأنه خزانةٌ لمن بعده، والرابح منهم من ذكره أحد ولده بخير فتصدَّق عنه حيناً، وقد يكون نسيَه في أحيان كثيرة.

والموفق حقاً من كان مفتاحاً للخير سبباً في إرشاد الناس ودلالتهم على الوقف أو غيره من أبواب البر والإحسان، فإن تولى أهل المنهج القويم والدين الرشيد عن ذلك، قام به غيرهم. ولقد سارت الأخبار بنبأ رجل الأعمال الأمريكي بيل غيتس وأثره وعمله الدؤوب في التأثير على رجال الأعمال من بني جنسه، حيث أثّر في العشرات منهم لوقف نصف ثروتهم، وليس العجب هنا، لكن العجب يأخذك عندما تعلم أنه قد تعدى في دعوته وهمته للوقف أبناء قومه حتى وصل لبلاد المسلمين! فقد كتب لأحد رجال الأعمال في بلاد الحرمين يحثه على الوقف ويرشده إليه! بل يعرض عليه خدماته في تولي تنظيم وقفه وإدارته! وغير بعيد من الأول المذيعة الأمريكية التي أقنعت أحد عشر ثرياً أمريكياً بوقف نصف ثروتهم!

وأخيراً: فإن الوقف هو الملك الحقيقي للمال! فمن أراد أن ينقل معه شيئاً من أمواله للآخرة فعليه بالوقف، وذلك هو الاستثمار الحقيقي للمستقبل.

أوقاف جامعة هارفارد HMC:

تتولى «شركة إدارة أوقاف هارفارد» شؤون أوقاف جامعة هارفارد، وقد تأسست في عام ١٩٧٤م، وهي شركة فريدة من نوعها بين شركات إدارة الاستثمار؛ فهي تدير الشؤون المالية لأكبر وقف جامعي في العالم (وقف جامعة هارفارد) بلغ حجمه في عام ٢٠١٢م (٣٠,٤٣٥) بليون دولار أمريكي. تقوم شركة هارفارد على تحقيق نتائج استثمارية طويلة الأجل لدعم الأهداف التعليمية والبحثية للجامعة، وتتبع أسلوباً فريداً في إدارة الاستثمار تُطلق عليه «النموذج الهجين»، حيث تقوم بإدارة أموال الوقف من خلال خبرائها داخل الشركة، وكذلك من خلال العلاقات المتميزة مع خبراء ومديرين خارج الشركة، حيث إن هذا النهج يوفر نظرة ذات عمق واتساع للسوق.

Institution	Harvard University
2012 (billion USD)	30.435
2011 (billion USD)	31.728
2010 (billion USD)	27.557
2009 (billion USD)	25.662
2008 (billion USD)	36.556
2007 (billion USD)	34.635
2006 (billion USD)	28.916
2005 (billion USD)	25.473

تمتلك شركة HMC فريقاً متخصصاً في منصة تداول «الأسواق العامة»، وفريقاً آخر لمنصة تداول «الأصول البديلة»، واللذين يعملان على إدارة الاستثمارات في تلك المنصات بطريقة احترافية تمنح الشركة المرونة الكاملة والذكاء في التعامل مع تقلبات الأسواق والاستجابة المباشرة لها. وقد حققت نمواً كبيراً في رأس المال كما هو موضح في الجدول:

تتميّز منهجية شركة هارفارد في الاستثمار بعدة سمات، أبرزها:

- التركيز على النتائج المالية طويلة الأمد.
- استراتيجية متكاملة للاستثمار وإدارة المخاطر.
- التنويع الأمثل لمشاريع الحقيبة الاستثمارية.
- تحقيق أهداف جامعة هارفارد القريبة وبعيدة المدى.
- مراقبة احترافية معقّدة لمخاطر الحقيبة الاستثمارية.

تتمثل مجالات صرف عوائد استثمار أوقاف هارفارد في البرامج الأكاديمية والزمالة الجامعية والأبحاث الطبية والعلوم، إضافة إلى برنامج (الأستاذية) الذي ينفق على الأستاذ الجامعي، معفياً بذلك الجامعة من دفع رواتب الأساتذة، ومن ثم يمكن لها تعيين مزيد من أعضاء هيئة التدريس، محققة نسبة مرتفعة للأساتذة على الطلبة.

كما أن من أهم مجالات الصرف برامج المساعدات المالية للطلاب (المنح الدراسية) التي تُمنح للمتفوقين والمميَّزين، ما يجعل الجامعة قادرة على استقطاب وتبني الطلاب المتميزين بغض النظر عن قدرتهم المالية، حيث إن ٦٠ ٪ من طلاب جامعة هارفارد يحصلون على المساعدات المالية من الجامعة بقيمة إجمالية تتجاوز ١٦٠ مليون دولار سنوياً.

د. عصام بن حسن كوثر
المدير التنفيذي للوقف العلمي بجامعة الملك عبدالعزيز - جدة.

مجلة البيان

مع نفحات شهر الخير نقدم لقرائنا الكرام
حقيبة بينات لهذا العام ١٤٣٤هـ

والتي تحتوي على:

- نفحات رمضانية.
- القرآن الصاحب الوفي.
- أوراد أهل السنة والجماعة.

بينات

"اغتناماً لنفحات شسهر الخير"

www.albayan.co.uk

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١
التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
المنطقة الغربية: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨
المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

Badr: 0508948947

العوامل الحرجة لبقاء الأوقاف

■ سلطان بن محمد الدويش(*)

تعدُّ الأوقــاف من الأدوات المهمة للاســتدامة المالية في المجتمعات، وقد حثَّ الشرع على إقامتها بحيث يحبّس الأصل ويســبل الثمر، كما في حديث ابن عمر: «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أصاب أرضاً بخيبرَ، فأتى النبيّ ﷺ يســتأمرُه فيها، فقال: يا رسولَ اللهِ! إني أَصبتُ أرضاً بخيبرَ ولم أُصِبْ مــالاً قطُّ أَنفــسُ عندي منه.. فما تأمر به؟ قال: (إن شــئتَ حبســتَ أصلَها وتصدقتَ بها). قال: فتصدّق بها عمرُ؛ أنَّه لا يباعُ ولا يوهبُ ولا يورثُ، وتصدّق بها في الفقراءِ، وفي القُربى، وفي الرِّقابِ، وفي سبيلِ اللهِ، وابنِ السبيلِ، والضّيفِ، لا جناح على مَن وَلِيها أن لا يأكل منها بالمعــروفِ ويُطعِمَ مُتَمَوّلٍ»(١).. والأوقاف شــبيهة بالكائنات الحية من حيث نموها ومرورها بمراحل حياتية، فتبدأ بالتأسـيس، ثــم النمو، ثم النضج، ثم الضعــف والانحدار، ويتأثر الإطار الزمنــي لبقائها بعدد من العوامل، وتســمى في علــم الإدارة «عوامل النجاح الحرجة»، حيث إن لكل نشاط عدداً قليلاً من العوامل الضرورية القابلة للقياس لنجاحه.. وإدراك المُوقِف لهذه العوامل قبل تسجيل صك الوقفية، إضافة إلى اتخاذه السبل التي تسهم في ديمومة الوقف من خــلال العناية بهذه العوامل الحرجة أثناء التنفيذ؛ ستســهم - بإذن الله - في إطالة عمر هذا الوقف. ونحن هنا نتحدث عن العوامل التي يؤثر فيها صاحب الوقف والنظار من بعده، أما العوامل الخارجية كالنظام الذي تستند إليه الأوقاف في الــدول، فهو خارج إطار هذا المقــال، وإليك أخي القارئ هذه العوامل:

(*) عضو لجنة الأوقاف في الغرفة التجارية بالرياض.

(١) أخرجه البخاري في كتاب الشروط، رقم (٢٧٣٧).

١ سلامة الوضع القانوني:

إن من أهم ما يستند إليه للتأثير في الوقف من قبل الحكومات، هو الخلل القانوني، وإن معرفة الواقف ومن بعده من النظار للمتطلبات القانونية في الوقفية والصرف وإدارة الأوقاف واتخاذ السبل لمراعاة هذه المتطلبات؛ يساعد على بقاء الوقف مدة أطول.

٢ استمرار وانتظام التدفقات النقدية:

إن من أهداف الوقف صرف الريع للمستحقين، وهذا يتطلب وجود أوقاف ذات ريع مناسب وتنمو؛ ولذا فإن العناية باختيار العين الموقوفة، سواء نوعيتها أو مكانها، ستسهم في إطالة عمر الوقف، ولعل الموقف يدرك أهمية التنوع في العين الموقوفة تحسباً لتغيّر الظروف في المجتمعات، فيوقف عقارات وأسهماً وحصصاً في شركات ومزارع، كما يحرص على أن تكون في أماكن لها ديمومة البقاء، كمكة المكرمة وما جاورها والمدينة المنورة.

٣ جودة انتقاء النظار:

سواء من تمت تسميتهم عند كتابة الوقفية أو من تم وضع وصفهم كمستخلفين لمن قبلهم، وهنا يجب أن يراعي الموقف تنوع تخصصات النظار، فيسجل الموقف نفسه أو أحد أبنائه، وقاضياً أو طالب علم متمكناً، وخبيراً في علم الإدارة، وخبيراً في العمل الخيري، ورجل أعمال. ويظن الموقف، وهو رجل أعمال، أن وجوده أو أحد أبنائه كافٍ عن رجل الأعمال، وهذا صحيح حالياً، أما مستقبلاً فقد يكون البدل من الذرية ليس رجل أعمال، وعندها يضعف الوقف. كما يراعى في اختيار النظار أن يكون الناظر لديه القدرة على العمل الجماعي، وذلك بتقبّل الآراء المخالفة والالتزام بما يقره المجلس حتى لو خالف رأيه، حيث إن اتفاق النظار على رؤية وسياسات عمل والالتزام بها سيسهم في بقاء الوقف، والعكس صحيح.

٤ اتساع عبارات المصارف:

يحرص بعض الموقفين على تحديد دقيق للمصارف، وهذا التحديد قد يضيّق على من يقوم بالصرف؛ لأن الأحوال قد تتغيّر، فبدلاً من أن يكتب طباعة الكتب الشرعية، يستخدم عبارة نشر العلم الشرعي، وهنا يتيح للنظار الخيار في آلية النشر؛ كالإنترنت، أو تطبيق على الهواتف الذكية، أو غيرها.

٥ تنمية أصول الأوقاف:

وهنا يجب التفريق بين حفظ الأصول الوقفية وحفظ أموال الأوقاف بتركها في البنوك والمصارف دون استثمارها، ولا شك فإن الواجب المحافظة على الأصول الوقفية إذا كانت منتفعاً منها، حيث نصّ الفقهاء على إعطاء الأولوية من ريع الوقف لإصلاحه وتعميره وترميمه وصيانته بما يحافظ على قدرته على الانتفاع به، لكن يجب أن تتم تنمية أموال الوقف بزيادة أصوله. وقد اهتدى الفقهاء إلى طرق تسهم في تنمية أصول الوقف، ومن ذلك (الحكر)، ويهدف لعلاج مشكلة تتعلق بالأراضي والعقارات الموقوفة التي لا تستطيع إدارة الوقف (أو الناظر) أن تقوم بالبناء عليها، أو زراعتها، أو أنها مبنية لكن ريعها قليل إذا قسنا بحالة هدم بنيانها، ثم البناء عليها؛ و(حق القرار)، وهو عقد يتم بمقتضاه إجارة أرض للمحتكر لمدة طويلة، وإعطاؤه حق القرار فيها ليبني، أو يغرس، مع إعطائه حق الاستمرار فيها ما دام يدفع أجرة المثل بالنسبة للأرض التي تسلمها دون ملاحظة البناء والغراس[1].

إن سعي الموقف إلى العناية بصك الوقفية وإدراج ما تم ذكره ليكون نظاماً إدارياً ومالياً للوقف ونظارته ومصاريفه؛ سيسهم في إطالة عمر الوقف.

---

(١) د. خليفة بابكر الحسن، «استثمار موارد الأوقاف»، المقدم إلى الدورة الثانية عشرة لمجمع الفقه الإسلامي الدولي (ص ٢١).

تجربة الوقف

د. سامي تيسير سلمان(*)

عُقد في مدينة دبي تحت إدارة المعهد الدولي للوقف الإسلامي في ماليزيا، قبل عامين، مؤتمر عن التجارب العالمية للمشاريع الوقفية، وقد قدم ممثلو عدد من الدول العربية والغربية تجارب جميلة ومهمة، لفت انتباهي بعض ما جاء فيها، وكان أكثرها تأثيراً وقفة ممثل إحدى الجهات الوقفية التركية حينما قال إن مدن تركيا ومدينة إسطنبول بالخصوص تشغل الأوقاف حيزاً كبيراً فيها، وقد عمل العثمانيون حكومة وشعباً على إبقاء أنفس المواقع في وسط المدينة لخدمة الإسلام، وخُصص بعضها لخدمة الحرمين الشريفين والدعوة لدين الله، وقد تميّزت هذه الأوقاف بأنها مدرّة (إيجارات دائمة) ولا تحتاج إلى صيانة من قبل الموقف؛ نظراً لكونها محلات أو مساكن ضيافة يعمل المشغل على المحافظة عليها كجزء من التزاماته.

الجميل أيضاً أن هذه الأوقاف بقيت عصوراً متعددة تُعنى بالتعليم والتدريس للعلوم بأشكالها المختلفة، بما فيها العلوم الإسلامية، إلى أن وقعت بيد الحكومات العلمانية، فكان وأدها.

كان من المؤثر لي كذلك قصة إحدى دول الجمهوريات الإسلامية (أوزبكستان) عندما تحرروا من وطأة الحكومات الشيوعية فهرعوا إلى إخوانهم في الأوقاف التركية بطلب القيام بحق الدعوة وتعلّم القرآن الكريم والسنة المطهرة، فما كان منهم إلا أن قدموا لهم المال والدعاة، ويحدث قائلاً بارك الله لنا في وقفنا من حيث لا نعلم حتى انطلقنا إلى أكثر من ٧٠ مدينة وقرية في الجمهوريات الإسلامية، وقد انتهت بنا الأمور اليوم إلى أن أوقافنا نمت لتُصرف على الدعوة في الصين، وها نحن اليوم معكم بعد أن أنشأنا أول وقف لنا في بكين.

إن حضارتنا الإسلامية بما جاءت من شريعة غراء تتفق وطبيعة روح الإنسان ونظرته باعتباره مخلوقاً متميزاً في هذا الكون، فالطابع الخيري له يمثل ركناً ركيناً وأساساً متيناً لها ولا يمكن النظر إلى تاريخ الأمة الإسلامية بمعزل عن هذه السمة التي اتصف بها المجتمع المسلم أفراداً وجماعات.

(*) العضو المنتدب، المعهد الدولي للوقف الإسلامي، ماليزيا.

بعد هذه المقدمة تشدني تجربتي في الحديث عن تجارب عالمية حديثة قديمة، أبدؤها باعتراف إحدى الباحثات الفرنسيات والذي سطرت فيه كيف استفاد العالم الغربي في مدرسة الوقف من المسلمين واستطاعت الكنائس والجامعات نقلها لأوروبا أولاً لتأسيس القلاع الكنسية والتعليمية لخدمة التنصير في المجتمع الأوروبي. هل تعلمون مثلاً أن الكنيسة الكاثوليكية تملك أهم المواقع العقارية في وسط المدن الأوروبية؟ هل تعلمون أن مواقف السيارات مثلاً في مدينة لندن اليوم هي أوقاف للكنيسة وترتفع قيمتها يوماً بعد يوم لكون مواقعها متميزة، غير أنها تدرّ دون توقف ودون تكلفة تذكر؟

من أعرق الأوقاف الغربية الجامعات العملاقة المتميزة، سواء في أوروبا أو أمريكا، وتوجد فيها معاهد أبحاث يستثمر بها رجال الأعمال واليهود العقول وحقوق الاختراع التي تمثل الأوقاف الأعلى ربحية، كونها تمتلك جزءاً في عائدات المشاريع والمنتجات والأجهزة التي تنتشر عالمياً ويبقى ريعها في ازدياد متراكم لخدمة أوقاف هذه الجامعات. من أهم هذه الجامعات جامعة هارفرد بأكثر من ٣١ مليار دولار، وجامعة كامبردج بأكثر من ٤ مليارات جنيه استرليني.

لا تنحسر تجربة الوقف في الاستثمار وحبس الأصل في الأصول العقارية الثابتة، فقد اطلعت مؤخراً على تجارب في دولة نيوزيلندا التي تتميز بالأراضي الزراعية والثروة الحيوانية الخصبة.

أعجبني حرص المسلمين هناك قديماً وقد تناقلوا التجربة عن أهل تلك البلاد، فهم يوقفون المزارع ويعمل الفقراء من أهل القرى في تلك المزارع على تربية الأغنام والاستفادة منها عبر توفيرها بكميات كبيرة كأضاحي للمؤسسات الوقفية في الغرب والشرق، مع الاستفادة من أوبارها وجلودها في مشاريع متعددة، ما يعظم الفائدة على رأس المال وحركته الدائمة على مدار العام. هذه التجارب المتواضعة جزء من منظومة الأوقاف الخيرية في الدول الغربية.

وتوجد بعض المؤسسات الوقفية في الغرب على شكل جامعات أو مستشفيات أو شركات أو أسهم في شركات، وتزاول أعمالها وأنشطتها التجارية غالباً على اعتبار أنها مؤسسات غير ربحية معفاة من الضرائب. وهناك أنواع كثيرة من الأوقاف، من أبرزها: المؤسسات الوقفية الخاصة ويصل عددها إلى ١٠٣,٨٨٠ مؤسسة مسجلة، وهي تشكل ٧٤ ٪ من العدد الحقيقي لتلك المؤسسات.. دخلها من السيولة المالية لعام ٢٠٠٥م ما يقارب ٢٤٢ مليار دولار، ولديها أصول ثابتة تتجاوز قيمتها ٤٢١ مليار دولار. ومن أبرزها كذلك المؤسسات الخيرية العامة، ويصل عددها إلى ٣٣٢,٩٨٨ مؤسسة مسجلة، وهي تشكل ٣٩٪ من العدد الفعلي، وكانت السيولة والتبرعات التي قدمت لها عام ٢٠٠٥م تقارب ١,٥ تريليون دولار، وتصل قيمة أصولها الثابتة للعام نفسه نحو ٢ تريليون دولار.

ويدخل تحت اسم المؤسسات الوقفية الخاصة كثير من المؤسسات الوقفية في الغرب، مثل وقفيات (وارن بافت) الأمريكي وقيمتها ٣٧ مليار دولار، وهي تساوي ٨٥٪ من ثروته؛ ومؤسسة (بيل وميلندا غيتس) الوقفية، وقد بلغ إجمالي مال هذه الوقفية في عام ٢٠٠٤م قرابة ٣٢ مليار دولار؛ وكذلك وقفية (فورد)، وغيرها من الوقفيات.

وتؤكد الأرقام السابقة أن الأوقاف تعدّ من أقوى محركات التنمية المستدامة البشرية والمادية في الغرب.

هذا القطاع العريض تقوم على خدمته أنظمة ودوائر رسمية حرصاً على تنميته واستدامته، فهو المغذي الرئيس للقطاع الثالث المعني بتنمية المجتمع باجتياجاته المختلفة التعليمية والصحية والمهنية والبحثية والاقتصادية وغيرها في مجالات الحياة المختلفة، وهي كما ترى أصل الفكرة التي ولدت في أحضان الحضارة الإسلامية وبقيت على مدار التاريخ تجربة فريدة للأوقاف الإسلامية امتدت منذ أن بذرها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنه وتشريعه أول وقف في الإسلام، وهو على الأصح وقف أراضي مخيرق رضي الله عنه، وكان ذلك في السنة الثالثة للهجرة بعد غزوة أحد.

تتنافس الدول الغربية على خدمة هذا القطاع لمعرفتها التامة بأهمية المؤسسات الوقفية في مساعدتها على القيام بأعباء الخدمة المجتمعية والارتقاء بالخدمات الإنسانية، ومن أهم التشريعات التي تخدم هذا القطاع: خصم جميع ما ينفق من تبرعات على المؤسسات الوقفية والخيرية في

ضرائب الشركات الملزمة من قبل الحكومات في حال صرفها للجهات الوقفية والخيرية، ما دفع كثيراً من أصحاب الثروات والشركات العملاقة لتحويل أموال الضرائب إلى هذا القطاع. ولعل أحدث التجارب العملاقة هو وقف بيل غيتس بقيمة ٣٧ مليار دولار، وتبعه وقف وارن بفر بـ ٣١ مليار دولار. ومما تجدر الإشارة إليه أن أنظمة الضرائب في الولايات المتحدة الأمريكية تستقطع نسبة ٤٠٪ كضريبة وفاة للثروات الكبيرة، وهو ما يدفع الأثرياء إلى التنازل عن هذه الثروات للمؤسسات الخيرية الوقفية كنوع من التشجيع على نموها وتقويتها.

ولنا وقفة مهمة حول الصناديق الوقفية، فهي تمثل الحجم الأكبر بعد الأصول العقارية وحصص الشركات العينية، وقد زرت بعضها واطلعت على تجربتها من كثب، وتعمل بنظم مجموعة من مجالس إدارة ولجان تنفيذية واستثمارية وإدارة المخاطر الخاصة بكل صندوق استثماري، ما يجعل لعائدات هذه الصناديق السبق على الصناديق الأخرى الاستثمارية غير الوقفية؛ ففي الولايات المتحدة الأمريكية، وبالخصوص عام ٢٠٠٨، تأثرت الصناديق الاستثمارية دون استثناء بالأزمة المالية العالمية الكارثية، وبقيت الصناديق الوقفية الجامعية وغيرها تحقق قرابة ٨٪ على رأس المال، وذلك ناتج عن تنوع الاستثمار وتحقيق مبدأ إدارة المخاطر.

من التجارب الحية تجربة الهند في تنمية الأوقاف عبر القروض الصغيرة، فقد أنشأت برنامج تنمية الأوقاف الإسلامية الحصرية وخصصت له منحة مالية قدرها ٥٠٠,٠٠٠ روبية هندية يستخدمها المجلس المركزي للأوقاف في تقديم قروض صغيرة لتمويل مشروعات وقفية في المدن، وقد استطاعوا أن يصلوا بالمبلغ إلى ١٥٠ مليون روبية خلال ٢٥ عاماً، وبقي المبلغ إلى تاريخه مستثمَراً في القروض الوقفية، وعوائده رأسمال للصندوق.

أخيراً؛ لا يخفى عليكم دور البنوك والمؤسسات المالية في تطوير ومساندة القطاع الوقفي في الدول الغربية، فالصناديق الوقفية هي نموذج للتعاون، والنماذج متعددة في الشراكات وإصدار الأسهم الوقفية وإعطاء الأولوية في الاكتتابات وتطوير الكوادر دون مقابل دعماً وتقوية للقطاع.

أخيراً مرة أخرى؛ فإنني أنصح بالاستفادة من التجارب الدولية قديماً وحديثاً، وأرى ضرورة نقلها وصياغتها بما يتماشى مع روح شريعتنا الغراء.

تجارب عالمية وإقليمية في الأوقاف

وقف بيل وميليندا غيتس:

منذ عام ١٩٩٤م بدأ أثرى رجل في العالم، بيل غيتس، مالك شركة مايكروسوفت، مع زوجته ميليندا غيتس؛ النشاط الخيري، وفي عام ٢٠٠٠م قاما بتأسيس «وقف بيل وميليندا غيتس» في سياتل واشنطن بقيمة ١٢٦ مليون دولار أمريكي. وقد شهد الوقف نمواً خلال العامين الأولين من خلال التمويل ليصل إلى ٢ مليار دولار. وفي عام ٢٠٠٦م انضم للوقف المستثمر الشهير وارن بافت، ثاني أثرى أثرياء العالم بعد بيل غيتس، بتمويل بلغ ٣٠,٧ مليار دولار، من خلال تقديم ١٠ ملايين سهم من أسهم شركة ببيركشاير هاثاواي. هذا وتُقدر قيمة الوقف حالياً بأكثر من ٣٧ مليار دولار، وهو أكبر وقف على مستوى العالم حتى الآن.

يتركز مجال عمل وقف بيل وميليندا غيتس على ثلاثة مجالات رئيسية، هي: التنمية العالمية، الصحة العالمية، إضافة إلى برامج مجتمعية داخل الولايات المتحدة الأمريكية.. حيث يهدف وقف بيل وميليندا غيتس إلى مجموعة من الأهداف الرئيسية داخل وخارج الولايات المتحدة العالمية؛ فعلى الصعيد العالمي يهدف إلى تعزيز الرعاية الصحية والحد من الفقر المدقع، أما على صعيد الولايات المتحدة الأمريكية فيهدف إلى توسيع فرص التعليم والوصول إلى تكنولوجيا المعلومات.

والجدير بالذكر أن وقف غيتس يتبع منهجية الشراكة لتنفيذ برامجه وتحقيق أهدافه، حيث إن لديه عدة شراكات مع منظمات غير ربحية وربحية وحكومية تقدم له المنح، بينما هناك شركاء آخرون يتعاونون معه لجمع عدة أطراف؛ بغية تحقيق هدف مشترك. وبحسب التقرير الذي نشره وقف غيتس في ٣١ ديسمبر ٢٠١٠م، فقد صرف الوقف ٦٠ ٪ من إجمالي الصرف السنوي على مجال الصحة العالمية، و١٩,٨٢ ٪ للتنمية العالمية، و١٥,٤٢ ٪ للبرامج داخل الولايات المتحدة الأمريكية، و٤,٦٢ ٪ برامج مختلفة.

■ د. عصام بن حسن كوثر

الوقف في الصناديق الاستثمارية (*)

د. عبد الله بن محمد الدخيل

يشهد هذا العصر تطوراً كبيراً في وسائل الاستثمار وتنميته، فلم تكن عمليات التجارة البسيطة والمتمثلة في البيع والشراء إلا مقدمة أولية لعمليات الاستثمار المتطورة في هذا العصر؛ من الاستثمار بالأسهم والصناديق الاستثمارية والتجارة الإلكترونية، وحيث إن المرمى الأساس لهذه الدراسة يقوم على فكرة استخدام إحدى هذه الوسائل كطريق جديد وفكرة مبتكرة لخدمة الوقف، ما يحقق العديد من الأهداف للواقف والمستفيد وعين الوقف من الديمومة وتنمية المشاريع الوقفية الضخمة بما يكون فيه خدمة للإسلام والمسلمين في كافة المجالات الدعوية، والعلمية، والصحية، والاجتماعية... وغيرها، وكذلك معالجة المشاكل التي قد تؤثر على الأوقاف من تغيير الوقف ونقله، والبحث عما فيه مصلحة لها؛ لذا كانت فكرة الصناديق الاستثمارية الوقفية منشأ هذه الدراسة وبوابتها.

وتمتاز الصناديق الاستثمارية بالخصائص التالية:

أ - الإدارة المحترفة والمتخصصة.

ب - توزيع الاستثمار وتقليل المخاطر.

ج - الشفافية.

(*) ملخص لدراسة قدمت لكرسي الشيخ راشد بن دايل لدراسات الأوقاف في جامعة الإمام تحت عنوان الصناديق الاستثمارية الوقفية للباحث د. عبدالله بن محمد الدخيل.

المقصود بالصندوق الاستثماري الوقفي:

قبل بيان المقصود من الصندوق الاستثماري الوقفي لا بد من إيضاح فكرة الصناديق الاستثمارية والتي تقوم على جمع أموال عدد من المستثمرين ويقوم وسيط مرخص له بإدارتها، وذلك لتحقيق أرباح أكبر لا يمكنهم تحقيقها منفردين، فالخبرة والدراية والإمكانات التي لدى الوسيط أو مدير الصندوق قد تضمن تحقيق عوائد أعلى مما يحققه المستثمر لو قام بتشغيل أمواله بمفرده في الأسواق، كما أن تجميع الأموال ضمن صندوق لاستثمارها يتطلب جهداً كبيراً، وإجراءات نظامية معقدة، هذا إضافة إلى الحد من المخاطر التي يتعرض لها المستثمر المنفرد في سوق الأوراق المالية؛ لأن ضخامة الأسهم والسندات التي تحتفظ بها الصناديق تخفّف من الآثار التي قد يخلفها تراجع أي من هذه الأدوات على الأداء الكلي للصندوق الاستثماري[1].

ونظراً لشكل الصندوق النظامي فقد تباينت التعريفات حوله إلى عدة أوجه، أقربها للواقع العملي للصندوق هو تعريف الصندوق بأنه: «وعاء يتكون من مجموعة من الوحدات الاستثمارية المملوكة لأشخاص تحت إدارة شخص مرخص له من هيئة السوق المالية»، وعلى ذلك يكون المقصود بالصناديق الاستثمارية الوقفية: «وعاء يتكون من مجموعة من الوحدات الموقفة المسبل ريعها تحت إدارة شخص مرخص له من هيئة السوق المالية».

للصناديق الاستثمارية أنواع متعددة باعتبارات مختلفة يضيق هذا المحل في الدخول في تفاصيلها وبيان اعتباراتها، ونظراً لتعدد أنواع الصناديق الاستثمارية، إلا أنّا نجد بأن الصناديق الاستثمارية الوقفية تتقاطع معها باعتبار طرحها، إذ قد يكون الصندوق الاستثماري الوقفي ذا طرح عام أو طرح خاص، وفي إطار تحديد الأهداف يكون الصندوق الاستثماري الوقفي من نوع صندوق الدخل، وباعتبار رأس المال يمكن أن يكون مفتوحاً ويمكن أن يكون مغلقاً، وفي كلا الحالتين لا يمكن للواقف استرداد قيمة الوحدة وتداولها، ومن حيث محل الاستثمار فلا بد من أن يكون في مجال الاستثمارات قليلة المخاطر، ومن حيث مكان الاستثمار فيمكن أن يكون عالمياً ويمكن أن يكون محلياً، ومن حيث تحمل العميل تكلفة البيع فقد يكون الصندوق الاستثماري الوقفي محملاً أو غير محمل، وباعتبار السياسات والاستراتيجيات المتبعة فهو من نوع الصناديق المتحفظة الدفاعية.

(١) ينظر صناديق الاستثمار الإسلامية، عصام خلف العنزي، ص ١٠.

التأصيل الشرعي للصناديق الاستثمارية الوقفية:

أولاً: التكييف الفقهي لمنتج الصناديق الاستثمارية الوقفية:

إن بيان الإطار الشرعي للصناديق الاستثمارية يستلزم تفصيل العلاقات فيها، ومن ثم بيان التكييف الفقهي لكل علاقة، ويمكن إجمال العلاقات التي تفتقر إلى تكييف فقهي في الصناديق الاستثمارية الوقفية في التالي:

التكييف الفقهي للصندوق الاستثماري الوقفي:

إن التكييف الفقهي للصندوق الاستثماري الوقفي نحتاج فيه إلى بيان الطبيعة الفقهية لأصل وضع الصندوق، والتكييف الفقهي للأموال المودعة فيه.

أما ما يتعلق بالصندوق وتكييفه الفقهي، فنجد أن الباحثين يذكرون عدداً من التكييفات لذات الصندوق الاستثماري، فمنهم من يقول إنه شركة، أو إنه وكالة بأجر، ويتوسعون في ذكر النقاشات فيه[2]، والذي يظهر – والله أعلم – أن التكييف الفقهي للصناديق الاستثمارية يَرجِع إلى صيغة العلاقة التعاقدية بين الصندوق ومديره مع الواقفين، ولا يتعلق التخريج الفقهي بذات الصندوق؛ لأنه في أصل وضعه مجرد وعاء للأموال الموقوفة على شاكلة وحدات، وعليه فلا تخريج فقهياً يتعلق بذات الصندوق الاستثماري.

وأما ما يتضمنه الصندوق الاستثماري الوقفي، فهو الوحدات التي يتم بذل المال لقاء الحصول على جزء منها وإيقافها، وهذه الأموال المبذولة في الوحدات ترجع إلى مسألة وقف النقود التي بحثها الفقهاء – رحمهم الله تعالى –، ولكي يتبيّن التكييف الفقهي لها فإننا نقول:

إن الصندوق الاستثماري الوقفي لا يخلو من صورتين:

الأولى: أن يكون الوقف لكامل الصندوق، فإن الوحدات الوقفية وما تمثله من قيمة الأموال مبذولة فيها يُرجع في تكييفها الفقهي إلى مسألة وقف النقود.

الثانية: أن يكون الوقف جزئياً، فإن الوحدات الوقفية يرجع الحكم فيها إلى مسألة وقف النقود، ومسألة وقف المشاع.

(٢) ينظر: الصناديق الاستثمارية، حسن دائله، ١/ ٢١١.

التكييف الفقهي لمدير الصندوق:

فيما يخص التكييف الفقهي لمدير الصندوق فإنه لا يخلو من حالتين:

الأولى: أن يعهد لإحدى الجهات بإدارة نشاط الصندوق على أن تتخذ كافة القرارات المتعلقة بالصندوق، وتستعين بمهمة إدارة الصندوق بمدير للصندوق مقابل نسبة شائعة من الربح، فالعلاقة في هذه الحالة تكون مضاربة، وتكون صيغة المضاربة هي الحاكمة للعلاقة بين مدير الصندوق والوحدات الموقوفة مع الواقفين للوحدات.

الثانية: أن يعهد لإحدى الجهات بإدارة نشاط الصندوق على أن تتخذ كافة القرارات الإدارية والاستراتيجية المتعلقة بالصندوق، وتستعين بمهمة إدارة الصندوق بمهام محددة بمدير صندوق يتقاضى أجراً على عمله، بأن يكون موكلاً من الواقفين لإدارة الصندوق، والقيام بعملية التنمية للوحدات الموقوفة، فإن العلاقة تكون وكالة بأجر.

التكييف الفقهي للواقفين:

أما ما يخص علاقة الواقفين مع مدير الصندوق، فقد تكون علاقة مضاربة، حيث إن المال الموقوف تم إيقافه في الصندوق على شاكلة وحدات، بحيث تستثمر لتنمية الوحدات الموقوفة فتأخذ هذه العلاقة أحكام المضاربة في الفقه الإسلامي، وقد تكون علاقة وكالة بأجر، فيأخذ مدير الصندوق مبلغاً على إدارة الصندوق والإشراف عليه والاستثمار، ويحكم هذا الصيغة التعاقدية بين الطرفين ويراعى في ذلك الضوابط الشرعية لكل تكييف.

التكييف الفقهي لعلاقة الواقفين مع بعضهم وما أوقفوه من وحدات:

فيما يخص علاقة الواقفين مع بعضهم البعض، فإننا نلحظ أن المورد الرئيس للصندوق الاستثماري الوقفي هو الأموال الموقوفة من الواقفين على شاكلة وحدات وقفية متساوية في القيمة تحت صندوق استثماري وقفي واحد، تستثمر من مدير الصندوق، ونظارتها واحدة، والعوائد تعود بالنماء على جميع الوحدات بالتساوي، ما يدل على أن العلاقة الفقهية للوحدات الموقوفة من الواقفين تكيّف على أنها مشاركة فتأخذ أحكام الشركة، ويمكن أن تكيّف على أنها وقف جماعي فتأخذ أحكام الوقف الجماعي وضوابطه الشرعية.

التكييف الفقهي لمجلس الصندوق:

يمثل مجلس الصندوق مع مدير الصندوق الجهة المخولة بنظارة الصندوق الاستثماري الوقفي، ويعتبر في ذلك الضوابط الشرعية في النظارة التي سبق بحثها.

وعلى ذلك تأخذ الصناديق الاستثمارية أحكام الوقف وكذلك أركانه وشروطه من حيث محل الوقف والواقفين والمصرف والصيغة.

ثانياً: نظارة الوقف في منتج الصناديق الاستثمارية الوقفية:

تكون مسؤولية نظارة الوقف في الصناديق الاستثمارية الوقفية من مسؤولية مدير الصندوق ومجلس الصندوق، وذلك مع مراعاة الضوابط الشرعية للنظارة الوقفية.

ويمكن أن تجمل الضوابط المتعلقة بالنظارة بالتالي:

الضابط الأول: مراعاة الأصلح في تعيين ناظري الوقف:

إن الناظر على الوقف ملزم بعمل الأصلح فيما يتعلق باستثمار الوقف، والمعتبر في ذلك المصلحة المبنية على النظر الصحيح؛ وذلك لأن النظارة في الشرع ولاية، والولاية مقيدة بفعل ما تقتضيه المصلحة[1].

الضابط الثاني: ألا يتعارض استثمار الوقف مع حفظ عين الوقف:

إن حفظ العين الموقوفة من الضياع هو أول واجب على ناظر الوقف، وهو المقدم على صرف ريعه إلى المستحقين، سواء نَصّ عليه الواقف أو لم يَنُص[2]؛ وذلك لأن عمارة العين الموقوفة هي السبيل إلى حفظها والذي يحصل به دوام الانتفاع منها لتبقى صدقة جارية[3].

الضابط الثالث: أن يضمن ناظر الوقف في حال تعديه أو تقصيره وتفريطه أو مخالفته الشروط الخاصة بالوقف:

وذلك لأنه أمين على الوقف، ومن صور تفريطه: أن يجعله في استثمارات عالية المخاطرة، أو ألا يحصلها في حالة إقراضها على وفق ما ذكره الواقف وغير ذلك، فالمقصود أن يضمن الناظر في حال ما إذا ثبت عنه شيء من ذلك بما يعود على عين الوقف بالحفظ والرعاية[4].

(١) ينظر: مغني المحتاج ٢/٣٩٣.
(٢) ينظر: استثمار الوقف للصقيه ص ١٠٥.
(٣) ينظر: بدائع الصنائع ٦/٢٢١، التاج والإكليل ٧/٦٤٩، أسنى المطالب ٢/٤٧١، كشاف القناع ٤/٢٦٦. وينظر: استثمار الوقف للصقيه ص ١٠٥.
(٤) ينظر: استثمار الوقف للصقيه ص ١٠٥.

ثالثاً: المعايير الشرعية في الصندوق الاستثماري الوقفي:

المعايير الشرعية في صيغة الصندوق الاستثماري الوقفي:

١ أن تكون الصيغة في الصندوق الاستثماري الوقفي جازمة بالوقف.

٢ أن تكون الصيغة في الصندوق الاستثماري الوقفي مكتوبة.

٣ أن تكون الصيغة في الصندوق الاستثماري الوقفي ناجزة.

٤ أن تكون الصيغة في الصندوق الاستثماري الوقفي لازمة.

المعايير الشرعية في عين الصندوق الاستثماري الوقفي:

١ أن تكون الوحدات الوقفية تمثل قيمة مالية معتبرة.

٢ أن تكون الوحدات الوقفية محددة القيمة، معلومة العدد.

٣ أن ينعقد الوقف في الصندوق الاستثماري الوقفي على عين الوحدات.

٤ أن ينعقد الوقف على الوحدات الوقفية وهي في ملك الواقف.

المعايير الشرعية في الواقفين للوحدات في الصندوق الاستثماري الوقفي:

١ كون الواقف للوحدات في الصندوق الاستثماري الوقفي كامل الأهلية.

٢ كون الاستثمار صادراً من الواقف أو من يقوم مقامه.

٣ ألا يتعارض الاستثمار مع شرط الواقف.

المعايير الشرعية في مصارف الصناديق الاستثمارية الوقفية:

١ أن يكون مصرف ريع الوقف في الصناديق الاستثمارية الوقفية على جهة بر.

٢ ألا يكون الموقوف عليه منقطعاً.

٣ ألا يوقف على نفسه.

٤ أن يكون على جهة يصح تملكها والتملك لها.

المعايير الشرعية لمدير الصندوق ومجلس الصندوق الاستثماري الوقفي:

١ اختيار الأصلح لإدارة الصندوق الاستثماري الوقفي.

٢ أن يراعي مدير الصندوق الضوابط الشرعية بكاملها في الصندوق الاستثماري الوقفي.

٣ أن يضمن مدير الصندوق الاستثماري الوقفي حال تعديه أو تفريطه.

المعايير الشرعية في مجال الاستثمار في الصناديق الاستثمارية الوقفية:

١ أن يكون مجال الاستثمار بأموال الوقف في الصندوق الاستثماري الوقفي مشروعاً.

٢ اجتناب مجالات الاستثمارات ذات المخاطرة العالية والمتوسطة في الصناديق الاستثمارية الوقفية.

٣ أن يكون استثمار الوقف في موجودات قابلة للتنضيض.

٤ ألا يكون مجال الاستثمار للوقف منافساً لغيره.

رابعاً: المتطلبات الوقائية للصناديق الاستثمارية الوقفية:

١ التأكد من كون النماذج والاتفاقيات لم تتضمن صيغة معلقة للوقف.

٢ التأكد من كون النماذج والاتفاقيات تضمنت صيغة صريحة للوقف.

٣ التأكد من كون الصيغة التي يوقع عليها العميل ناجزة غير مؤجلة.

٤ التأكد من كون الصيغة التي يوقع عليها العميل لازمة لا خيار فيها.

٥ التأكد من كون الواقفين كاملي الأهلية.

٦ التأكد من كون الوثائق والاتفاقيات والنماذج نصت على مجال الاستثمار في أموال الوقف.

٧ التأكد من كون المجال الذي استثمرت فيه أموال الوقف موافقاً لشرط الواقف.

٨ التأكد من كون الجهات التي يصرف عليها ريع الوقف جهات بر.

٩ التأكد من أن ما يصرف عليه الوقف ليس منحصراً فيما ينقطع بعد أمد.

١٠ التأكد من أن الواقفين ليسوا مصارف الصناديق الاستثمارية الوقفية.

١١ التأكد من كون مدير الصندوق هو الأصلح لإدارة الوقف ومتابعته وتنميته.

١٢ التأكد من وجود رقابة شرعية على الصندوق الاستثماري الوقفي تقوم بالرقابة على التزام الصندوق بالضوابط الشرعية.

١٣ التأكد من كون مجال الاستثمار بأموال الوقف في الصندوق الاستثماري الوقفي مشروعاً.

١٤ التأكد من تجنيب أموال الصندوق مجالات الاستثمارات ذات المخاطرة العالية والمتوسطة.

الجانب القانوني للصناديق الاستثمارية الوقفية:

أولاً: العلاقات القانونية لصندوق الاستثمار الوقفي:

تشتمل الصناديق الاستثمارية الوقفية على ثلاثة أنواع من العلاقات، هي:

النوع الأول: العلاقة بين الواقفين ومدير الصندوق الاستثماري الوقفي.. قد تكون العلاقة بين المستثمرين ومدير الصندوق علاقة وكالة بأجر، فيحصل على أجرة مقطوعة لقاء الإدارة[1]. وقد تكون العلاقة بين المستثمرين ومدير الصندوق علاقة مضاربة حال مشاركتهم في الأرباح، وبذلك تكون العلاقة (مضاربة)، حيث إن المال يكون من قبل المستثمرين والعمل يكون من مدير الصندوق نظير حصة معلومة من الربح[2].

النوع الثاني: العلاقة بين مجلس الصندوق الاستثماري الوقفي ومدير الصندوق الاستثماري الوقفي.. يشرف على أعمال مدير الصندوق مجلسُ الصندوق، وهو مكونٌ من ثلاثة أعضاء مستقلين وعضوين غير مستقلين، وهم يمثلون في الحقيقة الواقفين أمام مدير الصندوق والمشرفين على مدير الصندوق[3].

النوع الثالث: العلاقة بين مدير الصندوق الاستثماري الوقفي وهيئة السوق المالية[4]، وهي علاقة إشراف ومراقبة والتزام بالشروط والمتطلبات النظامية، فهيئة السوق المالية هي التي توافق على تأسيس الصندوق، كما أنها هي التي توافق على شروطه وأحكامه، وكذلك تشرف على طرحه وعلى توزيع الأرباح وعلى تصفيته.

ثانياً: الأنظمة واللوائح المتعلقة بالصناديق الاستثمارية الوقفية:

يخضع الصندوق الاستثماري الوقفي لعدد من الأنظمة واللوائح، وذلك من وجهين: الأول: كونه وقفاً، فيخضع للأنظمة واللوائح والتعاميم الخاصة بالأوقاف. والثاني: كونه صندوقاً استثمارياً، فيخضع للأنظمة واللوائح الخاصة بالصناديق الاستثمارية، ونبيّن ذلك بالتالي:

أولاً: الأنظمة واللوائح المتعلقة بالوقف:

١. نظام مجلس الأوقاف الأعلى الصادر بموجب المرسوم الملكي رقم (م/٣٥) المؤرخ في ١٣٨٦/٧/١٨هـ، وتعديلاته.

٢. لائحة تنظيم الأوقاف الخيرية الصادرة بقرار مجلس الوزراء رقم (٨٠)، وتاريخ ١٣٩٣/١/٢٩هـ.

٣. نظام المرافعات الشرعية الصادر بالمرسوم الملكي رقم (م/٢١) بتاريخ ١٤٢١/٥/٢٠هـ، واللائحة التنفيذية لنظام المرافعات الشرعية الصادرة بناء على قرار وزير العدل قرار رقم (٤٥٦٩) وتاريخ ١٤٢٣/٦/٣هـ.

ثانياً: الأنظمة واللوائح المتعلقة بالصندوق الاستثماري:

١. نظام السوق المالية الصادر بالمرسوم الملكي رقم م/٣٠ وتاريخ ١٤٢٤/٦/٢هـ.

٢. لائحة الصناديق الاستثمارية الصادرة عن مجلس هيئة السوق المالية بموجب القرار رقم (١-٢١٩-٢٠٠٦) وتاريخ ١٤٢٧/١٢/٣هـ الموافق ٢٠٠٦/١٢/٢٤م.

٣. لائحة صناديق الاستثمار العقاري الصادرة عن مجلس هيئة السوق المالية بموجب القرار رقم (١-١٩٣-٢٠٠٦) وتاريخ ١٤٢٧/٦/١٩هـ الموافق ٢٠٠٦/٧/١٥م.

٤. لائحة أعمال الأوراق المالية الصادرة عن مجلس هيئة السوق المالية بموجب القرار (رقم ٢-٨٣-٢٠٠٥) وتاريخ ١٤٢٦/٥/٢١هـ الموافق ٢٠٠٥/٦/٢٨.

٥. لائحة الأشخاص المرخص لهم الصادرة عن مجلس هيئة السوق المالية بموجب القرار رقم (١-٨٣-٢٠٠٥) وتاريخ ١٤٢٦/٥/٢١هـ الموافق ٢٠٠٥/٦/٢٨م.

٦. لائحة طرح الأوراق المالية الصادرة عن مجلس هيئة السوق المالية بموجب القرار (رقم٢-١١-٢٠٠٤) وتاريخ ١٤٢٥/٨/٢٠هـ.

٧. قائمة المصطلحات المستخدمة في لوائح هيئة سوق المال وقواعدها الصادرة عن مجلس هيئة السوق المالية بموجب القرار (رقم٢-١١-٢٠٠٤) وتاريخ ١٤٢٥/٨/٢٠هـ.

---

(١) نص المادة (١٥/أ) من لائحة صناديق الاستثمار.

(٢) ينظر صناديق الاستثمار ص (٨٧)، عبد الرحمن النفيسة. وينظر صناديق الوقف الإسلامي دراسة فقهية واقتصادية ص (١٣٧).

(٣) نص المادة (٧/أ) من لائحة الصناديق الاستثمارية.

(٤) ينظر صناديق الاستثمار والضوابط الشرعية والأحكام القانونية، ص (٧٦-٩١).

الخطوات العملية لتكوين الصندوق الاستثماري الوقفي:

١ إعداد الدراسة الاقتصادية والاستثمارية في مجال استثمار منخفض المخاطرة:

حيث إن الصناديق الاستثمارية وقفيةٌ، فإنه لا بد من أن تكون استثماراتها من النوع قليل المخاطر، وأن يهدف لتحقيق عائد دوري مناسب على الاستثمار، أو الجمع بين العائد الدوري والنمو الرأسمالي، مع مراعاة أن تكون استثمارات الصندوق غير مخالفة لأحكام الشريعة الإسلامية.

٢ إعداد اتفاقية شروط وأحكام الصندوق الاستثماري الوقفي:

يراعى أن تتوافر في اتفاقية الشروط والأحكام للصندوق الاستثماري الوقفي الضوابط الشرعية للوقف، من الديمومة وعدم انقطاعه، وأن يكون غير محدد المدة، وغير قابل لاستبدال الوحدات، إلا حال الضرورة أو الحاجة التي تنزل منزلتها.

٣ تقديم طلب إنشاء الصندوق إلى هيئة السوق المالية:

وهو إجراء نظامي يتم بعد استكمال كافة الشروط النظامية والتي سبق بيانها في المطلب الرابع (إجراءات عمل الصندوق الاستثماري)، ليتكون بذلك حق مدير الصندوق في طرح الصندوق حسبما تمت عليه الموافقة من هيئة السوق المالية.

٤ طرح الوحدات الاستثمارية (طرحاً عاماً – طرحاً خاصاً):

بعد الموافقة على إنشاء الصندوق يتم طرح وحدات الصندوق، ويفضل كخطوة أولية لتطبيق المنتج وليكون الصندوق الاستثماري قابلاً للتطبيق؛ أن يكون الطرح خاصاً؛ لأن الطرح الخاص يتميز بعدم قابلية استرداد الوحدات الوقفية، وهذه خاصية أساسية في الوقف؛ لأنه تحبيس للأصل وتسبيل للمنفعة؛ وحتى يتطور المنتج ليكون الطرح عاماً مع تقيّد عملية الاسترداد كمرحلة ثانية في تطوير المنتج.

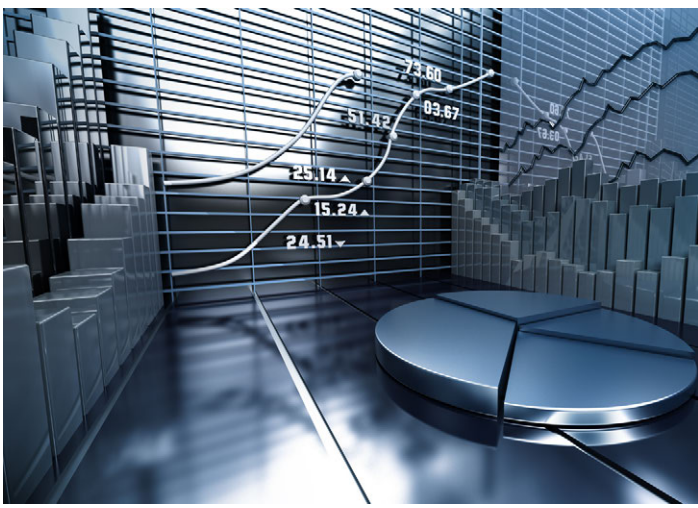

٥ إبرام الاتفاقية بين الواقف ومدير الصندوق الاستثماري الوقفي:

يتم إبرام الاتفاقية المقترحة بين الواقف ومدير الصندوق وفق النموذج المقترح في الدراسة، مع مراعاة توفر الشروط الشرعية والنظامية في أطراف التعاقد من الصفة والأهلية والتكليف.

٦ وقف الوحدات وإثبات ذلك:

قد تبيّن فيما تقدم شروط وإجراءات الصندوق الاستثماري وطرق طرحه في المطلب الرابع (إجراءات عمل الصندوق الاستثماري)، وأما عن إجراءات وقف الوحدات فإنه لا بد من التفرقة بين حالتين، وهي:

الحالة الأولى: أن تكون جميع وحدات الصندوق الاستثماري وقفاً:

في هذه الحالة لا بد من إشعار هيئة السوق المالية بأن الصندوق الاستثماري وقف بكامله، وتحديد مصارفه، والمسؤول عن نظارته، وإثبات وقفية الصندوق والإشراف عليه بحيث تكون هذه الإجراءات من مسؤولية مدير الصندوق، ويتم إثبات وقفية هذا الصندوق بالكامل أمام المحكمة العامة بناء على نص المادة (٢٤٧) من نظام المرافعات الشرعية: «على طالب تسجيل الوقف أن يقدم طلباً بذلك إلى المحكمة المختصة مشفوعاً بوثيقة رسمية تثبت تملكه لما يريد إيقافه»، والمادة (٢٤٨/٢) من اللائحة التنفيذية لنظام المرافعات الشرعية: «يحال طلب تسجيل الوقف إلى القاضي مباشرة وهو الذي يتولى إجراءاته حتى إنهائه»، ويكون هذا الصندوق تحت إشراف هيئة السوق المالية باعتباره صندوقاً استثمارياً، وتحت إشراف وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف باعتباره وقفاً بناء على نظام مجلس الأوقاف الأعلى، ولائحة تنظيم الأوقاف الخيرية، وبناء على نص المادة (٢٤٨/٣) من اللائحة التنفيذية لنظام المرافعات الشرعية: «صكوك الأوقاف الخيرية العامة تسلم إلى وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، أو أحد فروعها، ويسلم للموقف صورة عنها».

الحالـة الثانية: وقف وحدات معينة في صندوق استثماري:

في هذه الحالة تكون المسؤولية في إثبات الوقف وتحديـد نظارته على الواقف فقـط بناء على نص المادة (٢٤٧) مـن نظام المرافعات الشـرعية؛ ولأن مدير الصندوق لما أسـس الصندوق لم يقصد جعله وقفـاً، ويتم إثبات ذلك وإيضاحه أمام القاضي، فإن كانت مصارفه عامة كان تحت إشراف وزارة الشؤون الإسـلامية، وإلا كان تحت إشـراف القضاء فقط وبمسؤولية النظار.

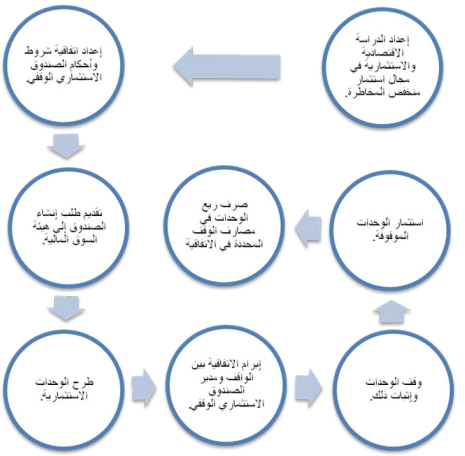

إن الوقف فـي الصناديق الاسـتثمارية يحقق مقاصد كبيرة وكثيرة من تأسيس الأوقاف الضخمة ومشـاركة المجتمع في هذا الوقف، كما أن ما تمتاز به هذه الصناديق الاسـتثمارية من شـفافية عالية وخبـرة كبيرة يحقق مصلحة كبيـرة للوقف وغبطة تحقق المقصود منه مع ديمومته واسـتمراره، إلا أن هـذه الفكرة قد تواجه بعض الإشـكالات النظامية من عدم وجود شـخصية اعتباريـة للصناديق ومن هم ملاك الوحدات بعد الوقف وإذا انتهى الصندوق الاسـتثماري الوقفي ما مآل الأموال الموجودة فيه؟ وغير هذه الإشكالات، إلا أنه يمكن حل هذه العقبات عن طريق النصـوص الواردة في شـروط وأحكام الصندوق الاستثماري.

هذا وأسـأل الله عز وجل أن يتقبل هذا العمل، وأن ينفع به، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

تجارب عالمية وإقليمية في الأوقاف

الأمانة العامة للأوقاف بالشارقة في الإمارات العربية المتحدة:

كانت الأمانة العامة للأوقاف في بداية نشـأتها عبارةً عن إدارة ملحقة بدائرة الشـؤون الإسـلامية والأوقاف في الشارقة، وفي عام ١٩٩٦م تحولـت إلـى هيئة مسـتقلة للعناية بشـؤون الوقـف؛ نظراً للتطور المسـتمر الذي يمر به المجتمـع والتغيرات التي طرأت على أنماط الحياة العامة وما أدت إليه من زيادة المسؤوليات الملقاة على إدارة الوقف لتلبية الحاجات الاجتماعية.

أُسـندت للأمانة مهـام الدعوة للوقـف والقيام بـكل ما يتعلق بشـؤونه، بما في ذلك إدارة أمواله واسـتثمارها وتنميتها وتطويرها وصـرف ريعهـا فـي حـدود شـروط الواقفين، بمـا يحقـق المقاصد الشـرعية للوقـف وتنميـة المجتمـع حضاريـاً وثقافيـاً واجتماعياً وتخفيف العبء على المحتاجين.

وتقوم اسـتراتيجية عمل الأمانة على اسـتثمار أموال الأوقاف الموجـودة فـي عهدتهـا بصفتهـا ناظـراً للوقـف، وتوزيـع عوائدها بحسـب شـروط الواقفين من جهة، وإحداث توعية وقفية لتشجيع قيـام أوقـاف جديـدة من جهة ثانيـة؛ ولذلك اتجهـت الأمانة نحو العمـل على أربعة محاور، وهي: اسـتثمار وتنميـة الأوقاف والدعوة إلـى إقامـة أوقـاف جديدة من خـلال تعريـف الواقفـين المتوقعين بالحاجـات الاجتماعيـة والتنموية التـي قد يرغبون فـي رعايتها، ونشر سنة الوقف بين كافة شرائح المجتمع، خاصة بين ذوي الدخل المحدود، من خلال طرح مشـاريع وقفية ذات طابع استثماري، مثل «مشـروع الأسهم الوقفي»، وتحقيق شـرط الواقف وتنفيذ الوصايا والحجج الوقفية من خلال المصارف الوقفية.

ترعـى الأمانـة عـدة مصـارف وقفية، منهـا: خدمة المسـاجد، خدمـة القرآن الكـريم، دار العجزة، رعاية المسـلمين الجـدد، رعاية المعوقين، خدمة الحجاج، رعاية الفقراء والمحتاجين، رعاية الأيتام، وأبواب خير أخرى.

لقـد حظيـت الأمانـة منذ تأسيسـها بثقـة الجمهـور ودعمه، مـا انعكـس بـدوره على زيـادة أعـداد الواقفـين لديها، حيـث زادت الأوقـاف المسـتلمة بشـكل ملحـوظ؛ وذلك بفضـل اللـه تعالى ثم بفضل الاسـتراتيجية التـي تم وضعها، والتي تركـز على التواصل مـع الجمهور من خلال الزيارات الميدانية لرجال الأعمال والنسـاء الموسـرات وتعريفهم بالأمانة وأنشـطتها وتسهيل إجراءات تسجيل الوقف لدى المحكمة الشـرعية وإقامة الندوات والمؤتمرات واسـتناد الأمانة إلى مبدأ الشفافية.

■ د. عصام بن حسن كوثر

دور الوقف الإسلامي في الحيلولة دون تهويد فلسطين

■ د. عبد الكريم إبراهيم السمك

إنها سنَّة حطين التي حررت القدس والأقصى من الصليبيين تلاحق اليهود اليوم عندما ذهب سلفهم بسياسة تغيير معالم القدس والأقصى الإسلامية، فكانت هذه المعالم هي المعطلة للوجود الصليبي، كما ستكون معطلة لسياسة التهويد لفلسطين اليوم.. واثنان لا يتهادنان؛ شبح الضحية والضمير المجرم. وإن التطبيع السياسي الكل يعرفه زواغ رواغ، فيه ألف تيه وتيه.. فكتاب شمعون بيرز «الشرق الأوسط الجديد»، الذي قصد فيه التطبيع مع العرب من باب الاقتصاد، كما أوهم سلفه وايزمان العرب من أصحاب الثورة العربية الكبرى لسنة ١٩١٦م، بأن اليهود سوف يأتون بأموالهم كي يساعدوا العرب؛ كان ذراً للرماد في العيون، وما كان لليهود أن تكون لهم دولة لولا هذه الثورة المشؤومة التي ولدت من رحمها.

الوقف الإسلامي وسمو مكانته في ميزان الحضارة الإنسانية:

في الحديث عن الوقف الإسلامي كمكون من أسمى مكونات النظام الاجتماعي التكافلي الإنساني، في ميزان النظم الإنسانية الأخرى، وبيان سمو مكانة رسالة الإسلام من خلال نظمها التي سمت فيها في رسالة الوقف الإسلامي، وقد جاءت رسالة الوقف هذه في وجه من أسمى الوجوه تجاه قضية فلسطين، بعد أن أسقطت نظرية الحق التاريخي اليهودي فيها، والتي قامت على دعوات وافتراءات كاذبة كذَّبتها الأصول الوثائقية الوقفية في المحاكم الشرعية الفلسطينية والقائمة في القدس الشريف.

وقد جاء الوقف كنظام خدماتي تكافلي اجتماعي ليحتل صدارة النظم الإسلامية ذات البعد الإنساني في حضارة الإسلام، وكان لهذا النظام التأثير المباشر في عمران البلاد في الدولة الإسلامية، وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله: لم يسبق لأهل الجاهلية أن حبسوا، حيث لم يكن عندهم عرف

فيه، فاستنبط الرسول ﷺ الوقف لمصالح لا توجد في سائر الصدقات المعروفة، فكان نظام الوقف هذا خاصاً بذاته في تكوينه وعطاياه، فهو من النظم التي تدوم ويتواتر الأثر الموقوف فيما بين الناس على مر الدهور والعصور، وكما استفاد المستحقون في زمان وقْفِ من وَقَفَ الوقف، فسيستفيد منه لاحقاً من كان من أهل الاستحقاق ولو بعد قرون.

وتشير الآثار إلى أن الصحابي «مخيريق» رضي الله عنه شهيد أحد، الذي ترك بين يدي رسول الله ﷺ مالاً موصياً إياه أن يضعه حيث يشاء، فحبسه رسول الله ﷺ على سبعة حوائط؛ هو أول من أوقف وقفاً في الإسلام. وقد قال زيد بن ثابت رضي الله عنه: لم نر خيراً للميت ولا للحي من هذه الحُبُسِ الموقوفة، أما الميت فيجري أجرها عليه، وأما الحي فَتُحبَسُ عليه ولا توهب ولا تورث.

تعريف الوقف ورسالته:

يأتي الوقف في رسالته على البر والتقوى، ولا ينهض فيه إلا القوي الأمين؛ فأبوابه واسعة، وشعابه متفرعة، وهو أصناف وأنواع، وأربابه متنوعون، فمنهم الأشراف المتصلون في نسبهم لرسول الله ﷺ، ومنهم الفقهاء، والفقراء والقراء والأسرى وأبناء السبيل والمرضى والمجانين، ومن أبواب الوقف: تكفين الموتى وإصلاح الأسوار للثغور وقناطر الطرق، وعمارة المساجد، وما يلحق فيها من خدمات مساندة لها، والمدارس ومن يعمل فيها، وكذلك الربط والخوانق والمشاهد ومواطن العبادة.. وهناك وقف على من انكسرت له آنية ولا يقدر على عوضها، خاصة فيما يساعد المملوكين، حيث اعتبر مثل هذا الوقف باباً من أبواب الطاعة... وغير ذلك من أبواب الطاعات في تعدد وتنوع الخيرات من باب الوقف، فالوقف بتعدد وجوهه هو صورة من صور التقرب إلى الله تعالى، من باب الصدقات، ويدخل في باب القربات، والواجب في الوقف أن يتم التصرف فيه وفق شروط واقفيه والعمل عليها.

من صور الوقف وغرائبه:

يروي ابن جبير عندما زار في رحلته دمشق فقد شاهد قصراً في منتزه الربوة في دمشق كان قد بناه نور الدين محمود رحمه الله، وأوقف القصر للفقراء لكي يستمتعوا فيه، وأوقف مع القصر قرية داريا، وهي أعظم قرى الغوطة، وفي ذلك يقول تاج الدين الكندي:

إن نور الدين لما أن رأى
في البساتين قصور الأغنياء
عمر الربوة قصراً شاهقاً
نزهة مطلقة للفقراء

ومن قضايا الوقف: تجهيز الفقراء المعوزين الذي يرغبون الحج ولا يوجد لديهم ما يساعدهم على حجهم، وكذلك تجهيز البنات للزواج، على أن يكونوا فقراء. وتشهد دمشق في وقف أرض ما بين النهرين على أنها وقف إسلامي للحيوانات المريضة والسائبة؛ فجميع هذه الصور كان ابن جبير قد أشار إليها. ومن هذه الصور الجميلة قضية غلام مملوك كسر صحناً كان يحمله، فخاف الصبي من العقاب، واجتمع عليه جمع من الناس، فقال له أحدهم: اجمع الفخار وتعال معي، وأخذ بيده إلى صاحب أوقاف الأواني، وعندما شاهده أمين الوقف، اشترى له صحناً بديلاً منه جبراً لخاطر الغلام، حتى لا ينكسر قلبه عند صاحبه، فكان مثل هذا الوقف جبراً للقلوب.. إنها عظمة الإسلام في رسالته ولا شيء غير ذلك.

القدس عاصمة الثقافة العربية لسنة ٢٠٠٩م:

على واقع هذا الاختيار للقدس في أن تكون عاصمة للثقافة العربية، فقد شهدت العاصمة الأردنية، وعلى أرض جامعة عمان، مؤتمر تاريخ بلاد الشام الذي يعقد عادة بشكل دوري بين جامعة دمشق وجامعة عمان كل أربع سنوات، وفي هذه الدورة التي عقدت في عمان، من اليوم الرابع إلى الثامن من شهر أكتوبر لسنة ٢٠٠٩م - ١٤٣٠هـ، فقد حمل المؤتمر تمشياً مع اختيار القدس عاصمة للثقافة العربية، موضوع القدس ثم القدس ثم القدس، وقد تعددت الدراسات وتنوعت، وكانت أهم المحاور التي أدرجت في المؤتمر: محور الوقف الإسلامي في القدس، حيث كان هذا المحور من أهم المحاور في بيان عروبة وأسلمة مدينة القدس، فعلى سبيل المثال وفي الدراسة العلمية المقدمة تحت عنوان: «النشاط الاقتصادي للمرأة المقدسية المسلمة» (١٨٥٠ - ١٨٧٥م) للأستاذ الدكتور محمد ماجد الحزماوي، من أهل القدس؛ فقد أظهر الباحث في دراسته دور المرأة المقدسية في الوقفيات المقدسية، وجاء على ذكر عديد من أسماء صاحبات الوقف، واللواتي تركن من ورائهن الكثير من العقارات الوقفية، وقد اشترطن أمور التولية على وقفهن لنفسهن طوال حياتهن، ثم حددن من سيخلفهن من بعدهن. وقد بلغ عدد البحوث المتداولة في المؤتمر (١٣) محوراً، قامت جميعها على (٤٢) دراسة، احتل الوقف الإسلامي صدارة هذه الدراسات، والتي كانت أعمال الدكتور كامل العسلي الأساس والأصل الذي قامت عليه مجموع الدراسات الوقفية، والتي وثقت عروبة وإسلامية فلسطين عامة، والقدس والأقصى خاصة.

ولمكانة موروث الدكتور العسلي بكامله في توثيق عروبة وإسلامية القدس وفلسطين، فقد أوصى المؤتمر بطباعة الموروث بكامله على واقع المؤتمر الذي سبق ذكره، وقد حملت مطبوعات المؤتمر جميعها اسم «الأعمال المقدسية الكاملة» د/ كامل العسلي، وقد جاءت مؤلفاته على الشكل التالي:

١ - وثائق مقدسية في ثلاثة مجلدات حاضنة في دفتيها العديد من الوثائق الوقفية والخاصة بمدينة القدس.

٢ - بحوث ودراسات مقدسية سبق للعسلي نشرها في مجلات علمية، وقد بلغ عددها (٦٧) بحثاً ودراسة، وقد جمعت هذه الدراسات في ثلاثة مجلدات على ثمانية محاور علمية، ويهمنا منها المحور الأول، والذي جاء خاصاً بالوقف الإسلامي، وكان عنوانه: «حول الأوقاف والتعليم في القدس وفلسطين»، وقد احتضن هذا المحور المواد التالية:

أ - دور العلم في القدس (نشر في مجلة القدس العربي العدد ١٠٠ - حزيران ١٩٨٢).

ب - الأوقاف والتعليم في القدس.

ج - التعليم في فلسطين من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر الحديث (نشر في الموسوعة الفلسطينية القسم الثاني ١٩٩٠م).

ويلحق بما سبق المواد التالية، وقد جمعت في مجلدين، وهي على الشكل التالي:

١- القدس في التاريخ.

٢ - بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين.

٣ - من آثارنا في بيت المقدس.

٤ - أجدادنا في ثرى بيت المقدس.

٥ - مخطوطات فضائل بيت المقدس.

والذي يستعرض هذه الدراسات التي جمعها العسلي رحمه الله، فسوف يجد فيها أجر الوقف الإسلامي في فلسطين، على الشكل الإخباري من رحالة وعلماء أشاروا فيما كتبوه إلى ذلك، كابن جبير وغيره ممن زار فلسطين والقدس.

الوقف الإسلامي في فلسطين ودوره المباشر في سقوط نظرية الحق التاريخي اليهودي:

ثمة كثير من أهل الفضل من علماء فلسطين ممن خدموا بلدهم فلسطين، ولكن هناك عالم مقدسي موسوعي محقق قلَّ من يلحق بركبه في عطائه الوثائقي الذي أسقط بعطائه العلمي نظرية الحق التاريخي لليهود في فلسطين والقدس والأقصى، إنه الدكتور كامل جميل العسلي المقدسي، والمولود في القدس سنة (١٣٤٤هـ - ١٩٢٥م = ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م)، فما هي قصة هذا الفاضل مع الموروث الوقفي الإسلامي في مدينة القدس؟

لا يمكـــن لنا في مادة علمية بحجـــم هذه المادة حصر أعمـــال هذا الفاضـــل، ولكن نملك أن نســـتعرض الجانب الخاص بالوقف الإســـلامي في بيت المقدس، الذي استطاع هذا الكاتب والمحقق حصره في كتابين من أعماله، وأهمها باكورة أعماله في ثلاثة مجلدات، وهو كتاب: وثائق مقدسية تاريخية، وقد جاءت مصادره التي وثقت إســـلامية وعروبة القدس على الشكل التالي:

١- سجلات المحكمة الشرعية في القدس.

٢ - السجلات والوثائق العثمانية في إستانبول وأنقرة.

٣ - وثائق الحرم الشريف في القدس.

٤ - الوثائق المحفوظة في أديرة القدس.

وهكـــذا نلاحظ أن المادة المصدرية لم تشـــر إلى وجود مصـــدر يهودي في فلســـطين، وإن وجدت مـــادة مصدرية نصرانية فهي تعود إلى الحاضرة الإسلامية لهذه المصادر، فيما قبل العصر الصليبي لاحتلال القدس وفلسطين، فقد وثقت المصادر النصرانية ســـماحة الإســـلام للنصارى في التمتع الكامل بحرياتهـــم الدنيوية والدينية، وحتى من كان فيها من يهود عند الفتح الإسلامي.

ففي المجلـــد الأول من الكتاب جاء العســـلي فيه على ســـت وثائق وقفية نادرة، وأقدمها وقفية الســـلطان صلاح الدين الأيوبي رحمه الله للخانقاه الصلاحية بالقدس، وهي مؤرخة في (٥ رمضان لسنة ٥٨٥ هـ)، وآخرها وقفية الشيخ راغب الخالـــدي رحمه الله لحصته مـــن حمام العين على المكتبة الخالدية التي ما زالت - أي المكتبة - عامرة والحمد لله، والوثيقة مؤرخة في (٨ ربيع الآخر ١٣٢٢هـ).

وثمة وثائق على شـــكل مراسم ســـلطانية مملوكية من الســـلطان بيبرس، وهـــي في عددها خمـــس وثائق وقفية بشأن الحرم القدسي الشريف، أولها بتاريخ (جمادى الأولى ٦٦٤ هـ)، والخامسة مرســـوم من السلطان خشقدم بشأن تخصيص جوالي قرية طيبة لســـم (الاســـم) على مصالح الصخرة الشريفة.

أما المجلد الثالث من الكتاب فقد احتوى بين دفتيه على (١٥٦) وثيقة «بما في ذلك ٢٩ نقشاً حجرياً»، أقدمها يرجع إلى (٦٠٩هـ - ١٢١٢م)، وهناك الوثائق والنقوش العثمانية التي تتوزع تاريخياً على مدى خمســـمائة عام، ما بين سنتي (٩٤٥ هـ ١٥٣٨م = ١٣٣٦هـ - ١٩١٧م).

الوقف وإدارته في فلسطين:

بـــدأت عمليات رعاية الوقف وإدارتـــه مع العهد الأيوبي، ثم المملوكـــي والعثماني، وقد تم تعيـــين العديد من أصحاب الولاية عليه والنظار والجباة والكتاب والمباشـــرين والشـــداد، وقد تولاه إضافـــة لهـــؤلاء العلماء المســـلمون، بعـــد أن تم تكليفهم بإدارة المؤسســـات والحمامات، والمستشـــفيات والخانات، ومن الأسر التي عرفت عنها الولاية على وقفيات إســـلامية في القدس، آل العلمي؛ حيث دخلت إدارتهم هذه على قاعدة التوريث، فقد أداروا زاوية (الأسعدية) في جبل طور زيتا، وكذلك أوقاف البيمارستان الصلاحـــي، كما تولى آل الحســـيني بعض المؤسســـات الوقفية الدينيـــة (كالمدرســـة الأمينية) القائمة بجوار الحرم القدســـي، والمدرسة (الطشـــتمرية) وأوقافها، كما تولى آل الدجاني خدمة (مقـــام النبـــي داود عليه الســـلام)، وكذلـــك آل الخالدي، وآل السعدي، وغيرهم من الأسر المقدسية. وفيما يخدم الوقف فقد مارس القائمون عليه الاستثمار فيه. وهكذا كانت رسالة الوقف الإســـلامي في التصدي لمشاريع تهويد المدينة.. والذي ينظر إلى المكتبة الخالدية في القدس يجد أن الجدار الذي يجاورها يرفع عليه العلم الإســـرائيلي، وقد عجزت إسرائيل عن طمس وإلغاء معالم الوقف الإسلامي بما يخدم تهويد القدس وفلسطين.

القدس وفلسطين في ظل احتلالين؛ صليبي سلف وصهيوني خلف:

الأرض واحدة هي فلسطين؛ لكن الاحتلالين مختلفان في كلا العقيدتين وأتباعهما، فبعد تسعة عقود من احتلال الصليبيين لفلسطين، كانت موقعة حطين التي ترتب عليها تحرير بيت المقدس سنة (٥٨٣هـ - ١١٨٧م)، إنها حكاية بدأها نور الدين وأتمها من بعده صلاح الدين، بعد تطهير المجتمع الإسلامي من شائبة الوجود الباطني، وعاد معها للشام وجهها السني، ليترتب عليه تحرير القدس وفلسطين، فالباطنية هي أساس الفساد في ذلك العصر وكل عصر، وها هي إسرائيل عاشت مستقرة طيلة خمسة عقود من خلال حكم باطني في أهم وأخطر طوق أمني يحيط بإسرائيل، ومع الزلزلة التي عصفت بسورية اليوم؛ فقد ذهب اليهود في الخوف من المصير الصليبي وعقدة حطين، وهل ستواجه إسرائيل المصير الصليبي؟

كان هذا ما حذر منه أرنولد توينبي متكلماً عن يقظة المسلمين القادمة، فهم لن يبقوا في سبات دائم؛ فيقول: صحيح أن الوحدة الإسلامية نائمة، لكن يجب أن نضع في حسابنا أن النائم سيستيقظ عندما يجد المسلمون أنفسهم أمام سهام وحراب عداء أممي يستهدف وجودهم ودينهم، ما سيكون سبباً في إيقاظ روح النضال الإسلامي إيماناً منهم بحق الوجود، ولو كانوا في نومهم كأهل الكهف، فهم سيستنطقون التاريخ البطولي للإسلام، فهم أصحاب الانتصار على الغزاة الروم وتحرير سورية بعد (١٠٠٠) سنة من احتلالها، وعلى الفرس كذلك، وتوج تاريخهم هذا انتصارات نور الدين وصلاح الدين، ومن بعدهم السلطان قطز قاهر المغول، وبيبرس الذي طهر بلاد الشام من أي أثر صليبي.

إنها العنصرية التي بدأها الصليبيون، وسار على نهجها الصهاينة ضد أمة الإسلام، وهو الأمر الذي نبه إليه توينبي في تحذيره من سعي عنصرية الغرب واليهود ضد الإسلام وأهله، ما سوف يكون عاملاً من عوامل استيقاظ النائم، والذي هو الإسلام، فالانتفاضة المباركة دفعت بربع مليون يهودي إلى الهجرة المعاكسة والعودة إلى الأوطان التي جاؤوا منها، ومع الخوف من عقدة (حطين) على دولتهم الوليدة، فقد دفع السياسيون مراكز الدراسات العلمية اليهودية لدراسة علة اليقظة الإسلامية في العهود الصليبية، بقصد استقراء التاريخ في ماضيه، بقصد الاستفادة من حاضره ومستقبله، فهم لا يهمهم هنا الدراسات الصليبية بقدر ما يهمهم كيف تم تحرير القدس وفلسطين منهم؟ خاصة بعد تسعة عقود من احتلالهم لها، فها هم اليوم قد وجدوا أنفسهم على رمال متحركة بعد كل سياسات التهويد، وخاصة منها بناء الجدار الذي أُسقط ببنائه مصطلح الدولة العبرية (حدودك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل).

وقد توصل الباحثون اليهود إلى القول بأن المؤثرات العقدية، والموروثات الثقافية والوقفية؛ هي المعطلة في سياسة التهويد، وأي اختراق لهذه الثوابت فإن مصير الصليبين سيلاحقهم، فالعصر السابق على الاحتلال الصليبي كان الحمداني في الشام، والعبيدي في مصر، وهذا العصر هو الذي هيأ السبيل للصليبيين لاحتلال فلسطين والقدس، ومع هذا الاحتلال مع ما رافقه من تغيير للمعالم الإسلامية في القدس ونيل منها، فقد دفعت هذه السياسة في يقظة الأمة يومها، وكان العلماء من وراء هذه اليقظة، فقدموا النصح لولاة الأمر، على مكانة وقدسية القدس والأقصى، داعين إلى الجهاد لتحرير القدس والأقصى من السعي إلى تنصيرهما.

فوقعت هذه الدعوة على سياق وعرض البحث والدراسة عند الباحثين اليهود، فكان موروث الجهاد الذي كان يقوم عليه كتاب الإمام علي بن طاهر السلمي المتوفى سنة (٤٩٨هـ - ٤٩٩هـ)، والموجود في المكتبة الظاهرية بدمشق، في (١٢) جزءاً؛ وهو الذي قال إن الحركة الصليبية هي واحدة في الأندلس وصقلية والشام، وذلك قبل ابن الأثير بمائة عام، والشيخ عز الدين السلمي والقاضي ابن شداد الذي كان يرافق صلاح الدين، والشيخ المحدث الإمام النووي الذي عاصر الظاهر بيبرس. وقد كُتبت في هذا العصر الذي زامن تحرير فلسطين، عشرات الكتب التي تحث على الجهاد المقدس، في الوقت الذي غابت فيه مثل هذه الدراسات والمؤلفات، خاصة في العهدين الباطنيين: الحمداني وما تلاه من حكم بني مرداس، والعبيدي الفاطمي في مصر.. فتلك هي خيوط الاستشعار التي توصَّل إليها الباحثون اليهود، وكانت سبباً في تحرير فلسطين والقدس، وذلك هو الخوف الذي يلاحق اليهود اليوم، وليس ذلك على الله ببعيد.

مؤسسة البصر الخيرية العالمية

http://www.al-basar.com

مؤسسة البصر الخيرية العالمية
ALBASAR INTERNATIONAL FOUNDATION
لعيونٍ تُبصرُ الأمل

مكافحة أمراض العمى في العالم الإسلامي

تبرع بالقليل لتسعد الكثيرين ..

حملات طبية:

- إقامة 1039 حملة طبية
- في 42 دولة
- فحص ومعاينة: 4 مليون مريض
- إجراء 318 ألف عملية جراحية مع زراعة 214 ألف عدسة طبية

مستشفيات تخصصية:

- إنشاء 25 مستشفى .
- في 8 دول: "آسيا 5 - أفريقيا 3"
- فحص ومعاينة: 11 مليون مريض
- إجراء 800 ألف عملية جراحية مع زراعة 400 ألف عدسة للعين

كليات ومعاهد:

- كليتين في السودان وباكستان.

فحص لطلاب المدارس:

- فحص 700 ألف طالب من طلاب مراحل التعليم الأساسية في كلٍ من: ((السودان - النيجر))

المملكة العربية السعودية – ص.ب 40030 – الخبر 31952 هاتف 5800 898 3 966+ فاكس 2045 898 3 966+

مصرف الراجحي – فرع العقربية – الخبر
باسم الدكتور/ عادل بن عبدالعزيز الرشود
الزكاة (SA9380000301608010044440)
الصدقة (SA2280000301608010044457)

بنك الإمارات الدولي– فرع جبل علي
حساب الدولار – باسم مؤسسة البصر الخيرية العالمية
(102-11761539-01)

أوقاف السلطان الأشرف شعبان على الحرمين

■ راشد بن سعد بن راشد القحطاني(*)

انفردت الحضارة الإسلامية بمزايا عن الحضارات الأخرى، ومنها نظام الوقف، الذي يظل بغاياته وأهدافه أنموذجاً فريداً وأسلوباً إنسانياً رائعاً.

وما المقال الذي بين أيدينا الذي يعرض وثيقة تاريخية، إلا نموذجاً حياً من النماذج التي يفخر بها تاريخنا الإسلامي بحضارته الإنسانية والخيرية.

وهذا ما لاحظناه في عصر سلاطين المماليك؛ إذ بلغ نظام الأوقاف درجة الاكتمال والنضج؛ ذلك أن هذا العصر بالذات يمثل دور القوة والثراء والازدهار الحضاري في تاريخ العصور الوسطى. واختار كثير من السلاطين والأمراء والتجار وغيرهم أن يشاركوا بجزء من ثرواتهم في النهوض بالمجتمعات، فأقاموا المؤسسات الخيرية المتنوعة، وحبسوا عليها الأوقاف، ووضعوا الشروط العديدة لضمان حُسن التصرف في ريع تلك الأوقاف، بما يضمن استمرار تلك المؤسسات في تحقيق رسالتها. والعمل الخيري في الإسلام ليس فقط تعبيراً فردياً، بل هو لبنة من لبنات البناء الاجتماعي التي أُسس من خلالها العمل الخيري إلى وقتنا الحاضر.

كما أن الوقف في الإسلام لم يفرّق بين مسلم وكافر، ويبقى بمواصفاته وخصائصه أنموذجاً للتكافل الاجتماعي في المجتمعات الإسلامية كافة.

وارتبط كل وقف من هذه الأوقاف بوثيقة وحُجة شرعية توضّح أركان ذلك الوقف والغرض منه وحجمه، وكيفية الاستفادة من ريعه. ومن هذه الوثائق وثيقة محفوظة في دار الوثائق القومية بالقلعة في القاهرة بمصر، وهي حُجة وقفية مؤرخة في الثالث من جمادى الآخرة سنة ٧٧٧ باسم السلطان الأشرف شعبان بن حسين، وفيها أسماء عدة قرى موقوفة يُصرف من ريعها على الحرمين الشريفين، وقد بلغ طولها نحو ٤١ متراً وعرضها نحو ٣٠ سنتيمتراً.

ولا شك في أن دراسة هذه الوثائق والحجج تلقي الضوء على طبيعة المجتمعات الإسلامية في تلك العصور، ومدى تغلغل الجانب الديني في قلوبهم. ويعدّ عصر المماليك العصر الذهبي في تاريخ العمارة الإسلامية؛ إذ الإقبال على تشييد المساجد والمدارس وغيرها، والتنوع والإتقان في شتى العناصر المعمارية من منارات وقباب وزخارف، كما روعي في

(*) جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

بناء المساجد بناء المدارس إلى جانبها ذات الإيوانات والأعمدة والأكتاف، وفي داخل تلك المدارس تأسيس المكتبات.. ومن السلاطين الذين كان لهم دور كبير في الأوقاف، بحسب الحُجة التي ذكرناها سابقاً، هو السلطان الأشرف شعبان بن حسين (٧٥٤-٧٧٨هـ) الذي تولى الحكم في مصر وله من العمر عشر سنوات، وقتل وهو في ٢٤ من العمر.. اهتم بعمارة الحرم بصفة عامة. وقد أجمل الفاسي في العقد الثمين أعماله بقوله: «فَعَلَ الأشرف بالحرمين مآثر حسنة، وهو أنه قرر دروساً للأيتام في المذاهب الأربعة، ودرساً في الحديث والتفاسير، وقراء، ومؤذنين... وغيرهم، ومكتباً للأيتام، وأقام البيمارستان المستنصري في مكة. وقف على ذلك وقفاً كافياً، وبعث ابن كلبك لعمارة مئذنة باب الحزوة، وكانت قد سقطت سنة ٧٧١ وفرغ من عمارتها سنة ٧٢، وحلى باب الكعبة، والميزاب، وعمل ميضأة باب علي في سنة ٧٧٦، وعُمّرت في مبدأ دولته أماكن بالمسجد الحرام، وأكمل المطاف بالحجارة المنحوتة، وجدد المقامات الأربعة، وعمل درجة للكعبة كانت الكعبة تفتح عليها إلى موسم سنة ٨١٨، وعمل منبراً، وعوض صاحب مكة عن المكس الذي كان يؤخذ على الحجاج».

وبناءً على الأهمية البالغة للوقف في الحضارة الإسلامية، والدور المتميز الذي قام به، والنظام الدقيق الذي اتبعه، والتأثير الإيجابي الذي أدت إليه؛ فلا بد من التعريف به، والإشارة إلى نماذج من أوقاف السلطان شعبان من خلال حجته التي ذكرناها قبل قليل، مع إبراز الاهتمام الذي أولاه سلاطين المماليك بالحرمين الشريفين.

أعمال سلاطين المماليك على الحرمين:

اهتم سلاطين المماليك البحرية بالحرمين اهتماماً كبيراً يدلّ عليه ما أنفقوه وأوقفوه على هذه البقاع المقدسة، وما يتصل بها من خدمات، وما احتاجت إليه من خدمات.

فقد شرع سلاطين الممالك في القيام بالإصلاحات والترميمات في الحرمين منذ بداية عهدهم، ومن هؤلاء: الملك المنصور نور الدين علي ابن الملك المعز عز الدين أيبك التركماني، والظاهر بيبرس البندقداري، والملك المنصور قلاوون. ومن السلاطين المبرزين في التاريخ المملوكي السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون.

وموضوعنا الأساس هو السلطان الأشرف شعبان بن حسين، وهو الوحيد من بين أسرة قلاوون الذي اعتلى العرش وأبوه لم يكن من قبل سلطاناً.

وقد اهتم السلطان الأشرف شعبان بعمارة الحرم بصفة عامة، ففي سنة ٧٦٦هـ أكمل المطاف بالحجارة المنحوتة، وجدد المقامات الأربعة، كما جدد بياض المسجد وبياض شرفاته ومناثره وسطحه، وكان كل هذا بإشارة مدبر دولته يلبغا الخاصكي.

كما اهتم بالحرمين أكثر ممن سبقه من السلاطين، فأوقف عدة قرى في بلاد الشام وفلسطين للصرف من ريعها على الحرمين الشريفين، وكان الهدف من هذا ألا ينقطع الصرف عليهما بوفاته.. كما أنه حاول أن يخفف العبء عن كاهل الفقراء والحجاج، وذلك بإلغاء المكوس التي كان يفرضها أميرا مكة المكرمة والمدينة المنورة على المأكولات والملبوسات، وما يحصل من العشور على النخيل والمزروعات، وفي مقابل هذا قرر مبلغ ١٦٠ ألف درهم لأمير مكة، و١٠٠ ألف لأمير المدينة. كما أنشأ مارستاناً جديداً في مكة المكرمة وقرر له كل ما يحتاج إليه من حكيم وممرضين وممرضات وأدوية وأشربة ونفقات جارية أخرى. كما اهتم بعلوم الحديث والتدريس في الحرم المكي والمدني، فساعد العلماء والمحدثين على إلقاء الدروس، وعيَّن مؤدباً لتعليم عشرة من الأيتام حتى لا ينقطع العلم.

كما كشف الجانب الأهلي من الوقف؛ إذ إن السلطان خصص الفائض من ريع الوقف ليكون له في حياته ثم لذريته، وإذا انقطع الورثة تحوّل هذا الجزء إلى وجوه الخير والبر والقربات.

وقد تم بذل جهد كبير للاستدلال على القرى التي تم وقفها، فقد تمت إزالة بعضها، وتحول بعضها إلى خراب، وتغيّرت أسماء بعضها الآخر أو حرفت عما كانت عليه، وظل القليل منها محتفظاً باسمه القديم، وقد تمت الاستعانة بالخرائط الحديثة وكتب الجغرافيا القديمة والحديثة حتى تم الاهتداء إلى أغلب الأماكن.

أوجه الصرف من ريع الوقف:

بدأت وثيقة وقف السلطان الأشرف شعبان بن حسين من السطر ٨٤٥ بتحديد أوجه صرف ريع هذا الوقف، الذي

قدر بمبلغ ٢١٥ ألف درهم تضاف إلى ريع ما وقفه في غير هذه الوثيقة، وهو ناحية اللجينة وثلثا درايح، على أن يستغل ريعهمـــا ويصرف لأمير مكة وأمير المدينة بحيث يصير مالاً واحداً، وقد ابتدأ بتحديد أوجـــه الصرف في مكة المكرمة علـــى أميرها ثم عيَّن الرواتب التـــي تدفع للعاملين بالحرم المكي الشريف.

ولما كانت هذه البلاد قد دخلت في حوزة الدولة المملوكية، لهذا قدم سلاطين المماليك لأهلها كل رعاية وعناية، خاصة أن الكعبة الشريفة كانت أمانة بين أيديهم وحرص السلاطين على أن تكون الســـيادة لهؤلاء الأمراء المحليين حتى يضمنوا ســـلامة الحجيج وعدم الاعتداء عليهـــم أو مضايقتهم من ناحية، ثم استمرار نفوذهم واستمالة أهل البلاد إلى جانبهم مـــن ناحية أخرى؛ ولهـــذا قرروا لهم الأمـــوال والمؤن التي كانت تدفع ســـنوياً لهذا الغرض حتـــى لا يطالبوا الحجيج بمـــا لا يطيقون، بل لم يدخروا وســـعاً في تخفيف تكاليف المعيشـــة على أهالـــي المدينتين المقدســـتين وعلى زوارهما وعلى مســـاعدة الحجاج وتوفير وسائل الراحة والأمان لهم ومساعدة المنقطعين منهم في العودة إلى أوطانهم.

ولم يفت الســـلطان شـــعبان أن يخصص جزءاً من ريع أوقافه للصرف مباشـــرة على الفقراء والمســـاكين، بل حتى الموتى الذيـــن لا يجدون الكفن أو أجر من يتولى دفنهم بعد وفاتهم؛ ولهذا خصص مبالغ مختلفة لهذه الأعمال الخيرية حددتها الوثيقة كما يلي:

١ - كسوة الفقراء:

خصصت الوثيقة ألف درهم لشـــراء قمصان من الكتان والقطن ترســـل كل ســـنة من مصر مع من يوثق به بصحبة الركب السلطاني إلى مكة؛ لكي توزع على الفقراء والمساكين والأرامل المنقطعين، وجعل الأفضلية لأصحاب الأخصاص.

٢ - الأكفان ودفن الموتى:

قرر الســـلطان شـــعبان تخصيص ثلاثـــة آلاف درهم يتولـــى الناظر على الوقف شـــراء أكفان بمبلغ ١٥٠٠ درهم يرسلها مع بقية المبلغ وهو ١٥٠٠ درهم نقداً، بصحبة الركب الســـلطاني إلى الناظر على الحرم المكي؛ ليصرف الأكفان للأموات بالحرم الشـــريف ويدفع أجرة من يتولى غســـلهم وتكفينهم ومواراتهم في لحدهم على الوجه الشـــرعي أسوة بأمثالهم.

٣ - صدقة الفقراء:

لم يكتفِ الســـلطان شـــعبان بتخصيص مبالغ من ريع أوقافه لكسوة فقراء المسلمين في الحرم الشريف، أو تكفين موتاهـــم ودفنهم، والعمل على خفض نفقات الحياة لهم عن طريق إلغاء المكوس والعشور وغيرها على المأكولات والفاكهة والخضـــراوات والمزروعات؛ بل مدَّ لهم يد العون مباشـــرة، فقرر صرف مبلغ خمســـة آلاف درهم سنوياً يرسلها الناظر على الوقف بصحبة الركب الســـلطاني؛ ليتولى الناظر على الحرم تفريقها على من يراه من الفقراء والمساكين والأرامل والمنقطعين، الذين تقطعت وســـائل عودتهـــم إلى أوطانهم. ولكي يطبق أصول صحة الوقـــف في ضرورة صرف الريع على الوجه الشـــرعي، فقد اســـتثنى الزيديـــة والروافض. كما قدم أصحاب الأخصـــاص الذين كانوا بظاهر مكة في الاســـتفادة من هذه المساعدة المالية، ويبدو أنهم كانوا أفقر الطبقات في مكـــة المكرمة آنذاك؛ لأنه قدمهم على غيرهم في توزيع الكساء أيضاً كما سبق.

٤ - الإبر والخيوط:

من الأشـــياء التي تسترعي الانتباه تخصيص مبلغ ١٥٠ درهماً يشـــتري بها الناظر إبراً وخيوطاً من الكتان والقطن ويرســـل ذلك إلى الحرم؛ ليفرق على مـــن يراه من الفقراء والمســـاكين. ولا شك أن ذلك إحساس من الواقف بما يعانيه الفقراء من جهة، واكتمال كل الجوانب التي يمكن أن يحتاج إليها الفقراء من جهة أخـــرى؛ إذ لم يبقِ الواقف جانباً من جوانب الحياة المعيشـــية إلا وأوقف فيه، حتى افترض وجود فقراء لم يكن باســـتطاعتهم شـــراء هذه الأشياء البسيطة؛ لإصلاح ملابسهم التي تتمزق، أو لخياطة ما كان يوزع عليهم من الأقمشة من ريع الوقف أيضاً.

٥ - رباط السدرة:

كانت الأربطة تؤدي دوراً مهماً في الحياة الاجتماعية في العصور الإسلامية؛ ولهذا خصص السلطان الأشرف شعبان مبلغ ألف درهم لمصالح رباط السدرة في مكة المكرمة.

النفقات الخيرية في المدينة المنورة:

إلى جانب النفقات الكبيرة التي خصصها السلطان شعبان لأمير المدينة ورجالها والمدرسين والمؤذنين في المسجد النبوي الشريف وطلاب العلم وغيرهم فيها؛ فقد خصص مبالغ كبيرة لإنفاقها في وجوه البر والصدقات على الفقراء والمساكين والمنقطعين، وعلى تكفين الموتى من الفقراء والمساكين ودفنهم، وقد فصّلت الوثيقة هذه الصدقات على النحو التالي:

قمصان الفقراء:

خصصت الوثيقة مبلغ ألف درهم يشتري بها الناظر أو من يراه قمصاناً من الكتان والقطن ويحملها صحبة الركب السلطاني في كل سنة لتفريقها على الفقراء والمساكين والأرامل والمنقطعين، وهو المبلغ المخصص نفسه لفقراء مكة المكرمة، وإن كان قد قدم أصحاب الأخصاص في مكة عند توزيع القمصان ولم يقدم أحداً في المدينة.

أكفان الموتى:

قررت الوثيقة مبلغ ألفي درهم يشتري الناظر بألف درهم منها أكفاناً ومعها الألف الأخرى لتكفين من يحتاج من موتى المسلمين، ودفع كلفة غسلهم ودفنهم ومواراتهم في لحدهم أسوة بأمثالهم على الوجه الشرعي.

الإبر والخيوط:

وكما قرر الواقف السلطان شعبان مبلغ ١٥٠ درهماً لشراء إبر وخيوط في مكة، كذلك خصص المبلغ نفسه للمدينة المنورة يشتري به الناظر إبراً وخيوطاً، ويرسل بها إلى الحرم النبوي، ويفرقها على المحتاجين إليها.

الصدقات:

خصص السلطان الأشرف شعبان خمسة آلاف درهم سنوياً من ريع أوقافه على الحرمين تُحمل إلى المدينة الشريفة؛ ليفرقها الناظر على الفقراء والمساكين والأرامل والمنقطعين، وقد استثنى الزيدية والروافض، وقدم في الصرف أصحاب الربط على من يراه ويؤدي إليه اجتهاده.

صدقة الضيافة والسفر:

خصص السلطان الأشرف شعبان مبلغ ألفي درهم يصرفها الناظر لمن يرد إلى الحرم النبوي من المشاة، لكل منهم خمسة دراهم؛ ضيافة لهم حين حضورهم، ولم يخصص مثل هذا المبلغ للضيافة في مكة المكرمة.

الخاتمة:

نلاحظ بصورة عامة أن سلاطين المماليك البحرية قاموا بأعمال خيرية واهتمام خاص بالحرمين الشريفين، وقد خصّصنا الحديث فقط عن السلطان الأشرف شعبان بن حسين، على الرغم من أن هؤلاء المماليك كانوا حديثي الإسلام نسبياً، إلا أنهم خدموا الإسلام والمسلمين أكثر مما كان يُتوقع أو يُنتظر منهم؛ فقد دخل الإسلام إلى قلوبهم وسيطر على أفئدتهم، فبذلوا الغالي والرخيص في سبيل الدفاع عنه، وتصدوا لحملات الصليبيين، والذود عن الإسلام، وبذلوا جهوداً خاصة في رعاية الحرمين وتعميرهما وتجديدهما، واعتنوا بنظافتهما والحفاظ على مظهرهما في نظر المسلمين.

كما يكشف البحث وجود عدة أوقاف على الحرمين متفرقة في العالم الإسلامي؛ إدراكاً من السلطان الأشرف لأهمية الإنفاق عليهما وسد حاجتهما دون تقتير أو شح؛ حتى يؤدي المسلمين شعائرهم فيهما على أكمل وجه. ويتطلب ذلك حصر تلك الأوقاف وإعادتها إلى الهدف الذي أوقفت من أجله في خدمة الحرمين الشريفين، واستمرار أجر أصحابها وعدم انقطاعه إلى ما شاء الله.

جناية الأنظمة على الأوقاف

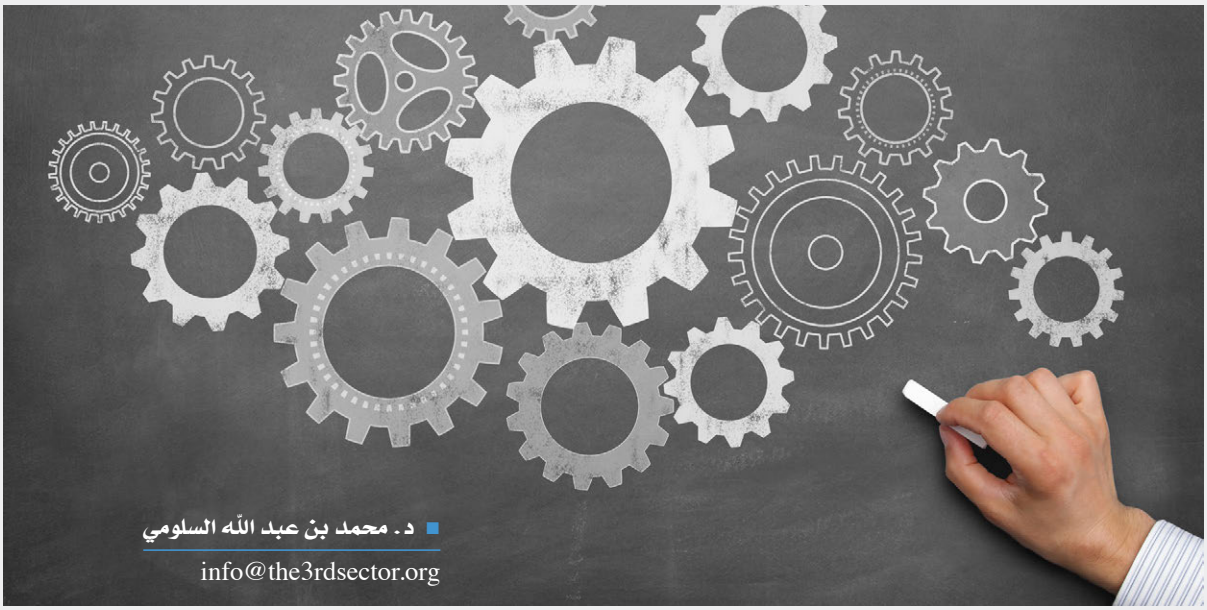

د. محمد بن عبد الله السلومي
info@the3rdsector.org

يحتم العنوان أعلاه أن تكون بداية هذا المقال مباشرة بما يقتضيه مضمونه، وفي البداية فإن من المهم التنبيه إلى أن الأوقاف في الغرب تعززت تحت حكم النظم العلمانية الغربية، لكنها على العكس من ذلك في ظل النظم العربية العلمانية والإسلامية على حد سواء، كما أن مما يستوجب التنبيه إليه أهمية موقع الوقف في التشريعات الإسلامية التي تنصُّ على كونها مستقلة عن الحاكم والحكومة - أياً كانت تلك الحكومة - مرتبطة بشكل مباشر بشرط الواقف الصحيح الذي هو مثل حكم الشارع، وبمرجعية القضاء الشرعي على تلك الأوقاف، وهذه الأمور الثلاثة من أسس بقاء المؤسسة الوقفية وقوتها.

وبهذه الأُسس فإن الأوقاف عبر تاريخ الدول الإسلامية المتعاقبة كانت مصدراً من أقوى مصادر الحضارة الإسلامية في تأسيسها وتنميتها وتطويرها لتحقيق متطلبات المجتمع المسلم من التنمية الشاملة المستدامة إلى معالجة للطوارئ والأزمات التي مرت بها الأمة الإسلامية عبر تاريخها، بل إن الأوقاف بقيت رصيداً لبقاء الأمة الإسلامية وصمودها وعودة نفوذ دولها مرة أخرى، بالرغم من سقوط بعض الحكومات عبر التاريخ أو ضعفها.

كتب الشيخ صالح الحصين - رحمه الله - عن فاعلية الوقف في حياة المسلمين وصمام الأمان لبقاء الأوقاف واستقلاليتها وقوتها، فقال: «وبالرغم من تدهور الدولة الإسلامية فقد بقيت الحضارة الإسلامية راسخة تزدهر وتنمو، وكان ذلك بفضل الله على المسلمين، ثم بفضل نظام الوقف.

فبالأوقاف التي ظل الواجدون من المسلمين يتفنّنون في تنفيذها، لم تتأثر الحضارة الإسلامية ولا المجتمعات المسلمة بقيام الدول أو سقوطها، بل استطاعت أن تقاوم الغزو الخارجي الطاغي حينما تعرّضت لاجتياح الصليبيين والتتار، وظلت مقاومة الحضارة الإسلامية لهذا الاجتياح مثلاً نادراً في تاريخ البشرية.

لقد ساعد على فاعلية نظام الوقف في حياة المسلمين، المبادئ التي قام عليها، وأهمها:

١- امتناع التصرف في أصل الوقف، وقد تحقق بهذا المبدأ حماية الوقف وعدم تعريضه لطيش المتولين عليه أو سوء نيتهم.

٢- ما استقر لدى الفقهاء من أن «شرط الواقف الصحيح مثل حكم الشارع»، فتحققت بذلك حماية الوقف واطمئنان الواقف إلى استمرار صرف وقفه في الأغراض التي تَهُمّه ويُعنى بها.

٣- ولاية القضاء على الأوقاف، فتحققت بذلك حماية الوقف من تدخل السلطات الإدارية الحكومية.

أثبتت التاريخ أن أي إخلال بمبدأ من هذه المبادئ كان مسماراً يدق في نعش الوقف»[١].

ويمكن حوكمة وزارات الأوقاف في العالم العربي ونظمها بمقدار قربها وبعدها في تطبيق هذه المبادئ والالتزام بها لمعرفة حجم جناية الأنظمة على الأوقاف.

يقول بروكلمان في معرض حديثه عن الأوقاف وعن الحضارة الإسلامية وفضلها على حضارة الغرب: «أما في حقول الثقافة الأخرى فقد أنتج السوريون والمصريون إنتاجاً خصباً جداً في عهد المماليك كان لنا (يعني الأوروبيين) فيه ثمرات يانعات، وبخاصة في حقل التاريخ»[٢].

وقد ضعفت الحضارة الإسلامية وما فيها من إبداعات متنوعة عند المسلمين إبان غزو العالم الإسلامي واحتلاله وما صحب ذلك من مصادرة للأوقاف أو إضعاف لدورها وأثرها، وتلا تلك الفترة التاريخية حكومات علمانية أو حكومات بيروقراطية استولت على الأوقاف تحت مسميات التنظيم والتطوير، والمأسسة والترسيم.

يؤكد الحصين أن الأوقاف رقم صعب لدى المستعمر (المحتل) الأجنبي، فيقول عن سياستهم تجاه الأوقاف: «فحينما استولت الدول الاستعمارية على بلاد المسلمين في القرنين الماضيين (الثالث عشر والرابع عشر الهجريين)، وكانت تدرك أن الصراع السياسي يعتمد في حسمه على نتيجة الصراع الثقافي والحضاري؛ كان همّ الاستعمار الأول القضاء على الحضارة الإسلامية أو إضعافها إلى أقصى درجة ممكنة، ولما كان الوقف هو سند الحضارة الإسلامية وأساس قوتها، كان من الطبيعي أن يتوجه المستعمر إلى إضعاف نظام الوقف أو القضاء عليه، وكانت وسيلته في ذلك إدخاله في مجال التنظيم الإداري الحكومي تمهيداً لوضعه تحت سلطة الإدارة وسيطرتها، وحققت هذه السياسة نتائجها فقُضي على نظام الوقف تقريباً في العالم الإسلامي أو شلت فعاليته، واستمرت هذه السياسة المشؤومة في بلدان العالم الإسلامي حتى بعد زوال الاستعمار.

انتهى الأمر في بلادٍ كمصر العربية إلى صدور نظام يقضي بتحويل الأوقاف في جمهورية مصر العربية إلى مؤسسة عامة (وزارة) تشمل سلطتها كل الأوقاف في الجمهورية، عدا الأوقاف التابعة لهيئة أوقاف الأقباط، وعدا الوقف الذي يوقفه صاحبه ويجعل النظارة له، وذلك مدة حياته، وعندما يموت يعود إلى المؤسسة العامة. واضح أن النتيجة العملية لهذا النظام وهي خضوعه لكل مساوئ البيروقراطية، والعجز الإداري، وأسوأ من هذا كله قيام رادع فعال يمنع أهل الخير من النشاط للوقف ما داموا يعرفون أنه سيؤول إلى الإدارة الحكومية التي إن وثقوا بأمانتها فإنهم لا يثقون بكفايتها.

إن من المحزن أن تسمع بين الآونة والأخرى حتى من إخواننا الطيبين في بلادنا الطيبة الدعوة إلى التنظيم الحكومي للأوقاف، غافلين عن الآثار المميتة لهذا الإجراء، وغير معتبرين بدروس التاريخ وسنن الحياة وتجارب غيرنا»[٣].

وبهذا يتبيَّن لنا مخاطر الأفكار العلمانية أو الأفكار الإدارية الخاطئة التي تتعامل مع الأوقاف بما يحجب ثمراتها، ويمنع خيراتها، بل يحجب المحسنين عن إيقاف أموالهم، ومن أبرز ذلك: تحول إدارة الأوقاف من أهلية إلى إدارات حكومية رسمية، وفي ذلك جناية بحق الأوقاف.

ويلفت الحصين - في الورقة العلمية سابقة الذكر - النظر إلى تعمد الإدارات الحكومية عدم تطبيق نظم الخصخصة رغم شمول غيرها بالخصخصة، قائلاً: «إن من المفارقات العجيبة أنه في هذا العصر الذي كشف عن خطأ سياسة التأميم، واتجه بكل قوة إلى الدعوة لتخصيص المشاريع، مع ما هو واضح من تأثير التخصيص على العدالة الاجتماعية ومتطلباتها؛ نرى من أبناء وطننا من أهل الخير والصلاح والعلم، ومن العاملين للإسلام الحاملين همه؛ من يدعو أو يحبذ أو يؤيد السعي لتأميم الأوقاف، وإخضاعها لسيطرة الموظف العام، مع أن نظام الوقف كان في الإسلام وطوال تاريخه من أعظم وسائل العدل الاجتماعي»[٤].

---

(١) انظر ورقة علمية بعنوان (تطبيقات الوقف بين الأمس واليوم) للشيخ صالح الحصين، على الرابط التالي: http://rowaq.org/?p=19.

(٢) انظر: كارل بروكلمان (تاريخ الشعوب الإسلامية)، ص ٣٦٩-٣٧١.

(٣) انظر ورقة علمية بعنوان (تطبيقات الوقف بين الأمس واليوم) للشيخ صالح الحصين، على الرابط التالي: http://rowaq.org/?p=19.

(٤) انظر المصدر السابق.

نماذج من تاريخ استقلال الأوقاف:

تُعدُّ الأوقاف حسب التشريعات الإسلامية هيئات مستقلة عن الحكومات ونظُمها، حيث الناظر هو المعني بالأوقاف، سواءً كان فرداً أو مجموعة، وقد تحقق هذا الاستقلال على أرض الواقع عبر تاريخ الأمة الإسلامية، ولذلك كان أثر هذا الاستقلال على بقاء الحضارة الإسلامية ودورها في قوة الأمة المسلمة، ومن متطلبات الرصد التاريخي في هذا المقال الإشارة إلى تحول الأوقاف من مؤسسة مستقلة عن الحكومة إلى مؤسسات حكومية وما صحب ذلك من جناية كبيرة بحق الأوقاف والموقفين من قبل الإدارات العلمانية أو المتأثرين بها، وأثر تلك الجناية على استقلال الأمة الإسلامية، بل وعلى نهاية حضارتها.

وسأكتفي في هذا المقام إلى حد كبير باقتباسات ثرية عن هذا الموضوع من مقالة متخصصة بالأوقاف واستقلاليتها للمفكر الإسلامي والباحث محمد عمارة، والتي أكَّد فيها حق الأمة في الأوقاف وعدم أحقية (الحكومات) فيها، وقد عبَّر عن مصطلح (الحكومة) بالدولة فقال: «ظلت هذه المؤسسة (الأوقاف)، على مر تاريخنا، إحدى أهم مؤسسات (الأمة) التي رجحت كفتها في مواجهة (الدولة)، والتي أعانتها على صناعة الحضارة، على الرغم مما أصاب (الدولة) من انحراف.

ففي الدولة الأموية وعلى عهد هشام بن عبد الملك (٧١-١٢٥هـ/ ٦٩٠- ٧٤٣م)، قام أول ديوان للأحباس (الأوقاف) وكان مستقلاً عن دواوين الدولة يشرف عليه القاضي النائب عن الأمة.

وفي العصر العباسي، مع اتساع نطاق الأوقاف، كان يتولى ديوانها من يُطلق عليه (صدر الوقوف)، وظل هذا الديوان مؤسسة أهلية مستقلة عن الدواوين السلطانية.

وكان العلماء على امتداد هذا التاريخ هم الحراس على قيام هذه المؤسسة بدورها في تمويل إقامة الدين وصناعة الحضارة.. وعلى بقائها مؤسسة (الأمة) المستقلة عن (الدولة) ودواوينها.

وحتى عندما كان الواقفون للأموال والثروات خلفاء وأمراء وسلاطين – دولة –، فإن إمضاء حجة الوقف كان يعني انتقال هذه الأموال والثروات إلى مؤسسات (الأمة) المملوكة للمالك الحقيقي لهذه الأوقاف باباً دائماً لتصحيح الخلل الذي كانت تحدثه المظالم والمصادرات في العلاقة ما بين (الأمة) والدولة عبر تاريخ الإسلام»[١].

وعن أهمية الأوقاف للجيوش والمجاهدين كتب عمارة فقال: «وفي العصر المملوكي.. وأمام اشتداد الخطر الخارجي – الصليبي والتتري –؛ تحوّلت الأرض إلى إقطاع حربي انتزعتها (الدولة) المملوكية لأجنادها لقاء الدفاع عنها ضد الغزاة».

«وفي ذلك العصر كانت الأوقاف، التي بدأ الأمراء والسلاطين يقتطعونها من الدولة ويحبسونها على جهات البر.. كانت هذه الأوقاف الباب الذي أعاد التوازن بين (الأمة) و(الدولة) في هذا الميدان.. حتى لقد بلغت هذه الأوقاف العامة نصف أراضي الدولة على عهد السلطان الظاهر برقوق (٧٣٨- ٨٠١هـ/ ١٣٣٨- ١٣٩٨م)»[٢].

وقد كتب المؤرخ الألماني بروكلمان عن هذه الاستقلالية للأوقاف ودورها وأثرها في نشوء الحضارة وبقائها، بل ودوافع المسلمين للمبادرة بالأوقاف؛ فقال: «هذا الإنتاج (العلمي) الواسع العريض في عصر المماليك كان يجد سنده الاقتصادي في نظام الأوقاف الذي أنشئ في عهد العباسيين، والذي انتهى في مصر وسورية إلى غاية من الغنى تكاد تكون خيالية، ذلك بأن كبار المثرين السوريين والمصريين، كانوا كزملائهم العراقيين من قبل، يقفون (يوقفون) ممتلكاتهم الضخمة على وجوه البر وخدمة العلم، صيانة لها من المصادرة»[٣].

وأقول معلقاً على ما سبق من قول بروكلمان: نعم كان المسلمون يوقفون أموالهم خوفاً عليها من المصادرة، لكن واقعهم اليوم لا يوقفون خوفاً عليها من المصادرة القائمة بشكل مباشر أو غير مباشر.

استطرد عمارة عن دور العلماء في التصدي لإرادة بعض السلاطين والخلفاء ومحاولاتهم إنقاص الأوقاف، فقال: «ولما حاول السلطان – الظاهر برقوق – إنقاص هذه الأوقاف.. وعقد لذلك مجلس شورى، تصدى له العلماء وفي مقدمتهم الشيخ أكمل الدين (٧١٠- ٧٨٦هـ/ ١٣١٠- ١٣٨٤م)، والشيخ سراج الدين البلقيني (٧٢٤- ٨٠٥هـ/ ١٣٢٤- ١٤٠٣م)، والشيخ البرهان ابن جماعة (٧٢٥- ٧٩٠هـ/ ١٣٢٥- ١٣٨٨م)؛ قائلين: إن ما رصده الملوك والأمراء للأوقاف يخرج من بيت

(١) انظر محمد عمارة (دور الوقف في النمو الاجتماعي وتلبية حاجات الأمة)، بحث مقدم في ندوة: نحو دور تنموي للوقف بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، ص ١٦٥- ١٦٦.

(٢) انظر المصدر السابق، ص ١٦٦.

(٣) انظر: كارل بروكلمان (تاريخ الشعوب الإسلامية)، ص ٣٦٩-٣٧١.

المال، ولا سبيل إلى نقضه»[1].

كما كتب عمارة عن تكرار المحاولة لإنقاص الأوقاف في العصر العثماني، فقال: «ولقد تكرر هذا الموقف في العصر العثماني (١١٢٢هـ/ ١٧٠٩م) عندما أراد الوالي العثماني على مصر - إبراهيم باشا القبودان - نقص الأوقاف المرصودة على جهات البر والخير.. فتصدى له علماء المذاهب الأربعة، مهدرين قراره؛ (لأنه لا تجب طاعته إلا إذا وافق أمره الشرع، فإن خالف أمره الشرع لم يُنفذ.. بل تجب مخالفته)! وقُرئت فتواهم في مؤتمر عام حضره الأكابر والحكام والعلماء.. فلما عاند الوالي، رفعوا الأمر إلى السلطان أحمد خان (١١١٥- ١١٤٩هـ/ ١٧٠٣- ١٧٣٦م) الذي أقر فتوى العلماء، فبقيت الأوقاف على ما هي عليه».

(بل لقد اتخذ العلماء في مصر الموقف ذاته دفاعاً عن الأوقاف في مواجهة السلطان العثماني ذاته (١١٤٨هـ/ ١٧٣٥م)، وفي مواجهة القاضي العثماني، الذي قال: «إن أمر السلطان لا يُخالف، وتجب طاعته».. وأفتوا بأن إبطال الأوقاف مخالف للشرع «ولا يُسلَّم للإمام في فعل ما يخالف الشرع»! بل وهددوا بالثورة، فعندما كتبوا للسلطان قائلين: «إنه ربما قامت الرعية وهاجت واضطربت أحوالها وماجت؛ لأن قطع المعايش والأرزاق يفضي إلى قبيح الأفعال وسوء الأخلاق»)[2].

وعن دور الأوقاف في استقلالية العلماء والقضاة كتب عمارة فقال: «والأمر الذي يجب التنبيه عليه.. هو أن هؤلاء العلماء ما كان لهم أن يقودوا (الأمة) في مواجهة (الدولة) لو لم تضمن لهم مؤسسة الأوقاف الاستقلال المالي عن هيمنة الدولة ونفوذها. فالأوقاف - التي مولت صناعة الحضارة الإسلامية - هي التي جعلت للأمة وعلمائها هذا السلطان الذي تصدوا به للدولة وسلاطينها.

بهذا صنعت (الأمة) حضارتها حتى في ظل انحراف الدولة.. لأن رجحان كفة الأمة والاستقلال المالي الذي حققته الأوقاف لملحمة صنع الحضارة الإسلامية، هو الذي جعل الأمة تواجه توازن (السلاطين - الأمراء) بسلاطين العلماء والعارفين وشيوخ وحجج الإسلام»[3].

(١) انظر محمد عمارة (دور الوقف في النمو الاجتماعي وتلبية حاجات الأمة)، بحث مقدم في ندوة: نحو دور تنموي للوقف بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، ص ١٦٦- ١٦٧.
(٢) انظر المصدر السابق، ص ١٦٦- ١٦٧.
(٣) انظر المصدر السابق ص ١٦٧.

كارثة ترسيم الأوقاف في العصر الحديث:

كثيراً ما تكون شعارات التجديد والتحديث والتنظيم وسائل تقييد أو تأميم أو ترسيم، خاصة ما جرى ويجري تجاه الأوقاف الإسلامية في العالم العربي.. كَتَبَ عمارة عن هذا الموضوع فقال: «كان مشروع محمد علي باشا (١١٨٤- ١٢٦٥هـ/ ١٧٧٠- ١٨٤٩م) في مصر مع بدايات القرن التاسع عشر الميلادي، مشروعاً لتجديد شباب الدولة العثمانية، كي لا يسقط في شراك الاحتواء الغربي، الذي كان يحرس أمراضها حتى تحين ساعات وراثتها بعد تقطيع أوصالها.

لكن هذا التجديد قد سلك سبيل الاعتماد على الدولة بدلاً من الأمة، فاحتذى في تجديد شباب الدولة حذو الدولة الغربية الحديثة، واستعان بالخبراء الفرنسيين وخاصة أتباع سان سيمون (١٦٧٥- ١٧٥٥م) في بناء الدولة الحديثة بمصر»[4].

«فبعد أن كان علماء الشرع، ومعهم قادة تنظيمات وروابط ونقابات الحرف والصناعات، هم ممثلي الأمة وأولي أمرها، شرع محمد علي في إحلال الدولة محل هذه القيادات.. وكان العدوان على الأوقاف - المؤسسة التمويلية الأم لقوة الأمة واستقلال قادتها - السبيل الذي بدأ به محمد علي لإحداث هذا الانقلاب.

فامتدت يد الدولة إلى أراضي الأوقاف، فَفُرضت عليها الضرائب (١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م) بعد أن كانت معفاة منها.. ثم أخذت فيما سمته مراجعة حجج الأوقاف وتجديدها، وأمهلت نظارها أربعين يوماً لتقديم الحجج الأصلية، وإلا ألغيت أوقافهم وخضعت لملكية الدولة، وكان الكثير من هذه الحجج قد بليت منذ زمن طويل، كما كانت أعيان كثير من الأوقاف قد أصابها التغيير بأحكام قضائية غير مدونة، وإنما بشهادات شهود قد توفاهم الله منذ عقود وعقود من السنين.. فاستولت الدولة على كثير من أعيان الأوقاف.

ثم خطت الدولة على هذا الدرب أكثر جرأة، فاستولت على أراضي الأوقاف الخيرية في (١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م) -

(٤) انظر محمد عمارة (دور الوقف في النمو الاجتماعي وتلبية حاجات الأمة)، بحث مقدم في ندوة: نحو دور تنموي للوقف بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، ص ١٦٧- ١٦٨، نقلاً عن د/ محمد طلعت عيسى (أتباع سان سيمون: فلسفتهم الاجتماعية وتطبيقها في مصر).

وكانت مساحتها يومئذ ٦٠٠,٠٠٠ فدان، أي أزيد من خُمس الأراضي المصرية البالغة يومئذ ٢,٥٠٠,٠٠٠ فدان -! وعندما احتجَّ العلماء على هذا بمخافة خراب المساجد، أعلن محمد علي أنه قد قرر إحلال الدولة محل الأمة ومؤسساتها الأهلية في الإنفاق على هذه المساجد، وقال للعلماء: (أنا أعمر المساجد المتخربة وأرتب لها ما يكفيها)! فانفتح منذ ذلك التاريخ باب سيطرة الدولة على الفكر الديني، وبدأ الفقيه مثقف ذلك العصر يفقد الاستقلال الذي ضمنته له الأمة والذي مولته مؤسسة الأوقاف عبر تاريخ الإسلام»[1].

ورصد محمد عمارة الآثار المدمرة لهذا الترسيم والتأميم للأوقاف حتى على مستوى قوة الأمة في مقاومة الاحتلال، بل وذكر مقارنة تاريخية مهمة نقلها عن الإمام محمد عبده فقال: «وبعد أن حلَّت (الدولة) محل (الأمة) في رعاية مفكريها ومثقفيها، أصبحت الدولة – والوالي – (ولي النعم) بالنسبة للمثقفين والمفكرين.. لقد احتكرت الدولة صناعة الفكر والتحديث، ومن ثم أممت المثقفين والمفكرين.

ولقد رصد الإمام محمد عبده آثار هذه المتغيرات، والتي مثَّلت منعطفاً حاداً في العلاقة بين الدولة والأمة، كأعمق ما يكون الرصد، وحلَّل آثارها كأجود ما يكون التحليل، فأبان – فيما كتبه عن آثار محمد علي في مصر – كيف كان الرجل (تاجراً زارعاً، وجندياً باسلاً، ومستبداً ماهراً، لكنه كان لمصر قاهراً، ولحياتها الحقيقية معدماً)، ودلَّل على حقيقة تراجع (الأمة) لحساب (الدولة) بالمقارنة بين موقفين تاريخيين، فأمام الحملة الفرنسية – التي قادها بونابرت (١٧٦٩– ١٨٢١م) على مصر (١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م)، لم تنهزم الأمة بانهزام الدولة.. بل قاومت حتى فرَّ بونابرت – قاهر أوروبا – بليلٍ أمام مقاومتها! فلما أحدثت تجربة محمد علي ما أحدثت من تغييرات في العلاقة بين الأمة و(الدولة).. وجاء الجيش الإنجليزي ليحتل مصر (١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م)؛ كانت هزيمة (الدولة) هي نهاية المطاف، فلم تقاوم (الأمة)، كما صنعت من قبل، بقيادة العلماء والتجار وتنظيمات الحرف والصناعات!

لقد تراجعت (الأمة) وفقدت قيادتها الشعبية دعم الأوقاف.. المؤسسة الأم التي موَّلت صناعة الحضارة الإسلامية، والجهاد لحماية هذه الحضارة، على مرِّ تاريخ الإسلام.. وبقيت الدولة (الحكومة) وحدها في مواجهة التحديات»[2].

هذا الواقع الذي حدث في مصر أحدث تحولاً خطيراً في دول العالم العربي والإسلامي في سياسة التعاطي مع الأوقاف، حيث ارتبطت الأوقاف بالحكومة المصرية تحت مسميات التنظيم والتحديث والتجديد، وأصبحت الأوقاف مرتبطة بالحكومة أكثر من ارتباطها بالأمة وبالقضاء الشرعي، ما أسهم في إضعاف أبرز مصدر من مصادر الحضارة الإسلامية، وقد سارت الحكومات المتعاقبة في مصر وغيرها على هذا المنوال تُحدِّث وتُطوِّر في نُظم الأوقاف الداخلية متجاهلة المرض الرئيس الذي تم تجذيره في ارتباط الأوقاف بالحكومة من خلال استحداث وزارات الأوقاف لتكون هي المعنية بالدرجة الأولى بشؤون الأوقاف والواقفين، لكن المصيبة تتعاظم حينما انتقلت فكرة ميلاد وزارة معنية بالأوقاف من مصر إلى سائر دول العالم العربي؛ اقتداءً بالتجربة الإدارية المصرية، وأخطر من وجود المرض عدم تشخيصه، فجميع المؤتمرات المعنية بالأوقاف – وهي متعددة وكثيرة – لا تتطرق في أوراق عملها إلى بحث المرض الرئيس والمشكلة الأساسية للوقف في العالم العربي، فمعظم مشكلات الأوقاف ناتجة عن ترسيم الأوقاف كإدارات أو وزارات أو هيئات حكومية بيروقراطية، وهذا ما لا يُتناول بالبحث والنقاش – مع الأسف – رغم وجوب حشد جميع الأوراق العلمية لمناقشة هذا المرض الرئيس لأهميته البالغة.

ووصل الأمر بمحاولات تطبيع الترسيم للأوقاف أن أصبح التسويق للأوقاف العلمية على الجامعات الحكومية بمزاعم الاقتداء بالجامعات الأمريكية ومؤسساتها المانحة، مثل: مؤسسة فورد، ومؤسسة روكفلر، ومؤسسة كارينجي، ومؤسسة كيلوك، ومؤسسة جونسون، ومؤسسة مارك آرثر، وجامعة هارفارد، وجامعة ديوك.. وغيرها من الجامعات. علماً أن هذا يتنافى مع واقع الجامعات الأمريكية، حيث سياسة الوقف والإيقاف في الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها، إنما هو على الجامعات (غير الحكومية) و(غير الربحية)؛ بهدف دعم هذا القطاع الثالث بمنظومته الكاملة في منافسته لجامعات القطاع العام والخاص، ودعم استقلاله العلمي والمعرفي واستقلال أوقافه، وبالتالي قوة أبحاثه ودراساته في خدمة الوطن – أي وطن –.

وأختم القول عن الجناية الإدارية بحق الأوقاف في

(١) انظر محمد عمارة (دور الوقف في النمو الاجتماعي وتلبية حاجات الأمة)، بحث مقدم في ندوة: نحو دور تنموي للوقف بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، ص ١٦٨–١٦٩.

(٢) انظر المصدر السابق ص ١٦٩– ١٧٠، نقلاً عن (الأعمال الكاملة) ج١، ص ٧٢٨.

بلادنا الإســـلامية من خلال واقعها المعاصر الذي انعكس على عدم وجود مخرجات للأوقـــاف، حيث لا توجد لها مخرجات تنمويـــة، بل ولا شـــراكة تنموية لها في التعليـــم أو الصحة أو أي مشـــاريع خدمية، وفي أحسن أحوال الأوقاف فقد تحولت من وســـيلة لتقديم الخدمة إلى استثمار، حيث وُجد مع نمط الاقتصاد الليبرالي الرأســـمالي نَهَم الاستثمار والتنمية لكامل الوقف ذاته على حســـاب نفعه وثمراته، فســـيطر على بعض المؤسســـات الحكومية (الوزارات) ذلك النمط لتنعكس ثمرات الوقف بمخرجـــات نقدية (رقمية) فقـــط، وأحياناً تكون تلك المخرجـــات النقديـــة مرتفعة تتفاخر بها تلـــك الوزارات على حســـاب مخرجاتها التنمويـــة والخدمية، مع العلـــم أن نهاية مطاف تلك الاســـتثمارات النقدية (الرقميـــة) في واقع الأمر هي دعم الأرصدة النقدية للبنوك المركزية للحكومات، وبالتالي تحول تلك الأرصدة إلى فتح شـــهية الأجنبي ليتم اســـتثمارها أجنبياً، وهي بهذا الواقع مُسهم في تعزيز الاقتصاد العالمي أو الاقتصاد الغربي والأمريكي بشكل خاص، كما هو الواقع المعلن، خاصة لدى دول الخليج العربي التي تســـتثمر معظم سيولتها النقدية – مع الأسف – بما فيها أموال الأوقاف، كسيولة نقدية مدمجة فيما يُسمى (الصناديق السيادية)[1] وغيرها، وفي كثير من الأحوال يتم استثمار السيولة النقدية في سندات الخزانة الأمريكية بفوائد (ربوية) لا تتجاوز في غالب أحوالها نســـبة ٣٪، وهذا ما لا يســـاوي حجم التضخم الاقتصادي الســـنوي العالمي، عدا عن حالات عدم ضمان استرداد تلك الأصول في حـــالات الإفلاس الاقتصادي العالمي المتكـــرر وقوعه، علماً أن الوقف من أموال بيت مال المســـلمين على مصالح الأمة أولى في حفظ سيولتها النقدية كما فعل الخلفاء والولاة في عصور الدول الإسلامية المتعاقبة عبر التاريخ.

والمهم في الأمر أن تطبيع النُظم الاقتصادية الرأســـمالية المعاصرة في عمق اقتصاد الدول الإســـلامية، ســـواء صُنفت علمانيـــة أو إســـلامية؛ أصبح فـــي نهاية المطـــاف في ظل التنظيمات البيروقراطية الحكومية يُشكِّل جنايات متعددة على الأوقاف ومخرجاتها، ما عزَّزَ انصراف المواطن عن الإسهام في وقف ماله أو بعض ماله وما يملك، وتلك جناية أخرى، وذلك ما تطلب التوعية بمخاطر تلك الجنايات المركَّبة الوارد بعضها في هذا المقال المختصر، والذي أختمه ببعض التوصيات المهمة.

(١) انظر على سبيل المثال مقال: (النفط بين بلح الشام وعنب اليمن) فهد بن عبدالله القاسم، صحيفة «الاقتصادية» السعودية، العدد ٧١٤٨.

أبرز التوصيات:

نتائج هذا المقال تحتم إيراد أبرز التوصيات التي تعيد للوقف قيمتـــه واعتباره ونفعه لعامة المسلمين، ومن أبرزها:

١- يقول الشـــيخ صالـــح الحصين – رحمه الله – ناصحاً وموصياً: «ينبغي أن نوقظ إخواننا الصالحين حَســـني النية والقصـــد من غفلتهم، ونفتـــح عيونهم، على أن تأميـــم العمل الخيري، وبخاصـــة الوقف، خطة تفتقـــد الحكمة، وهي جديـــرة بأن تعكس على صاحبهـــا قصده، فهو يريد القوة للنظام ونتيجتـــه الطبيعية الضعف، ويريد الإصلاح ومآله الفساد»[2].

٢- العمل على اســـتقلال الأوقاف بهيئات أهلية مســـتقلة عن الحكومات مرتبطة بالقضاء الشـــرعي المستقل، ومســـتفيدة مما يُسمى في الإدارة الحديثة للدولة (القطـــاع الثالث) الذي ليس قطاعـــاً حكومياً (القطـــاع الأول)، وليس قطاعـــاً تجارياً (القطاع الثاني)، بل قطاعاً ثالثاً مســـتقلاً عن القطاعين، وترتبـــط به الأوقاف وجميع المؤسســـات والجمعيـــات المعنية بالعمل الأهلي والخيري والإنساني.

٣- الاستفادة من النظم الإدارية الغربية التي اقتبست من الحضارة الإسلامية مفاهيم الوقف وعملـــت بها، وفي هذا المجـــال يقول الحصين:

(٢) انظر ورقة علمية بعنوان (تطبيقات الوقف بين الأمس واليوم) للشيخ صالح الحصين، على الرابط التالي: http://rowaq.org/?p=19.

«ولهـذا فإن من أعطـوا الحكمة في معاشـهم وعلموا ظاهـراً من الحياة الدنيا ممن يسمونهم الدول المتقدمة؛ قد انتبهوا لهذا الأمر فحذروه أشـد الحذر، وعلى سـبيل المثال: يوجد في المملكة المتحدة البريطانية، والولايات المتحدة الأمريكية، والدول التي يسود فيها النظام القانوني الإنجلوسكسوني؛ نظام يشـبه الوقف يسمى (الترست Trust).

وقـد حرصـت حكومـات هذه البلـدان على عـدم التدخل في هذا النظـام، واقتصرت علـى إيجاد نوع من الإدارة يهتـم بالرقابة، والمعاونة، وتجميع المعلومـات، وتقديمها لذوي العلاقـات، وأبقـت لهـذا النظـام خصوصيتـه وفرديته، وحـذرت أن تتدخل في إدارته، وليس المجال متسعاً لبيان نتائج هذه السياسـة الحكيمة والتي من أهمها تطـور هذا النظام، واتسـاع نطاقه، وقدرته على التحرك ومواجهة حاجـات المجتمع المختلفة، والمتعددة والمتغيرة»[1].

٤- الاسـتفادة مـن التطبيقات الإداريـة الحديثـة عـن خصخصة المشـاريع والخدمات بتطبيق مفاهيم الخصخصـة على الأوقاف بما يحقق شـرط الواقـف ومرجعيـة القضاء واستقلال الأوقاف.

وفي الختـام.. فإن علـى الأمة الإسلامية بمثقفيها وعلمائها وعامتها وخاصتها أن تتنادى لتحرير الأوقاف من سيطرة الإدارات الرسمية عليها؛ لتعيد للوقـف اسـتقلاليته ومكانته وقيمته وفاعليته وتفاعل المجتمع معه.

(١) انظر المصدر السابق.

الوقف العلمي في جامعة الملك عبدالعزيز:

هو منظومة إسلامية خيرية علمية اقتصادية عصرية، تقوم باستثمار الأصول المختلفة وتوجيه عوائدها نحو تبنّي ودعم المشروعات البحثية والدراسات العلمية والموهوبين والبرامج الخاصة المبتكرة التي تخدم المجتمع وتعالج مشكلاته العلمية والاجتماعية والاقتصادية والصحية والبيئية.. تأسس عام ١٤٢٥هـ بمبادرة من أهالي مدينة جدة ونخبة من أعضاء هيئة التدريس في الجامعة وكوكبة من رجال الأعمال، حيث تم رفع المقترح لصاحب السمو الملكي الأمير عبدالمجيد بن عبدالعزيز (رحمه الله)، أمير منطقة مكة المكرمة آنذاك، وكان بذلك أول وقف جامعي على مستوى الشرق الأوسط.

كما سجّل الوقف العلمي سابقة إدارية مبتكرة في طريقة إدارة الأوقاف، حيث تتم لأول مرة بطريقة مماثلة للشركات المساهمة في القطاع الخاص، من خلال جمعية عمومية تضم جميع الواقفين الذين لا تقل مساهمة كل منهم عن ٢٥٠ ألف ريال أو ما يعادلها من عقار أو أسهم أو غيره، ويكون لكل عضو صوت واحد عن كل ٢٥٠ ألف ريال.

هـذا وتقـوم الجمعية العموميـة بانتخاب أعضاء مجلـس النظارة الذيـن لديهم كافة الصلاحيات لإدارة الوقف العلمي والإشـراف العام على شـؤونه وسـير عمله ومراجعة أدائه، ويتكـون المجلـس مـن ١٥ عضواً، هـم: معالي مدير الجامعـة، وثلاثة أعضاء مـن الجامعة، وثلاثة أعضاء من الإدارات الحكومية، وثمانية من أهل العلم ورجال الأعمال.

ويقـوم مجلـس النظـارة بتعيـين لجنة الاسـتثمار التـي تتولى مهمة دراسـة المشـاريع والفرص الاسـتثمارية لاسـتثمار أموال الوقف وتنميتها وتعظيـم العوائد الاقتصادية التي يعـود جزء منها إلى الاسـتثمار مرة أخرى لتنمية رأسـمال الوقـف، بينما يتم توجيه الجزء الأكبر إلى مصارف الوقف العلمي الشرعية وبحسب شروط الواقفين، ونذكر منها:

- دعم المشاريع البحثية والدراسات العلمية في المجالات الحيوية التي تخدم المجتمع.
- دعـم مشـاريع الموهوبـين والمبتكريـن وأبحاثهم التي تسـهم في إيجاد حلول لمشـاكل المجتمع.
- ابتكار برامج ومشـاريع متميزة لخدمة المجتمع وحل مشـكلاته وتنميته في مختلف المجالات.
- إقامة اللقاءات العلمية والندوات الثقافية والدورات التدريبية لمختلف فئات المجتمع.
- تنظيم برامج تنموية خاصة ببعض فئات المجتمع، مثل: (ذوي الاحتياجات الخاصة، المرضى، والأيتام...).
- عقـد برامـج إدارية متقدمة للتنفيذيين ورجال الأعمال من خارج المملكة؛ لتعريفهم ببيئة العمل في المملكة وتشـجيعهم على فتح مشـاريع جديدة تسهم في دفع عجلة التنمية وتوفير وظائف ورفع مستوى رفاهية المجتمع.

يذكر أن الوقف العلمي أطلق مجموعة رائدة من البرامج والمشاريع، نذكر منها: مسابقة المثالية في القيادة المرورية، مشروع تيسير الزواج، مشروع تدوير الورق، مشروع تشغيل مكتبة الملك فهد العامة في جدة، برنامج ثقة، مشروع تشجيع براءات الاختراع، إنشاء بنك وقفي، برنامج الأعمال التنفيذي السـعودي، وبرنامج الاسـتقطاع الشـهري، كمـا دعم العديد من الأبحـاث العلميـة المهمة في مختلف المجـالات الطبية والبيئيـة والاجتماعية والاقتصادية وغيرها من المجالات التي يحتاج إليها المجتمع والأمة.

■ د. عصام بن حسن كوثر

قريبًا

افتتاح البوابة الإلكترونية..
لمركز تفسير بثوبها الجديد

- نوافذ علمية
- المكتبة القرآنية
- قاعدة البيانات القرآنية
- تصنيف موضوعي للمحتوى

- رابطة المتخصصين
- خدمة الاستشارات
- الأخبار القرآنية
- إضافات علمية متجددة

مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center for Qur'anic Studies

WWW.TAFSIR.NET

برعاية: شركة محمد عبدالعزيز الراجحي وأولاده القابضة
MOHAMMED ABDULAZIZ AL-RAJHI & SONS HOLDING CO.

sponsored by:

أول أكاديمية متخصصة تعنى بصناعة المفسر
وتعتمد التعليم عن بعد

الآن
بدأ التسجيل الدفعة الثانية

أكاديمية تفسير
TafsirAcademy

www.tafsiracademy.com

"أحب الناس إلى الله أعلمهم بما نزل" مجاهد

جناية الأنظمة العَلمانية على الأوقاف الإسلامية

■ محمد إلهامي(*)
@melhamy

لعلّه سيكون غريباً إذ نقول إن هذا الموضوع إنما هو فرع عن الصراع الكبير بين الشرق والغرب، بين النظام الإسلامي والنظام العلماني، فللوهلة الأولى لا يبدو الأمر كذلك، لكن بقليل من التعمّق والنبش وراء ظواهر الأحداث، يتبدى وجه الحقيقة المخبوء.

وإجمال ذلك أن الدولة المركزية هي بنت الفكرة العلمانية والمسار التاريخي الغربي، بينما المجتمع الفعال – والأوقاف من أبرز سماته – هو ابن الفكرة الإسلامية والمسار التاريخي الإسلامي، وأما التفصيل فإليك بيان ما يسمح به المقام.

فكرة الأوقاف وآثارها

إن الأوقاف من الابتكارات الحضارية الإسلامية، فلم يكن موجوداً في العالم القديم إنفاق على أوجه الخير – اللهم إلا ما كان ينفق منه على المعابد وكهنتها مما لا يمثل إلا جزءاً ضئيلاً من فكرة الأوقاف – حتى جاء الإسلام؛ فأوقف رسول الله ﷺ، ثم أوقف صحابته جميعاً، أوقافاً كثيرة، واستمر نمو مؤسسة الوقف في العالم الإسلامي لتشكّل المصدر الذاتي الذي تموّل الأمة به انطلاقتها الحضارية؛ فبما أوقف المسلمون من ممتلكاتهم توافرت أموال غزيرة أنفق بها على العلماء وطلبة العلم وإنشاء المدارس، وعلى الجهاد وبناء الثغور وتحرير الأسرى، وعلى الفقراء والضعفاء والمحتاجين، وعلى تنمية البلدان بشق الأنهار وتعبيد الطرق وإنشاء الجسور ورعاية الحيوانات، وسائر ما يُمكن أن يُتَخيَّل من وجوه الخير ضربت فيه الأمة بسهم عبر مؤسسة الأوقاف.

(*) باحث في التاريخ والحضارة الإسلامية.

ومن بين الآثار الكثيرة للوقف يهمنا التركيز على أثر استقلال مسار الأمة عن مسار السلطة، فلم يكن انهيار السلطة أو ضعفها السياسي والعسكري منعكساً على نمو الأمة الحضاري إلا قليلاً، بل قد تسقط البلدان عسكرياً ثم تأسر الغازين حضارياً وثقافياً كما حدث مع الصليبيين في الشام، والنورمان في صقلية، والإسبان في الأندلس، والمغول في الشرق الإسلامي.

ونقف بالمشهد الإسلامي هنا لنلقي نظرة مهمة على المشهد الغربي وتطوره التاريخي.

التطور الغربي إلى الدولة المركزية

حين تخلّصت أوروبا من الكنيسة ومن أباطرة العصور الوسطى ومن الإقطاعيين، استبدلت بهم نموذجاً آخر، ذلك هو "العلمانية" (بديلاً عن الكنيسة) و"نظام الدولة المركزية" (بديلاً عن نظام الإمبراطورية والإقطاع)، وكلا الأمرين –العلمانية ونظام الدولة المركزية – تابع للآخر، فلا بد لأي مجتمع من قيم حاكمة ومبادئ عليا، ثم لا بد لهذه القيم والمبادئ من أناس يطبقونها ويحكمون بها، فكانت العلمانية المبدأ، وكان نظام الدولة المركزية نموذج التطبيق.

فأين يكمن الضرر؟

يكمن في أن انتهاء وجود الإله من حياة البشر قد جعلهم عبيداً لأنفسهم وشهواتهم وأهوائهم، لا يؤمنون إلا بما ينفع ويضر بشكل مباشر واضح، وبهذا انتفى مبدأ الأخلاق والقيم العليا والمُثُل العظيمة التي انزوت مع الدين في جنبات الكنائس، وصارت اختياراً شخصياً بحتاً؛ ولهذا أنتج الغرب كل البشائع الإنسانية التي جعلته "أكبر مجرم في التاريخ"[1]، "وحينما سئل فاكيلاف هافل (رئيس جمهورية التشيك) عن الأسباب التي أدت إلى هذا الوضع، أجاب قائلاً: هذا الوضع له علاقة ما بأننا نعيش في أول حضارة ملحدة في التاريخ البشري، فلم يعد الناس يحترمون ما يُدعى القيم الميتافيزيقية العليا، والتي تمثل شيئاً أعلى مرتبة منهم، شيئاً مفعماً بالأسرار، وأنا لا أتحدث هنا بالضرورة عن إله شخصي، إذ إنني أشير إلى أي شيء مطلق ومتجاوز، هذه الاعتبارات الأساسية كانت تمثل دعامة للناس وأُفُقاً لهم، لكنها فقدت الآن، وتكمن المفارقة في أننا بفقداننا إياها نفقد سيطرتنا على المدنية التي أصبحت تسير دون تحكم من جانبنا، فحينما أعلنت الإنسانية أنها الحاكم الأعلى للعالم، في هذه اللحظة نفسها، بدأ العالم يفقد بُعْدَه الإنساني"[2].

وهنا تحققت نبوءة توماس هوبز الذي "أعلن أن حالة الطبيعة (أي حالة الإنسان بعد انسحاب الإله من الكون)، هي حالة من حرب الجميع ضد الجميع؛ فالإنسان ذئب لأخيه الإنسان، وسيتم التعاقد الاجتماعي بين البشر لا بسبب فطرة خَيِّرة فيهم، وإنما من فرط خوفهم وبسبب حب البقاء، فيُنَصِّبون الدولة التنين حاكماً عليهم حتى يمكنهم أن يحققوا ولو قدراً ضئيلاً من الطمأنينة"[3].

وهنا صارت الدولة في مكان الإله، بل هي – كما يقول هيجل – "الحلول الإلهي على الأرض"، وسيادتها هي السلطة المطلقة، وعلى الأفراد أن يخضعوا لهذه السلطة التي تحدد من الداخل إرادة الأفراد[4].

وصارت كفاءة الدولة تقاس بمدى قدرتها على السيطرة التامة على كافة ما يحدث على أرضها من أنشطة، ولم يختلف هذا بين مذهب ومذهب في الفكر الغربي؛ "فالسيطرة على السكان مهمة أساسية لأي سلطة حكومية تهيمن عليها جماعات المصلحة، وعلى الرغم من أن القوتين الدوليتين في زمن الحرب الباردة (أمريكا والاتحاد السوفييتي) كانتا على طرفي نقيض؛ فإنهما اشتركتا في قوة السلطة المحلية عند تعاملهما مع قضية السيطرة على شعبيهما"[5].

وحين حلّت الدولة محل الإله، لم يكن لها لا علم الإله ولا رحمته ولا ارتفاعه عن النقائص، وحين حلَّ السياسيون والنخبة محل العلماء والمفتين، لم يكن لهم لا تقوى العلماء ولا خشيتهم، بل دخل البشر في حكم البشر، فاستعبد البشرُ البشرَ فأذلوهم وقهروهم، غير أن الأشكال تغيّرت فصارت أكثر خداعاً وتلويناً، وأشهر نمطين لهذا الخداع: الشيوعية والرأسمالية.

فأما الشيوعية فقد ادَّعت أنها سبيل العدالة الاجتماعية وضد الإقطاعيين والملوك المستبدين ولمنع احتكار السلع، ثم

(١) رجاء جارودي: وعود الإسلام، ترجمة: د. طوقان قرقوط، دار الرقي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م، ص ١٩.

(٢) د. عبد الوهاب المسيري: رحلتي الفكرية، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الرابعة، فبراير ٢٠٠٩م، ص ٢١٩.

(٣) السابق.

(٤) جان بيار لوفيفر وبيار ماشيري: هيجل والمجتمع، ترجمة: منصور القاضي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م، ص ٧٢ – ٧٣. وفيما يبدو من باقي كلام هيجل فإنه لم يتوقع وجود استبداد جديد من قِبَل الدولة، فلقد كان من المفتونين بالثورة الفرنسية ويحسب أنها شيء مثل «نهاية التاريخ».

(٥) ناعوم تشومسكي: النظام العالمي، ترجمة: عاطف محمد عبد الحميد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠م، ص ٥.

كان تطبيقها أعنف استبداداً من كل الملوك وأشرس من كل الإقطاعيين، ولم تتحقق في ظلالها إلا العدالة في الفقر، حيث صارت الشعوب فقيرة لا تجد الكفاف، فيما تركزت الثروة في يد "الرفاق" الذين يحكمون باسم الشعب، ويقيمون المذابح والسجون باسم الشعب، ويتصرفون في مال الشعب بأهوائهم زاعمين أنه "إرادة الشعب"، وقد طُوِيت صفحة الشيوعية مخلِّفة وراءها سجلاً من المذابح والحروب والفقر العام والفساد الكبير.

وأما الرأسمالية فقد ادَّعت أنها ضد الاحتكار الاقتصادي وضد الاستبداد السياسي، لكنها أنتجت أكبر المحتكرين ورعت ودعمت أكابر المستبدين، وهي تسيطر على الشعب عبر الإعلام والأموال؛ يظن الناس أنهم يختارون رؤساءهم وأنهم يغيّرونهم كل فترة، فيما تظل الحقيقة أنهم يدورون في مسرح يتحكم فيه رجال الأعمال الذين يتحكمون في الإعلام وفي الاقتصاد، فبالإعلام يخدعون الجماهير ويسوقون رجالهم للحكم، وبه وبالاقتصاد يتحكمون في السياسيين والبرلمانيين وصناع القرار[1].

حين جاءت «العلمانية» و«الدولة المركزية» إلينا

هذه الأزمة القائمة في الغرب حين زُرِعت في بلادنا كانت أسوأ وأشد فتكاً وتدميراً!

فالعلمانية كانت رغبة شعبية ونتيجة طبيعية لانحرافات الكنيسة، ولم تكن كذلك في بلادنا، ولذا غُرِست بالقهر والاستبداد، وكان لا بد من وجود حكومات عسكرية تذيق الشعوب الويلات كي تتمكن من ترسيخ أمرها، وهذا الترسيخ لا يتم إلا بنظام الدولة المركزية الذي ينزع عن الأمة فاعليتها وترابطها وتماسكها ومصادر قوتها.

أثمر نظام الدولة المركزية في بلادنا أسوأ الثمر، فقد سيطرت الدولة على الأوقاف الخيرية التي هي تمويل الأمة لنفسها وحضارتها، وضربت الدولة نظام القبائل والعصبيات لحساب النزعة الفردية التي تجعل العلاقة قائمة بين الدولة والفرد على نحو ما هي بين الإله والعبد، ولنضرب مثالاً على ذلك بمحمد علي الكبير، أول من أدخل العلمانية والدولة المركزية في بلاد المسلمين.

لقد كسر محمد علي كافة ما يجعل المصريين أقواماً ليكونوا بين يديه أفراداً على نحو ما تطمح إليه الدولة المركزية من أن ترى الناس أفراداً مواطنين لا تجمعات أو عائلات أو عشائر، ثم نزع منهم كل ما أمكنه من الأوقاف لتكون مصادر الأموال في يده، فيمنح ويمنع؛ فتذل له الرقاب جميعاً.

وحين يؤرخ الشيخ محمد عبده لآثار محمد علي نراه يقول: "أخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الأحزاب على إعدام كل رأس من خصومه، ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولاً وأعانه على الخصم الزائل فيمحقه، وهكذا حتى إذا سُحقت الأحزاب القوية وجَّه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة فلم يدَع منها رأساً يستتر فيه ضمير (أنا)، واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلاً لجمع السلاح من الأهلين، وتكرر ذلك منه مراراً حتى فسد بأس الأهالي وزالت ملكة الشجاعة منهم وأجهز على ما بقي في البلاد من حياة في أنفُس بعض أفرادها، فلم يبقِ في البلاد رأساً يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه أو نفاه مع بقية بلده إلى السودان فهلك فيه. أخذ يرفع الأسافل ويعليهم في البلاد والقرى كأنه كان يحن لشبه فيه ورثه على أصله الكريم، حتى انحط الكرام وساد اللئام ولم يُبقِ في البلاد إلا آلات له يستعملها في جباية الأموال وجمع العساكر بأي طريقة وعلى أي وجه، فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطبيعية من رأي وعزيمة واستقلال نفس ليصيّر البلاد المصرية جميعها إقطاعاً واحداً له ولأولاده".. وفي جنايته على الأوقاف يقول الشيخ محمد عبده "نعم: أخذ ما كان للمساجد من الرزق وأبدلها بشيء من النقد يسمى فائض رزنامة لا يساوي جزءاً من الألف من إيراده. وأخذ من أوقاف الجامع الأزهر ما لو بقي له اليوم (ربيع الأول ١٣٢٠ = يونيو ١٩٠٢)، لكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه في السنة، وقرر له بدل ذلك ما يساوي نحو أربعة آلاف جنيه في السنة"[2].

إنها المتلازمة الطبيعية بين العلمانية ونظام الدولة المركزية، حيث لا يُسمح بأن تكون ثمة قوة في البلاد إلا قوة الدولة، ولقد كان الغرب آنئذ يبدو عملاقاً كبيراً ساحراً يغري بالاقتداء به كل غافل عن كوامن القوة والنهضة في النظام الإسلامي، فكيف برجل عسكري ألباني لم يتكلم العربية حتى مات، لقد كان أجهل من أن يقتبس اقتباساً واعياً، وإنما

(١) طالع في تفصيل هذا كتاب «السيطرة الصامتة: الرأسمالية العالمية وموت الديمقراطية» للألمانية نورينا هيرتس، من إصدارات عالم المعرفة، الكويت، يناير ٢٠٠٧م.

(٢) محمد عبده: آثار محمد علي في مصر، مجلة المنار ٥/١٧٥ وما بعدها، وانظر: الأعمال الكاملة للأستاذ الإمام، تحقيق: د. محمد عمارة، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ= ١٩٩٣م، ١/٨٥١.

جرت عملية صبغ مصـــر – كما يقول أرنولد توينبي – بالصبغة الغربية "أكثر شمولاً من أي محاولة سعى إليها أو أنجزها السلاطين الأتراك"[1].

لقد كانت البداية باستيلاء محمد علي على ستمائة ألـــف فدان من الأرض الموقوفة، وهي تمثل ثلث الأرض المزروعـــة في مصر والبالغة في ذلـــك الوقت ٢ مليون من الفداديـــن[2]، ثم تطور الأمر عبـــر الزمان – بفعل الاســـتبداد ثم الاحتلال ثم الاستبداد – إلى أن "انقطع الوقف بشـــطريه: الأهلي والخيـــري؛ فالأهلي مقطوع بحكـــم القانون (الصـــادر ١٩٥٣: أي فـــي عهد عبد الناصـــر)، والخيري قُطع لما لوحـــظ من الانقطاع بين ذرية الواقف والوقف، والتصرف المطلق لوزارة الأوقاف في إدارتـــه، بل لوحظ أن الذين وقفـــوا وكان لهم حق الرجوع، رجع كثيرون منهم عن أوقافهم"[3].

ووصل الحـــال بالأمة إلى أن تحكّمت الدولة في المساجد ونظم التعليم ومنافذ الثقافة، وصار المواطن لا يســـتطيع أن يدرس أو يتعلم أو يقرأ أو يسمع إلا ما تريده الدولة أو تســـمح به، وهو لا يســـتطيع أن يمارس نشـــاطاً ولو خيرياً إلا إذا ســـمحت الدولة، وصـــار العلماء في يد الدولـــة؛ إن نطقوا بما أرادت أعطتهـــم الرواتب والمناصب، وإلا أعطتهم المعتقلات والمشانق، ولا يستطيع الخطيب أن يخطب في الناس ولا أن يدرّسهم ولا أن يقرئهم القرآن إلا بعد تصريح من الدولة، وصار الفقراء رهناً لدى الدولة؛ إن كانت صالحة أســـعفتهم، وإن كانت فاسدة أهلكتهم، وصار طلاب العلم أســـرى لدى الدولـــة؛ إن كانت حريصة على العلم مهدت ســـبيله وخفضت تكاليفه وأنفقت عليه، وإن كانت غير ذلك أفسدتهم... وهكذا صارت وجـــوه الحياة جميعها. فإذا اســـتحضرنا حقيقة أن الذي حكمنا في عصور مـــا بعد الاحتلال كان على مذهـــب الغرب؛ عرفنا أي مصيبة نزلت ببلادنا على يد أناس من بني جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا.

(١) أرنولد توينبي: مختصر دراسة التاريخ، ترجمة: فؤاد محمد شبل، المركز القومي للترجمة، ٢٠١١م، ٣/٣١٣.

(٢) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت، ٣/٣٤٤.

(٣) تابع تطور قوانين الوقف في: محمد أبو زهرة: محاضرات في الوقف، معهد الدراسات العربية العالمية، ١٩٥٩م.. والاقتباس في المتن من ص ٤٦.

الأوقاف تهديد للعلمانية والتبعية الغربية

لم يكن محمد علي أول من حاول الســـيطرة على الأوقاف، فقد حاول ذلك بعض الحـــكام قبله مثل الظاهر بيبرس – في النصف الثاني من القرن الســـابع الهجري، وقت حاجته للمزيد من النفقة لمواجهة المغول والصليبيين –، فوقف له الإمام النووي ومعه جمع من العلماء حتى ردَّه عن ذلك.. وحاولها بعدئذ الظاهر برقوق – في أواخر القرن التاسع الهجري، ليستعيد لبيت المال الخاوي ما احتال الأمراء على وقفه تحصيناً لأموالهم –، فوقف له سراج الدين البلقيني وبرهان الدين بن جماعة وأكمل الدين، وكان أقصى ما ســـمحوا له ما وُقِف على الأبناء ومنعوا عنه ما وُقِف للخير العام.. وحاول ذلـــك والي مصر العثماني إبراهيم باشـــا القبودان – في القرن الثاني عشـــر الهجري، وبالتحديد (١١٢١هـــ = ١٧٠٩م) –، فتصدى له علمـــاء المذاهب الأربعة، فبقيت الأوقاف على ما هي عليه، بل عجز الســـلطان العثماني نفســـه بعد ذلك بربع قرن (١١٤٨هـ = ١٧٣٥م) عن مثل ذلك. ولئن أفلح الأمراء في التحايل على الاستيلاء على أموال الوقف، إلا أن ذلك من الفســـاد الإجرائي الذي كان يمكن إصلاحه في كل وقت[4].

لكن الذي فشل فيه السلاطين والأمراء الكبار المجاهدون نجح فيه فيما بعد شراذم العســـكر الذين وصلوا للحكم عبر انقلابات – خططت لهـــا ودعمتها مخابرات دول الاحتلال – ولم يحققوا لأمتهم شيئاً ذا بال، ذلك أن المظلة العلمانية ونظام الدولة المركزية نزعت من الأمة كل قوة لتضعها في يد الحاكم، ولم يعد ثمة علماء يســـتطيعون المواجهة بعد أن صاروا أجزاء مـــن آلة الدولة، كما لم تعد ثمة قوى اجتماعية بعد أن صُفّيت عشائر الدولة أو سكتت رغباً أو رهباً.

ومن هنا تحكّمـــت القوى العالمية في الأمة الإســـلامية عبر التحكـــم في أنظمة الحكم، واختفت "الأمـــة" من معادلة الصراع، فنزل بنا من النكبات ما هو معروف مشهور طوال القرنين الماضيين.

إن الصراع الإسلامي الغربي متوقف في أهم وجوهه على قدرة الأمة على اســـتعادة فاعليتها مرة أخرى، ونظام الوقف واحد من أهم هذه الوسائل التي تعيد الأمة إلى ساحة الفعل، وتعيد تمكينها من ثرواتها وتمويل نهضتها الحضارية.

(٤) محمد أبو زهرة: محاضرات في الوقف ص٢٠ وما بعدها؛ د. محمد عمارة: هل الإسلام هو الحل؟ دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م، ص ١٢١ – ١٢٢.

الشيخ بدر الراجحي في حوار مع «البيان»:

أنظمة الأوقاف في المملكة «متأخرة».. وتأسيس هيئة لها سيقضي على العقبات الموجودة

أجرى الحوار: أحمد أبو دقة

يعيش العمل الخيري في المملكة العربية السعودية تجربة متميّزة من خلال تطويره ومحاولة احتوائه ضمن عمل استثماري يؤثر إيجاباً من حيث عدد المستفيدين منه، وكذلك جودة الأعمال المقدمة لمحتاجيها. ولا يشمل الوقف فقط إطعام الفقراء والمساكين، بل إنه تخطى ذلك ليصل إلى تشييد الفنادق والشقق السكنية وبناء محطات تحلية المياه وتمويل البرامج التعليمية واستثمار الأراضي الزراعية ومشاريع بلغت قيمتها مئات الملايين من الريالات؛ وكل ذلك يسهم بشكل واضح في التنمية المجتمعية ويعزز من التكافل الاجتماعي داخل المجتمع المسلم، إضافة إلى دوره في تعزيز اقتصاد البلاد. وفي هذا السياق حاورت مجلة البيان الشيخ بدر الراجحي، رئيس لجنة الأوقاف في الغرفة التجارية الصناعية بالرياض، ورئيس مجلس نظار أوقاف الشيخ محمد بن عبد العزيز الراجحي؛ حول عملية التطوير التي شهدتها الأوقاف الخيرية في السعودية، والطموحات المستقبلية للقائمين عليها، وكان الحوار التالي:

البيان: مـا أبـرز التحوّلات التي مـرّ بها الوقف خلال مسـيرته التاريخية الطويلة؟

البدايـــة كانت من الدعم الحكومي في حماية هذه الأوقاف من خلال عـــدم التعدي عليها، وتغيير الثقافـــة والفكر والبُعد الاستراتيجي في العمل الخيري، ومن ثم سحب التوجه للأوقاف، خصوصاً الجهات الخيرية التي بدأت تنادي بتأســـيس أوقاف لها. وأكثر شـــيء نفع الأوقاف برأيي هو أحداث ١١ ســـبتمبر، ســـبحان الله ربَّ ضارة نافعة. لا شـــك أن أحداث ١١ سبتمبر أضرّت كثيراً العمل الإسلامي، لكنها قد تكون نفعت، لكن النفع لا نراه بشكل واضح. في السعودية بعد الأحداث أصبحت الناس تخشـــى من دعم الجهات الخيرية والمؤسســـات أو الأشخاص، ومن ثم تراجع الدعم بســـبب التخوّف مـــن العمل «الإرهابي»، وكذلك توجيهات الدولة السعودية بعدم تقديم الدعم لأشخاص، فبالتالـــي الجهات الخيرية تأثرت فـــي مواردها المالية، فبدأت حينها التفكير في إنشاء أوقاف تحمي بها مواردها المالية، وبدأ القائمون عليها يقنعون المستثمرين والمتبرعين بدعم إنشاء هذه الأوقاف.

أضف إلى ذلك المبادرات الخيرية من كبار تجار المملكة في إنشاء عدد من الأوقاف، وهذا الأمر حرّك شيئاً كبيراً في نفوس التجار والمســـتثمرين، وصار هناك تنافـــس بينهم فيه، وبدأت تظهـــر أوقاف التجار وأنشـــطتها إعلامياً، وبالتالي أصبحت بصمة الأوقاف واضحة بشكل جيد. والحمد لله تطمين الدولة بأنـــه لا يوجد تعدٍّ على الأوقاف ســـاعد كثيراً على هذا الأمر؛ لأن ثقافة التخوّف على الوقف الإســـلامي سادت وانتشرت بين الناس قبل تأسيس الحكومة السعودية وبعد الحكم العثماني، ما أدى إلى زهدهم في الوقف.

البيان: إلى أي مدى ترى تفاعل رجال الأعمال، خاصة الشـباب منهم، مع الوقف؟

الشباب في تفاعل كبير جداً، وأنا أعرف العديد منهم ممن لم يتجاوز عمرهم ٣٥ ســـنة، أنشـــؤوا أوقافاً بحجم كبير جداً؛ حينما وضعت نماذج وصيغ للأوقاف بطريقة مغرية.. فالشخص إذا أراد أن يوقف شـــيئاً وتوافرت له صيغة تمكّنه من إدارة هذا الوقف حتى مماتـــه، أو أنه إذا مُنح أن يتصرف في غلة الوقف متى شاء لصالحه؛ فهو بذلك سيشعر بالإغراء بدلاً من أن يكتب وصية بوقف ما.

البيان: مـا مدى رضاك عن الوضع الحالـي للأوقاف من خلال إدارتها وتنميتها؟

من وجهة نظري، لا يمكن لأحد أن يرضى في حياتنا الدنيا؛ لأن الذي يرضى معناه أنه لا يمتلك طموحاً وقدرة على التطوير. وما أعتقده أنا شـــخصياً أننا الآن - فـــي المملكة - بدأنا بفتح كتاب اســـمه «كتاب الأوقاف»؛ لأن حجـــم الأوقاف التي أوقفت لا تقارن بحجم اســـتثمارات البلد.. لكن أنا ســـعيد بالتصعيد الإعلامـــي حـــول موضوع الأوقـــاف، وأصبحـــت عندنا لجان ومؤتمرات ولقاءات.. لكن أعود وأكرر لنكن منطقيين، ثرواتنا لا تقارن بالأوقاف، نحن لم نصل إلى نسبة ١٠٪ من حجم الأوقاف التـــي من المفترض أن تكون لدينا، وعندما تقارن الدول الغربية، وخصوصاً أمريكا، بالسعودية، تجد أن الأوقاف لديهم أكثر منا، وهي لغير المســـلمين. ومن هنا نحن مقصرون جداً.. وفي العهد الإسلامي السابق كانت الأوقاف تدعم الدولة، فهل أوقافنا الآن تستطيع أن تدعم الدولة؟!

هـــذه المقابلة جزء من زراعة ثقافة الأوقاف وفكر الأوقاف، بحكم أنني رئيس لجنة الأوقاف في الغرفة التجارية، والتي من أهم أهدافها زرع التوعيـــة بالأوقاف.. أنا وأنت نفهم الأوقاف، لكن إذا خرجنا للشـــارع نجد الكثير لا يفقه معناها وأهميتها، وحالياً نســـعى للتنســـيق مع وزارة التعليـــم لإدراج دروس حول الوقف ونوعه في المراحل الثانوية والمتوسطة والجامعية، فالجيل الجديد «أمل المستقبل» يجب أن نزرع فيه ثقافة الوقف.

الأوقـــاف هي جـــزء من القطـــاع الثالث في قطـــاع المال والأعمال، فعندنا القطـــاع الحكومي والقطاع الخاص والقطاع الثالـــث هو القطاع الخيـــري، والوقف هو أكبر ســـند للقطاع الخيـــري؛ فلما «بل جيتس» أوقف جزءاً من أمواله للمجتمع كان يعرف دوره في المجتمع ونفعه له.

أرى أن لدينـــا قصوراً كبيراً، ســـواء في التوعية أو التنظيم لهذه الأوقاف وإدارتها باحترافية، فلا يوجد لدينا إلا شيء نادر وقليـــل، وإذا ركزت كذلك على محـــور الأنظمة تجدها أنظمة قديمة جداً وضعت في زمن كانت الســـعودية فيه شيئاً لا يذكر

في الأوقاف.. الأنظمة الموجودة لا تتوافق مع الموجود.

وزير التجارة والصناعة أقر مؤخراً دراسة تأسيس شركات وقفية في وزارة التجارة، فستكون هناك شركات مسؤولية محدودة، وأخرى تضامنية، وشركات مساهمة، والشركة المساهمة ليست مثل الشركة الخاصة، وعلى سبيل المثال: فإن الشركات الوقفية ستعفى من الزكاة، وستعفى من الرسوم، «أنا شركة وقفية وعندي عمال، لماذا أدفع رسوم ٢٤٠٠ ريال؟!».

المشروع الآن بدأ، وعلى وشك ترسيته على مكتب استشاري لدراسة تأسيس هذا النوع من الشركات من خلال خبرات عالمية. الآن عندنا مشروع يدرس في مجلس الشورى وهو «هيئة الأوقاف»، وهذا مشروع جديد يدلّل على أننا في باكورة الإنتاج.

البيان: هناك ملامح لوجود هيئة عامة للأوقاف، ترى ما طموحات وتطلعات الواقفين من هذه الهيئة؟ ألا تعتقد أن تخضع هذه الهيئة لسيطرة الدولة؟

هذا غير صحيح، وهو ما يخوّف الكثير من الناس.. فكرة إنشاء هيئة للأوقاف مثل إنشاء هيئة سوق المال وهيئة المدن الصناعية.. لماذا تنشئ هيئة المدن الصناعية وعندك وزارة الصناعة؟! الهدف هو تحرّر الهيئة من الأنظمة الموجودة في بعض الوزارات، على سبيل المثال: أنت لديك نظام في وزارة الشؤون الإسلامية ونظامك يرجع مباشرة إلى نظام وزارة الخدمة المدنية، أما هيئة الأوقاف فلا ترجع في نظامها إلى الوزارة. الدولة السعودية رأت أن هذه الهيئات مخرج لكسر المركزية وليكون العمل مرناً، وسيكون للهيئة نظام مستقل وخاص بها، فهي تستطيع توظيف الموظفين ووضع نظام رواتب خاص بها، كما ستكون مستقلة ومرتبطة بالمقام السامي مباشرة.

البيان: هل هي خطوة تمهيدية لفصل الأوقاف عن وزارة الشؤون الإسلامية؟

أحسنت.. هي خطوة ستكون بهذا الاتجاه إلى حد ما. الآن الدولة تملك أوقافاً كثيرة جداً، فهناك أناس أوقفوا في زمن سابق ولم يضعوا نظّاراً، والدولة الآن ملزمة بإدارة هذه الأوقاف. كما لديك أوقاف الناظر عليها تغيّرت عدالته أو توفي أو غير كفء لإدارتها، ولديك أوقاف مهملة وغير معروفة، وبالتالي فإن الدولة ترعى هذه الأوقاف. وزارة الشؤون الإسلامية لا تستطيع العمل بديناميكية من خلال نظامها الحالي؛ لأنها تخضع لنظام معين، فهي لا تستطيع تعيين موظفين جدد، أما الهيئة فهي تعمل وكأنها شركة قطاع خاص لها مجلس إدارة مكوّن من فريق منهم موقفون ورجال أعمال وأعضاء من الدولة ووزارة العدل، ولديها مدير ورئيس يُحاسَب من مجلس الإدارة، وبالتالي سيكون القرار سريعاً وسهلاً، وفي حال اعتمادها ستكون نقلة كبيرة للأوقاف، وأهم أهدافها متابعة أوقاف الدولة الموجودة في كل مكان، وتنظيمها، وترتيبها، وتأسيس استثماراتها، وتعين محاسب قانوني عليها، وغيرها من الأمور.

مجلس الشورى يحاول التدقيق والمراجعة بحيث لا يكون هناك ضرر أو تخوف من الموقفين، ونحن في لجنة الأوقاف شاركنا مجلس الشورى تدقيقه ومراجعته وطرحنا عليه النقاط والملاحظات في النظام المعدّ لهيئة الأوقاف، ووجدنا تعاوناً أدى إلى تعديل بعض الأنظمة، وجارٍ الآن تعديل بعض الأشياء قبل الرفع للمقام السامي.

تجدر الإشارة هنا إلى أننا لا ننشئ شيئاً جديداً، فهذا موجود في دول عدة، والأوقاف في الفترة القادمة بحاجة لهيئة تدفعها لإنجاز أشياء جديدة وكبيرة.

البيان: هل يوجد أرقام تقريبية للمال الذي يعمل في الأوقاف الإسلامية، وما مدى تأثير الأوقاف في الاقتصاد السعودي؟

في وزارة الشؤون الإسلامية لا يوجد بيان بحجم الأوقاف الموجودة والمعلومة، اليوم هيئة الأوقاف كجزء من عملها ستقوم بعمل مخزون من المعلومات والدراسات حول الأوقاف؛ كحصرها وإعطاء المؤشرات عنها ودراستها. والنظام الإلكتروني الذي اعتمده القضاء السعودي في موضوع إصدار الصكوك الوقفية، أحد الأشياء الذي من الممكن أن يكون مركز معلومات.. لكن ما زال – من خلال خبرتي واطلاعي – حجم الأوقاف الموجودة قليلاً جداً، خصوصاً المنتجة.

الإيراد الذي يوزّع من الأوقاف قليل، فعندما تنظر إلى الجمعيات الخيرية وغيرها توقن بوجود مشكلة. أقول بشكل صريح الناس فيهم خير، لكن عندنا مشكلة توعية ومشكلة ثقافة، تجد أن الناس يخافون لو أوقفوا شيئاً من أن تستولي الدولة عليه، وهذا غير صحيح، وفي أسوء الظروف لو أخذته

الدولة أين المشكلة؟ الموقف يقدم وأجره ثبت عند الله عزّ وجل.. مصـــر كان جزء كبير من أملاكها أوقافاً، وكانت أموالها تصرف على القضاة.

مجلس الغرفـــة التجارية بالرياض في دورته الســـابقة لما تقدمت أوقاف الوالد باقتراح إنشاء لجنة الأوقاف برئاسة الشيخ عبدالرحمن الجريســـي، مباشرة وافق على إنشاء اللجنة؛ وهذه نقلة للســـعودية بأن يكون في الغرفـــة التجارية لجنة للأوقاف، وأتمنى من الإعلام أن يسلط الضوء على هذا الموضوع.

البيان: كيـف تقيّـم أداء وزارة الشـؤون الإسـلامية فـي إدارة الأوقاف؟

وزارة الشـــؤون الإســـلامية لم تتبنَّ موضوع هيئة الأوقاف إلا لمعرفتهـــا التامة بأنهـــا مقصرة فـــي إدارة الأوقاف.. وزير الشـــؤون الإســـلامية متحمس لهيئة الأوقاف، ولما دُعي لرعاية ملتقى الأوقاف الذي نظمته اللجنـــة في الغرفة التجارية العام الماضي، حضر وفتح باب النقاش وكان حريصاً على التعمق في الموضوع، لكن نظام الـــوزارة وبروتوكولاتها وروتينها يعيقها من القفز قفزات نوعية.

البيان: هـل التشـريعات والنظـم فـي المملكة تحد مـن انطلاق العمل الوقفي؟

الأوقاف تتنازع عليها عدة جهات، فأنت إذا أردت أن تنشئ وقفاً تذهب إلى القضاء، والقضاء مســـتقل عن وزارة الشـــؤون الإســـلامية والأوقاف وعن أي جهة ثانية، وإذا أردت أن تشتري وقفـــاً تذهب لوزارة العدل للشـــراء، ووزارة العدل تحتاج لأخذ إذن من القضاء.. لا نريد أن نلوم وزارة الشؤون الإسلامية على هذا العمل. مَن الجهة التي تعطل العمل الوقفي؟ جزء منه عند القضاء، فالأنظمة الموجودة في القضاء تحتاج لتطوير، أعطيك مثـــالاً على ذلك: «عندي وقف وأريد نقلـــه لمكان آخر يجب أن أذهب إلى القضاء حتى أحصـــل على إذن، وهذا يحتاج لمرحلة طويلـــة جداً، وخـــلال ذلك من الممكن أن تضيـــع عليّ الفرصة الاستثمارية!».

القضاة يرون أن هذا ليس من مصلحة الوقف، لكن هذا هو النظام؛ لأن النظام حينما وضع قبل أربعين ســـنة كانت الأوقاف قليلة، وكان الناظر عليها القاضـــي، وحتى لو وضعت نظّاراً أو اختلفـــوا أو تغيّرت عدالتهم يرجعون للقضاة حتى اليوم.. وزارة الشؤون الإسلامية لا نلومها، لكن نلومها في أوقاف الدولة التي عندها أو الأوقاف المهملة والموجودة.

أنا ضد كلمة تعطيل الأوقاف أو هناك عوائق في الأوقاف، لماذا؟ أنا رأيت العديد من التجار والشباب يريدون الوقف، وأول ما يسمعون أحداً يقول الأوقاف معطلة وكلها مشاكل، تراجعوا.. لدينا أوقاف للوالد وهي تعمل منذ عشرين عاماً بانتظام ومثالية وحرفية، صحيح العوائق الروتينية تؤثر، لكن العمل مبارك، وكل جهة لديها إشـــكالية في جميع القطاعات؛ لذلك أعتبر أن هيئة الأوقاف تأخرت كثيراً، والعمل الوقفي بأمس الحاجة إليها.

البيان: مـن خـلال الأوقـاف التـي تشـرفون عليهـا أو ترأسـون مجالـس نظارتها، كيف تقيّمون التجربـة الوقفية في جانبها الممارسي؟

الأوقـــاف مثـــل القطاع الخـــاص، لكن الثاني يـــوزع على المساهمين أو الملاك، والأول يوزع على الفقراء والمحتاجين.. لو ثبتنا هذا الفكر مثلما ثبّته الغرب سننطلق انطلاقة غير طبيعية؛ لأن الأنظمة المتطورة هي نظام الشـــركات والمؤسسات الخاصة، والأوقـــاف أنظمتها متأخرة، ولو لحقـــت الركب وأصبحت مثل القطاع الخاص في طريقة مجلس إدارتها؛ ستجد نقلات نوعية.

البيان: تعـدّ أسـرتكم الكريمة من الأسـر التي لهـا مبادرات في مجـال الأوقـاف، هـل مـن إطلالة على هـذه الممارسـة وبعض الإشراقات فيها؟

سأتكلم عن أوقاف الوالد محمد الراجحي فقط لأنني أرأس نظارتها، ولأن أوقاف الراجحي باب واسع و«الرواجح» كثير منهم موقفون.. الوالد حينما أســـس الوقف أسسه بشكل استراتيجي ووزعه على عدة اســـتثمارات، لم تكن عمائر أو فنادق أو أسهماً فقـــط، وهذا يطلق عليه «اســـتراتيجية توزيع المخاطر»، بمعنى أنه - لا ســـمح الله - انهار العقار توجد أســـهم وغيرها. الأمر الآخر: أهم شـــيء في الوقف عقد التأسيس «الصك الوقفي»، وهناك أربعة أركان للوقف:

الركن الأول: صياغة نموذج الوقف (صك الوقف)، فلو كان

صك الوقفية مختلاً سيختل الوقف، وذلك ممكن بعد خمس أو عشر سنين، أو أكثر، «كأن تؤسس قاعدة مائلة».. وأنا أعددت نموذج صك للوقفية، ومن أراد أن يوقف يأخذ هذه الصياغة، فهي نتاج خبرة سنوات، وحينما فكر الوالد بالوقف لم تكن هذه الصياغة موجودة، وكان الناس ليس لديهم فكر عن الوقف والمحامون قليلين.

الركن الثاني: وهو نوع الوقف «مزارع أو عقار أو غيره»، وأنا أعرف أناساً لديهم أراض كبيرة والموقف اشترط ألا تباع، «كيف أخططها وأنا ليس عندي مال؟!».. فيجب ألا تكون أرضاً فارغة أو عملاً تشغيلياً معقداً؛ لأن المخاطر ستكون عالية، والناظر ليس كصاحب الشأن، وأخف إشكالية في العقار المؤجر أو الأسهم توقِف الأسهم، عندها لا يكون لديك تشغيل ولا إيراد سنوي تتصرف فيه.. هذه الثقافة ضحلة بشكل كبير جداً، ومشكلتنا في السعودية أن الأسهم وصلت لمستوى جنوني ثم انهارت للطبيعي، والآن وصلت إلى مستوى مغرٍ، لكن ما زالت الثقافة والفكر ترفض فكرة الأسهم.

الركن الثالث: نوعية مجلس النظار واختيارهم، فإذا كان لديك صيغة جيدة، وتمتلك وقفاً جيداً، وكان مجلس النظار ضعيفاً أو غير أمين؛ سيضيع الوقف. ومجلس النظار يجب أن يكون احترافياً ولا يشترط أن يكون من المشايخ، ويمكن أن يكون منوعاً.

الركن الرابع: وهو الرئيس التنفيذي للوقف، بمعنى أنه لو كان لديك مجلس نظار جيد وعقد تأسيس جيد، ولديك إشكالية في مدير الوقف؛ ستتعطل الأعمال. أوقاف الوالد مجلس النظار فيها رسم خطة استراتيجية بعمل مؤسسي منظم، وتم تطبيق نظام الحوكمة، بحيث إن مجلس النظار لا يشارك في الإدارة، ويجب إحضار مدير مستقل تكون لديه خبرة في إدارة الشركات التجارية والاستثمارية، بحيث يدير العمل استثمارياً بقبعة خيرية.. شكلنا لجنة اسمها لجنة المراجعة الداخلية مهمتها مراقبة أعمال الإدارة التنفيذية، ومرجعيتها للمجلس.. وشكلنا لجنة أخرى اسمها لجنة الاستثمار، ولجنة اسمها لجنة المكافآت والترشيحات. وكان مجلس الإدارة عند تأسيس الوقف مكوناً من خمسة أشخاص، وهم لهم أن يضيفوا ثلاثة أعضاء كل ثلاث سنوات، ويتم التجديد.

أما التوزيع الجغرافي للوقف فكان لدى الوالد منذ عشرين سنة نقطة جيدة، وهي أن يتم استثمار ربع الغلة، فلا بد من أن تضع جزءاً من الغلة في الاستثمار؛ لأنه مع مرور الوقت إذا لم يزد حجم الوقت سيتقلص.. نحن لدينا ٢٥ ٪ من الغلة استثمارات، وبهذا علمنا بماذا يمكن أن نستثمر خلال العشر سنوات القادمة.

البيان: هناك تجارب وممارسات متميّزة محلية وإقليمية وعالمية.. من خلال اطلاعك ما التجارب التي ترى أنها جديرة بالاطلاع والعرض؟

اطّلعت في العالم الخارجي على بعض التجارب البسيطة، ودعنا لا نبالغ بالغرب وننبهر بهم، فلو طبقنا النظام التجاري الموجود عالمياً في الموضوع الخيري مثل أي منظمة تجارية؛ سنبدع فيه.

الغرفة التجارية ستنظم خطة لعمل تجربة إما دولية أو محلية، والغرفة التجارية قريباً إن شاء الله ستعلن عن تجارب، وتجربة أوقاف الوالد رائعة، وأدعو الجميع للاطلاع عليها، وأي شخص يريد الاطلاع عليها نحن مستعدون لذلك، وسنعدّ نموذجاً لعرضه من خلال الغرفة التجارية.

البيان: مصارف الأوقاف تتعدّد وتتنوع في أشكالها وحجمها.. ترى ما الأثر الذي أحدثته الأوقاف في تنمية المجتمع؟

حتى الآن الأوقاف صغيرة جداً مقارنة بالمجتمع، لكنها تبقى ذراعاً خادمة للمجتمع بشكل كبير جداً، ولو نشط الوقف بشكل قوي وسوقت له الدولة في الإعلام ومن خلال إجراءاتها؛ سيكون الساندَ لها وللمجتمع؛ لأن المجتمع فيه حب للصحوة وللخير، وعلينا تشجيع الأوقاف من خلال تكريم الموقفين وتقديرهم وشكرهم على هذا العمل، كما يجب علينا زرع أن الأوقاف هي التي تخدم أبناء الموقفين أنفسهم وأحفادهم عند الأجيال القادمة.

الوالد أنشأ أكثر من ٢٠ وقفاً تنوَّعت بين وقف للذرية، ووقف للفقراء، ووقف للزواج، ووقف للمساجد، ووقف لتحفيظ القرآن الكريم. وعلى كل حال الأوقاف تتبع هوى الموقف، ففي الغرب تجد أوقافاً للكلاب، ووقفاً للحديقة.. وعلينا ترك الأمر للموقف، لكن هذا لا يمنعنا من محاولة إقناعه بأن يكون الوقف مرناً.. الغرب سبقنا في الأوقاف رغم أننا نحن المسلمين أول من أسسه!

[المسلمون.. والعالم]

حقيقة الموقف الأمريكي من الثورة السورية
علي حسين باكير

سورية.. إلى أين؟
هيثم بن محمد الكناني

هل يمكن للجهاد في سورية أن يحقق ما لم يحققه في العراق؟
طلحة المسير

حوار مع الشيخ عبد الهادي أوانج رئيس الحزب الإسلامي الماليزي
حاوره: فيصل بن سعيد الحذيفي

مرصد الأحداث
عمرو عبد البديع

حقيقة الموقف الأمريكي من الثورة السورية

■ علي حسين باكير
@AliBakeer

توقّف كثيرون عند ماهيّة الاجتماع الذي عُقد بين وزير الخارجيّة الأمريكي جون كيري أثناء زيارته العاصمة الروسيّة موسكو، وبين الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، بحضور وزير الخارجية سيرجي لافروف. وقد خرج كيري من هذا اللقاء بموقف قريب من الموقف الروسي وحرص على أن يظهر ذلك بشكل واضح في تصريحاته، ومنها "إننا نشاطر الروسي وجهة النظر تجاه سورية"، و"كلانا يريد أن تستقر الأمور في سورية وأن تكون خالية من الراديكاليّة ومن المشاكل التي من شأنها أن تؤثّر على المنطقة برمّتها"، و"كلانا وقّع اتفاق جينيف حول سورية، وهذا يعني أنّه توجد أرضيّة مشتركة".

وكانت نتيجة هذا الاجتماع أن أعلن الطرفان اتفاقهما على حثّ الحكومة السورية ومجموعات المعارضة على إيجاد حل سياسي للصراع، كما اتّفق الطرفان على ضرورة عقد اجتماع دولي في أقرب وقت ممكن (كان المتوقع نهاية شهر ٥) للبناء على مخرجات اجتماع جينيف بين القوى الكبرى حول الأزمة السوريّة، والذي تم في شهر ٦ من العام ٢٠١٢ بحضور كوفي أنان آنذاك.

وقد تباينت تقييمات المحللين إزاء الخطوة واللهجة الأمريكية فيما يتعلّق بالثورة السورية، فالذين كانوا يعتبرون أنّ الولايات المتّحدة تدعم الثورة السورية (ومن بين هؤلاء أبواق المعسكر الطائفي الذي يعمل تحت يافطة الممانعة ويضم كلاً من إيران والنظام السوري وحزب الله وحكومة المالكي ومن تبعهم)؛ رأوا في هذا الاجتماع تراجعاً في الموقف الأمريكي. أما أولئك الذين يعتقدون لا يعتبرون أنّ الولايات المتّحدة تدعم حقيقة الثورة السورية، فقد فسروا الأمر على أنّه جاء ليقطع الطريق على التقدّم الذي حققه الثوار المسلّحون على الأرض.

(*) باحث في منظمة البحوث الاستراتيجية الدولية (USAK) تركيا.

العناصر المؤثرة في القرار الأمريكي من سورية

والحقيقة أنّ فهم الموقف الأمريكي من الثورة السورية إنما يقتضي منّا الوقوف على ثلاثة عناصر نعتقد أنّ لها الوزن الأكبر في دفع الموقف الأمريكي إلى الأمام أو إلى الخلف، وهي:

أولاً: الدروس والعبر من غزو أفغانستان والعراق:

تلعب الخسائر الجسيمة التي مُنيت بها الولايات المتّحدة أثناء غزوها أفغانستان والعراق، دوراً كبيراً في التأثير على القرار الأمريكي إزاء أي خطوة من شأنها أن تفسّر على أنها استعداد لتدخّل محتمل في سورية أو على أنها التزام بتدخل. إذ يعتقد الكثير من صنّاع القرار الأمريكي أن قرار التدخّل الأمريكي في أفغانستان والعراق كان قراراً خاطئاً تم بناءً على معلومات خاطئة، وأنّ الولايات المتّحدة دفعت ثمناً باهظاً بسبب هذا التدخل، سياسياً واقتصادياً وعسكرياً وأمنياً، وأنّ كل تدخل عسكري هو قرار خاطئ بالضرورة، وتنسجم هذه النتيجة أيضاً مع توجهات أوباما الشخصيّة منذ مجيئه إلى البيت الأبيض وسياساته القاضية بعدم الدخول في مغامرات عسكرية خارج البلاد، إضافة إلى تقليص النفقات الدفاعيّة وانتهاج سياسة الحوار والتفاهم مع الأعضاء الفاعلين في المجتمع الدولي وتسليم جزء كبير من الأعباء الإقليميّة إلى الدول الإقليمية الفاعلة والقويّة والقادرة على تحمّل هذه الأعباء بدلاً عن الولايات المتّحدة.

ثانياً: الموقف الإسرائيلي:

غني عن القول أنّ للموقف الإسرائيلي من القضايا الإقليمية وزناً كبيراً داخل أروقة صنع القرار في الولايات المتّحدة الأمريكية، والتيار العام لدى الإسرائيليين، لا سيما تلك المرتبطة بالاستخبارات العسكرية والأمن القومي والجيش، باستثناء بعض الشخصيات المعدودة على عدد أصابع اليد الواحدة هم في غالبيتهم الساحقة مع بقاء نظام بشّار الأسد كضامن تاريخي لمصالح إسرائيل، وإن كان ولا بد أنّ يشهد الثوار تقدماً عليه، فيجب عدم دعم الثوّار عسكرياً أو مالياً، بل تقييد كل ما من شأنه أن يؤدي إلى تقويتهم في النهاية، فإن صمد الثوار في وجه الدعم المقدّم إلى الأسد من قبل إيران وحزب الله يدخل الطرفان في معادلة استنزاف وتضعف سورية ويتم تدمير الدولة من قبل الأسد وعصاباته وندخل سيناريو تقسيم سورية، وهو سيناريو جيد بالنسبة لإسرائيل في ظل محيط مكوّن من كانتونات طائفية صغيرة غير قادرة على مواجهتها، بل يشرعن وجود دولة يهودية أيضاً في ظل وجود دويلات لأقليات أخرى؛ وإن خسر الثوّار يكون الأسد قد بقي في الحكم لكنه سيكون أضعف وهو جيد في جميع الأحوال أيضاً لإسرائيل.

ثالثاً: ما يسمى "الجماعات الراديكاليّة" في التعريف الأمريكي:

الخوف مما يسمى في التعريف الأمريكي "جماعات راديكالية" أو من "الإرهابيين" عامل مهم أيضاً في التأثير على صنع القرار الأمريكي. ورغم أنّ الرئيس الأمريكي باراك أوباما انتهج سياسة مغايرة عن سلفه بوش الابن في التعامل مع هذه المسألة، إلا أنّ ذلك لا يعني أنّ هذا الموضوع سقط من الحسابات الأمريكية، إذ لا تزال الحساسيّة منه عالية جداً وهو قد يؤثر في اتخاذ أو عدم اتخاذ أي قرار في حال تبيّن أنّ لهذا العنصر أو العامل أي علاقة بالعملية التي يتم البحث فيها.

والواقع أنّ هناك ازدياداً في نسبة تظهير الجانب الديني لدى المقاتلين في سورية، جزء كبير منهم بشكل طبيعي بالفطرة وبما يعكس حقيقة الشعب السوري، وجزء آخر مفتعل ومصطنع لأغراض متعددة، وقد تمّ استغلال هذا الموضوع من قبل أطراف كُثر، سواء من قبل إسرائيل ومن قبل النظام السوري وحلفائه في حزب الله وإيران وحكومة المالكي؛ للتحريض على الثورة السورية والثوّار ودفع القوى الدوليّة، ومن بينها عناصر فاعلة داخل الولايات المتّحدة، للتشكيك بطبيعة هذه الثورة وهدفها النهائي، وهو ما أثّر بطبيعة الحال في تلقّي هذه الثورة الدعم المفترض أن تتلقّاه، كما ساهمت العديد من الأخطاء التي تنتسب إلى التيار الإسلامي من بين المقاتلين في تعزيز هذه الصورة.

تقييم العناصر في ميزان اتخاذ القرار الأمريكي من الحالة السورية

ويختلف تأثير هذه العناصر في عملية اتخاذ القرار من سورية باختلاف موقعها في هذه العملية:

العنصر الأول:

يدفع العنصر الأول الأمريكيين إلى الابتعاد عن كل ما من شأنه أن يؤدي بهم إلى تدخل عسكري بأي شكل من الأشكال أو تحت أي عنوان كان، فهم يقارنون أي نوع من أنواع التدخل بما حصل معهم في العراق، بغض النظر عن التفاصيل المختلفة تماماً، وبالتالي يصبح موقفهم بعدم التدخل موازياً في نتائجه وانعكاساته السلبية لموقفهم بالتدخل في أفغانستان والعراق، فسورية تتدمر لأنهم لا يتدخلون، ومعنى التدخل هنا ليس بالضرورة إرسال قوات عسكرية إلى سورية، وإنما في حدّه الأدنى منع روسيا وإيران من مساعدة الأسد وجعل الثوار في مواجهة النظام من دون أن يدعم أي طرف الآخر، والثوار كفيلون حينها بالإطاحة به.

كما أنّ موضوع التدخل لا يعني استجداء الخارج، وإنما يحمل واجباً أخلاقياً وقانونياً بحكم القوانين الدولية التي تمنع أن يقوم جزار بما يقوم به من مجازر إبادة جماعية وتطهير طائفي والعالم كله يتفرج دون أن يحرّك ساكناً.

الولايات المتّحدة التي قالت سابقاً إنّ استخدام الأسد للسلاح الكيماوي يعتبر خطاً أحمر وأنّها سترد على الفور حال تجاوز هذا الخط، تبيّن أنّ هذا التحذير كما غيره من التحذيرات مجرّد كلام، بل الأنكى من ذلك أخذ البعض يبحث عن ذرائع لتبرير الاستخدام، فبعضهم قال إنّ القرار باستخدام الكيماوي ربما صدر عن قيادات مركزية أخرى غير الأسد، أو ربما أنّ الاستخدام لم يكن مقصوداً وأنّه جاء نتيجة نقل هذه الأسلحة حفاظاً عليها! بل ذهب العديد من الجهات داخل الولايات المتحدة وحتى بعض الجهات الأمميّة، إلى القول بأنّ المعارضة هي من استخدم هذه الأسلحة! كل هذا من أجل التهرّب من الالتزام بما قطعوه على أنفسهم بالرد على الأسد.

العنصر الثاني:

أدّت هذه المعادلة أيضاً إلى التأثير على الموقف الأمريكي، وغني عن القول مدى تمسّك النظام الإسرائيلي ببقاء الأسد في السلطة، وهي أكثر من أن تحصى، لكن آخرها نشر بشكل مفتوح وعلني في "الفورين أفّيرز" تحت عنوان "رجل إسرائيل في دمشق.. لماذا لا تريد إسرائيل الإطاحة بالنظام السوري؟"، وكتبه رئيس الموساد السابق "أفرايم هاليفي". أمّا الضربات التي كانت توجّه من قبل الطيران الحربي الإسرائيلي داخل سورية، فإنه لم يكن يستهدف الأسد نفسه أو مواطن قوته، وإنما يستهدف منع انتقال الأسلحة الاستراتيجية لأي طرف ثان بغض النظر عمّن هو، سواء كان الثوّار أو غيرهم، كما يستهدف تدمير مقوّمات الدولة السورية نفسها (وهو ما يفعله للمفارقة الأسد نفسه أيضاً وحلفاؤه)، حتى يكون أي نظام قادم مكان الأسد في موقع الضعيف.

العنصر الثالث:

أدّت هذه النقطة إلى الضغط على الولايات المتّحدة وكبح أي إمكانية لدعم الثوّار، بل إنّه وفي كثير من الأحيان قامت واشنطن وتل أبيب بالكشف عن كثير من شحنات الأسلحة القادمة إلى الثوّار وإيقافها أو مصادرتها كما حصل في لبنان، ناهيك عن قيام واشنطن بالضغط الكبير خلال مرحلة طويلة من مراحل الثورة السورية على كل من قطر والسعودية لإيقاف أي نوع من أنواع التسليح للثوّار، بل طرحت سيناريوهات في بعض الأحيان حول إمكانية استخدام طائرات من دون طيار أمريكية لاستهداف المقاتلين من الثوّار، أو حتى دعم بعض الجماعات للدخول في قتال ضد جماعات أخرى.

وكل ما قيل خلاف ذلك من حديث حول مساعدات ودعم عسكري ومالي وإغاثي، هو مجرّد دعاية أمريكية للقول بأنهم يؤدّون واجبهم، فحتى على مستوى المساعدات الأمريكية الإنسانيّة لموضوع اللاجئين فقط (دع عنك المقاتلين)، فقد كانت هزيلة للغاية؛ إذ بلغ مجموع كل المساعدات الأمريكية بمختلف أنواعها نحو ٤٠٠ مليون دولار، أي أقل حتى من نصف ما تلقاه نظام الأسد من النظام الإيراني في شهر واحد فقط هو شهر يناير من عام ٢٠١٣.

هكذا وفي مقابل تجاوز الأسد لكل خط أحمر دون أن يتم الرد عليه بشكل حاسم ورادع، تحوّلت الخطوط الحمر إلى ضوء أخضر في حقيقة الأمر للمضي قدماً في تدمير سورية وقتل السوريين كما يشير الواقع حتى الآن، وعليه؛ فإن أي تدخل أمريكي محتمل في أي مرحلة إنما يعتمد على المصلحة الأمريكية المبتغاة من ذلك في ضوء المعطيات المذكورة أعلاه.

قريباً في معرض الرياض

سلسلة رحلة الأهوال

د. إيهاب عويص

متوفرة في مكتبة التدمرية
فرع الرياض - بريدة

ملحمة روائية جمع فيها المؤلف عناصر
التشويق والإثارة والحقيقة العلمية

التوزيع والنشر

مؤسسة دار رسالة البيان للنشر والتوزيع

الرياض: - هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨
تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس:
٤٥٣٢١٢١
التوزيع والمبيعات:
٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ - ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ -
٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ - ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
مكة وجدة والمدينة : ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠
المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨
المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩
منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

رواية
Rewayah

دار رواية للنشر
لندن
104 Queensway
London W2 2RR
UK
E-Mail: info@rewayah.net
www. rewayah.net

سورية إلى أين؟

■ هيثم بن محمد الكناني

منذ بدء الاحتجاجات في سورية ربيع عام ٢٠١١، شغل هذا السؤال ذهن الكثيرين، ومما لا شك فيه أن الجواب يتعلق بمجموعة من العوامل والمعطيات، سواء ما كان منها ثابتاً مستقراً يتعلق بطبيعة الجغرافيا والموقع والتركيبة السكانية بتقسيماتها الدينية والمذهبية والعرقية، أو ما كان متغيّراً يتعلق بطبيعة اللاعبين وأدوارهم وعلاقاتهم وتداخل مصالحهم. هذه العوامل تبدو في الحالة السورية مختلفة تمام الاختلاف عن غيرها من حالات الثورات العربية، وفيها من التعقيد والتركيب ما لا يوجد في غيرها، وهذا ما كانت تدركه قيادة النظام في سورية جيداً منذ اللحظة الأولى، ما دفع الأسد من البداية للقول إن سورية ليست مصر أو تونس أو اليمن، ولعل كلمات الأسد ونظامه التي تدور حول هذا المعنى هي كلمات الصدق الوحيدة التي تصدر عنهم ضمن الكمّ الهائل من الأكاذيب والخداع والتضليل.

إن الحـــرب مهما طالت فلا بد من أن تضع أوزارها يوماً، والاحتمالات العقلية في الجواب عن الســؤال «سورية.. إلى أين؟» تنحصـــر في ثلاثة لا رابع لها: الأول: أن يتمكّن النظام من القضاء على الثورة. والثاني: أن تكون النتيجة لا غالب ولا مغلوب بحيث يحقق كل طرف نصراً جزئياً دون هدفه الكامل. والثالث: أن ينتصر الشعب ويقضي على النظام.

أما الاحتمـــال الأول فإنه يبدو بعيد المنـــال، فإن العودة إلى ما قبل مارس/ آذار ٢٠١١ بعد كل هذه الدماء والأشـــلاء والتدميـــر وما خلفه كل ذلك من ثارات وأحقاد؛ لا تكاد تكون متصـــوَّرة، فضلاً عن كون ميزان القوى على الأرض لا يشـــي بشـــيء من ذلك، فالقوة الباطشـــة للنظام تقلّصت إلى درجة كبيرة، والقدرة على الســـيطرة على الأرض تبدو أضعف من أي وقت مضى، ومَن حمل الســـلاح في وجه النظام ولمس من نفسه القدرة على المقاومة ورفع الظلم؛ يصعب عليه أن يرضى بالعودة للذل ثانية، لا ســـيما أن الجميع يعلم أن بقاء النظام والعودة إلى ما قبل بـــدء الثورة يعني انتحاراً حقيقياً، وحملة لا نهاية لها من القتل والاعتقال والتعذيب لكل من شارك في الثورة أو أيَّدها.

وأمـــا الاحتمال الثاني، فإن العوامل المادية والمحسوســـة تشير إليه، فرغم الانتصارات الكبيرة التي حققها المجاهدون على الأرض خلال الســـنة الماضية، ورغم أن هذه الانتصارات كانـــت تتحقق في ظل ميـــل كبير في ميـــزان القوى لصالح النظام، ورغم أن الميزان قد تعدل كثيراً لصالح الثوار مع تزايد عددهم وتنوع عتادهم وفي المقابل كثرة الخســـائر البشـــرية والمادية في صفـــوف النظام وتحلل الجيش رويداً رويداً بفعل ضربات المجاهدين وكثرة الانشقاقات؛ إلا أن الأسابيع الماضية شهدت تطوراً ملحوظاً لصالح النظام على جبهات متعددة في ريف دمشـــق وإدلب وحمص، وقد كان الحـــدث الأبرز الذي ظهر ميدانياً هو دخول أعداد كبيـــرة من المقاتلين العراقيين واللبنانيين الشيعة من حزب الله وغيره وقتالهم في الصفوف الأمامية، وفي المقابل كان هناك تقليص متعمد وواضح للسماح بوصول الســـلاح والذخيرة للمجاهدين ومقاتلي الجيش الحر علـــى اختلاف تكويناته، وهو ما أدى إلى انســـحاب المقاتلين من أكثر من موقع بســـبب نفاد الذخيرة، قبل أن يتمكنوا من استعادة كثير منها لاحقاً.

إن الأمـــر الذي لا بد من الاعتراف بـــه أن الدعم المادي والعســـكري الذي يصل إلى الثوار يمر معظمـــه عبر تركيا، وهي بدورها عضو في حلف الأطلســـي وسياساتها لا يمكن أن تكـــون بمعزل وتحرّر كامل عـــن الإرادة الغربية، وبخاصة الأمريكيـــة، وعليه؛ فإن نوع وكم الســـلاح والدعم الذي يصل لكافة الجبهات المقاتلة وتوقيته يخضع لقرار غربي؛ يســـمح بتدفق أكبر فتتحقق الانتصارات، ثم يضع قيوداً معينة فتنفد الذخيـــرة وتتراجع القوات، وحتى الجزء الأقل من الســـلاح الذي يتم تهريبه عن طريق تجار الســـلاح من الدول المجاورة، فإنه في النهاية يخضع لسيطرة مافيا السلاح العالمية التي لا تنفـــك بدورها عن أجهزة مخابرات الـــدول المختلفة، وهو ما لمســـه المجاهدون في كثير من المرات بعدم قدرتهم على شراء السلاح من تجار متعددين في وقت زمني واحد. قد تكون هذه الحقيقة مرة، لكن الاعتراف بها والتعامل معها على أنها أمر واقع أفضل مائة مرة من تجاهلها.

هذا على المستوى العســـكري، أما على المستوى السياسي فالأمـــر يبدو أكثـــر وضوحاً، وقد جاء لقـــاء كيري – لافروف الأخير في موسكو في ٧ أيار/ مايو ليعيد تأكيد التوافق الكبير بين الطرفين على الخطـــوط العريضة للحل، وهو ما ظهر في إعلان جنيف في حزيران/ يونيو ٢٠١٢، وجاء الاجتماع الأخير ليعيد التأكيد على حل يرتكز على هذا الإعلان عبر الدعوة إلى عقد اجتماع دولـــي قريب يجمع الطرفين – النظام والمعارضة –؛ تمهيداً لتســـوية مبنية على هذا الإعلان الذي أعلن النظام من البدء قبوله به، لا سيما أنه لا يتطرق لرحيل رأس النظام.

البعض يحاول تصوير ما تم فـــي اللقاء الأخير خضوعاً أمريكياً للشـــروط الروســـية بدعوى وجود تهديدات روسية بالتدخل العســـكري المباشر من روســـيا وإيران لدعم نظام الأســـد، لكن هذا التحليل يبدو بعيداً عن الواقعية، والصحيح أن ما يحدد ملامـــح التوافق بين الطرفين أمرين؛ أولهما منع الإســـلاميين من تحقيق انتصار حقيقي أو تولي زمام الأمور بعد الأسد، والثاني الحفاظ على أمن إسرائيل.

إن حل "لا غالب ولا مغلوب" يمكن أن يأخذ صوراً عديدة، وتوقع الأقرب منها للتحقق – وفق إرادة الكبار – يبقى محكوماً بالمحددين الســـابقين، وهذا ما يجعلنا نستبعد احتمال تمكّن الأســـد وعصابته الطائفية من إقامة دويلة نصيرية تمتد من

حمص في الوسط إلى الساحل غرباً فشمالاً إلى اللاذقية، فهذا إن كان يمثل عندهم الخطة "ب"، فإن هذه الدويلة غير قابلة للحياة على المدى البعيد، وأهم من هذا أنها لا تحقق الاستقرار والأمن لدولة "إسرائيل"؛ إذ ستكون على حدود فلسطين الشرقية دولة سنية خالصة لا مكان فيها للنصيريين في أي مفصل من مفاصلها، وليس لبقية الأقليات فيها دور كبير. ومن جهة أخرى، فإن الدويلة العلوية ستكون عامل عدم استقرار مستمر؛ لأن الغالبية السنية على حدودها لديها ثأر كبير مع رؤوس النظام وأزلامه وهم عصب هذه الدويلة، كما أن السوريين لن يقبلوا بانسلاخ هذا الجزء من أرضهم ولا بتقسيم بلدهم، هذا فضلاً عن وجود أعداد كبيرة من السنة في مناطق الدويلة، إن هُجِّروا – كما بدا أن مجزرة بانياس كانت مقدمة وتجربة لذلك – فسيشكل سعيهم للعودة مشكلات كبيرة للدويلة، وإن بقوا فلن يكون لها استقرار إلا بقمعهم وقهرهم، وهو ما سيكون دافعاً آخر لإخوانهم في الدولة السنية لنصرتهم أفراداً وجماعات.

إن عدم الاستقرار على حدود فلسطين سيخلق مجالاً كبيراً للجماعات الإسلامية الطامحة للجهاد في الأرض المقدسة، وهذا بكل تأكيد لن يكون مرغوباً في سورية المستقبل، فسورية ليست العراق التي يفصلها عن فلسطين آلاف الكيلومترات. إن ما يضمن أمن "إسرائيل" على المدى الطويل هو وجود دولة سورية ضعيفة ومستقرة؛ أما الضعف فقد تحقق الجزء الأكبر منه عبر ما لحق بالجيش من تدمير وتفكيك خلال الأشهر الماضية، إضافة إلى الدمار الواسع الذي أصاب البنية التحتية، وهو ما سيعني انشغال الدولة السورية وشعبها بأعمال الإعمار وإزالة آثار العدوان ولملمة الجراح لسنين طويلة. وأما الاستقرار، فإنه يحتاج إلى تسوية تخضع لها كل الأطراف، إما بدافع الرضا، وإما بدافع العجز وبلسان حال يقول: ليس بالإمكان أفضل مما كان؛ أما من طرف النظام وداعميه، لا سيما روسيا وإيران، فقد كانت الدعوة للتفاوض هي محور الكلام منذ زمن بعيد، ولا شك أن من يدعو للتفاوض فإنما يدعو له ليقينه بأنه غير قادر على حسم المعركة عسكرياً رغم أنه من اختار هذا الحل من البداية، ومن يدعو إلى التفاوض فإنه يعلم أنه لا بد من أن يقدم شيئاً من التنازلات، وإن كان يطمع في أن تكون شكلية غير مؤثرة. فالرضا سيكون متحققاً من قبل النظام – ولو جزئياً –؛ لأن الاتفاق يحقق له بقاءه في السلطة ولو بالاشتراك مع غيره، ويجعله يدخل الانتخابات المقبلة كما هو موحداً متجانساً مدعوماً من الأقليات ومن أعضاء حزبه والمتخاذلين والخونة من السنة، بخلاف المعارضة المشتتة والمنقسمة والتي سيؤدي تشرذمها إلى تفتيت أصوات السنة، وهذا ما يراهن عليه النظام وأبواقه عبر دعوتهم الدائمة للاحتكام لصندوق انتخابات يتسع للأسد وغيره.

وأما الطرف الثاني المتمثل في الشعب الثائر والمجاهدين والجيش الحر، فإن غالبيته ترفض الحوار مع النظام، بينما توجد أصوات تتعالى للتفاوض حول رحيله، بينما "أصدقاء الشعب السوري" المفترضون يميلون إلى ضرورة الحوار والتفاوض، ويرى أمثلهم طريقة أن تسليح الجيش الحر هو وسيلة لتعديل ميزان القوى للوصول إلى حل سياسي تفاوضي.

والمحصلة أن الثوار لو دخلوا في هذا الحل فمن باب العجز وعدم القدرة، وهنا نعود للتذكير بمن يملك فعلياً أمر إدخال السلاح والمعونات، أي أنه حل سيفرض على الثوار كأمر واقع بأسلوب ليّ الذراع.

ولكن ماذا عن الاحتمال الثالث؟

إن العرض السابق قد يصيب البعض بالإحباط، وقد يجعل الصورة تبدو شديدة القتامة، ونحن نقر بأن الأمر كان سيكون كذلك فعلاً لو أنه متعلق فقط بالحسابات المادية، لكن الأمر - بفضل الله - ليس كذلك، وهذه الثورة منذ مبدئها تدل على هذه الحقيقة أكبر دليل، فالحسابات المادية كانت تشير إلى تمكن النظام من القضاء على الثورة في مهدها في درعا، كما قضى من قبل على حركة الإخوان المسلمين في الثمانينيات ومحا ثلث مدينة حماه من على الخريطة.

إننا كمسلمين لا ينبغي لنا بحال أن نجعل تعلقنا بالأسباب المادية، ولا أن نجعل تحليلاتنا قائمة على العوامل المحسوسة فحسب، نحن قوم خاطبنا الله عز وجل بقوله: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، نحن قوم آمننا ربنا من مكر الماكرين وكيد الكائدين بقوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وهذا لا يعني أن نتعلق بالأوهام والأحلام ولا أن نتواكل؛ لأن الله سبحانه وتعالى أمرنا في الوقت نفسه بأن نأخذ بالأسباب فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

إن الأخذ بالأسباب مع تعلق القلب برب الأسباب هو أعظم أبواب النصر على الأعداء، وهذه الأسباب معنوية ومادية، أولها الإخلاص وحُسن الظن بالله وكثرة التضرع واللجوء إليه، ثم القيام بحقوق الله سبحانه وتعالى وحقوق الخلق، والحرص على وحدة القلوب والصفوف ونبذ الفرقة والخلاف، مع محاولة تحصيل أسباب القوة العسكرية والسياسية قدر الوسع والطاقة، وهذا العمل هو حقيقة نصرنا لله عز وجل لنستحق نصره، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، وليس الأمر مجرد دعاوى باللسان.

إن حُسن ظننا بالله عز وجل يجعلنا نوقن بأننا متى ما حققنا شرط النصر - لا سيما في الداخل السوري - فإن النصر آت لا محالة، وتزيد من ثقتنا ويقيننا تلك الأحاديث المتكاثرة التي تبلغ حد التواتر المعنوي عن فضل الشام وأهله وعن ظهورهم على عدوهم، وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: (لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة)، قال الإمام المبجل أحمد بن حنبل: أهل المغرب هم أهل الشام[1].

وأما من تزعزع يقينه وقلّ رجاؤه، فننقل له كلام علامة الشام شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال رحمه الله عن غزو التتار للشام: (فزاغت الأبصار زيغاً عظيماً وبلغت القلوب الحناجر؛ لعظم البلاء... وظن الناس بالله الظنونا؛ هذا يظن أنه لا يقف قدامهم أحد من جند الشام حتى يصطلموا أهل الشام، وهذا يظن أنهم لو وقفوا لكسروهم كسرة وأحاطوا بهم إحاطة الهالة بالقمر، وهذا يظن أن أرض الشام ما بقيت تُسكن ولا بقيت تكون تحت مملكة الإسلام... وهذا يظن أن ما أخبره به أهل الآثار النبوية وأهل التحديث والمبشرات أماني كاذبة وخرافات لاغية، وهذا قد استولى عليه الرعب والفزع حتى يمر الظن بفؤاده مر السحاب ليس له عقل يتفهم ولا لسان يتكلم، وهذا قد تعارضت عنده الأمارات وتقابلت عنده الإرادات؛ لا سيما وهو لا يفرق من المبشرات بين الصادق والكاذب، ولا يميز في التحديث بين المخطئ والصائب، ولا يعرف النصوص الأثرية معرفة العلماء؛ بل إما أن يكون جاهلاً بها وقد سمعها سماع العبر ثم قد لا يتفطن لوجوه دلالتها الخفية ولا يهتدي لدفع ما يتخيل أنه معارض لها في بادئ الروية. فلذلك استولت الحيرة على من كان متسماً بالاهتداء، وتراجمت به الآراء تراجم الصبيان بالحصباء؛ ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١]، ابتلاهم الله بهذا الابتلاء الذي يكفر به خطيئاتهم ويرفع به درجاتهم، وزلزلوا بما يحصل لهم من الرجفات ما استوجبوا به أعلى الدرجات. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]، وهكذا قالوا في هذه الفتنة فيما وعدهم أهل الوراثة النبوية والخلافة الرسالية وحزب الله المحدثون عنه، حتى حصل لهؤلاء التأسي برسول الله ﷺ كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١])[2].

فالله مولانا ولا مولى لهم، وهو جلَّ وعز ناصرنا إن شاء الله ولو كره الكافرون، فأبشروا وأمّلوا.

(١) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٥٠٧).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٤٦-٤٤٧).

هل يمكن للجهاد في سورية أن يحقق ما لم يحققه في العراق؟

■ طلحة المسير

الوقوع في أَســرِ ضعف أو نقص أو فشل التجارب السابقة عقبةٌ من أهم العقبات التي تواجه العمل الإسلامي، وتعطله عن المضي في طريقه، بل تحرفه أحياناً عن صراطه السوي.

ومن أمثلة ذلك ما يردده البعض عن الجهاد في سورية الآن، وأن ما نراه من انتصــارات وبطولات وفتوحات ما هو إلا تكرار لدورة الجهاد في العراق ضد الأمريكان؛ ذلك الجهاد الذي صال فيــه المجاهدون الأبطال وجالوا، وتعلقــت به آمال الأمة، وبدت بشائر النصر، تماماً كما تبدو الآن:

– فبالأمس كانت قناة "الزوراء" تحرض على الجهاد، واليوم ظهرت قناة "شامنا" تحرض على الجهاد.

– وبالأمــس كنا نتحــدث عن آلاف القتلــى والجرحى من الأمريــكان، واليوم نتحدث عن آلاف القتلى والجرحى من جنود بشار.

– وبالأمس كنا نتحدث عن انهيار الجيش الأمريكي وانكسار معنويات أفراده، واليوم نتحدث عن انهيار جيش بشــار وانكسار معنويات أفراده.

– وبالأمس كنا نتابع بشغف إصدارات المجاهدين في بلاد العراق وبياناتهم، واليوم نتابع بشغف إصدارات المجاهدين في سورية وبياناتهم.

– وبالأمس كنا نتحدث عن تحرير أجزاء واسعة من: بغداد، وديالى، والأنبار، والفلوجة، وكركوك، وصلاح الدين، ونينوى، واليوم نتحدث عن تحرير أجزاء واسعة من: دمشق، وحلب، وإدلب، والرقة، ودير الزور، وحمص، ودرعا.

ثم لم تمضِ إلا أعوام قليلة حتى كُسرت شوكة المجاهدين في بلاد الرافدين، وأمسكت أمريكا مقاليد الأمور، وتسلم الرافضة زمام الحكم، وذاق أهل السنة الويلات والويلات.

والحقيقة هي أن هذا القول بهذه الطريقة أغفل كثيراً من الحقائق التي تطمئن المسلمين على الجهاد في سورية، وتشجعهم على الوقوف صفّاً واحداً مع المجاهدين هناك.. ومن هذه الحقائق:

أولاً: أن هذه الرؤية المتشائمة هي من الوهن المنهي عنه:

فالوهن يصيب الأمم عند الهزيمة، وقد نهانا الله جل وعلا عن هذا الشعور، وحثنا على المبادرة للجهاد رغم وقوع الهزيمة، قال تعالى: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩ – ١٤١]، قال السعدي في تفسيره: "أي: ولا تهنوا وتضعفوا في أبدانكم، ولا تحزنوا في قلوبكم، عندما أصابتكم المصيبة، وابتليتم بهذه البلوى، فإن الحزن في القلوب، والوهن على الأبدان، زيادة مصيبة عليكم، وعون لعدوكم عليكم، بل شجعوا قلوبكم وصبروها، وادفعوا عنها الحزن، وتصلبوا على قتال عدوكم، وذكر تعالى أنه لا ينبغي ولا يليق بهم الوهن والحزن، وهم الأعلون في الإيمان، ورجاء نصر الله وثوابه"[1].

ثانياً: أن الجهاد في العراق حقق مكاسب وإنجازات ضخمة لا نكاد نحصيها:

فرغم أن النصر الكامل لم يتحقق للمجاهدين في العراق، فإن من الظلم البيّن التغافل عن الفتوحات العظيمة التي تحققت على أيدي المجاهدين الأبرار في بلاد العراق؛ ومن أوضح تلك الفتوحات هذه الانتكاسة الكبرى التي لحقت بدولة أمريكا، والتي بدا بعض مظاهرها في عشرات الآلاف من قتلى وجرحى القوات الأمريكية، وكذلك بدا في الانهيار الاقتصادي الأمريكي، بل بدا في وصول رئيس لأمريكا من أصول مسلمة إفريقية في حادثة لم تسبق في تاريخ أمريكا، وبدت مظاهر تلك الفتوحات أيضاً في خشية أمريكا من المواجهة المباشرة وتبنيها خيار المواجهة غير المباشرة في كثير من الأحيان؛ كما في: الصومال، واليمن، وليبيا، ومالي...، ما أضعف جانب أنصار أمريكا، وخفف عن الأمة كثيراً من الخسائر التي كانت تتكبدها نتيجة المواجهة المباشرة مع أمريكا التي تفرط بشدة في استخدام القوة الهائلة.

وكما كان الجهاد الأفغاني ضد السوفييت قاصماً لظهور السوفييت، كان الجهاد العراقي قاصماً لظهور الأمريكان.

ورغم أن الجهاد في العراق لم ينتهِ بعد، فقد حقق الجهاد العراقي كذلك فوائد أخرى كثيرة ليس المقام مقام شرحها؛ منها: إضعافه وتفكيكه التحالفات الغربية، وفتحه مجالاً لنوع من أنواع التحرر في سياسات بعض الدول العربية التي كانت أسيرة لهيمنة القرار الأمريكي، وتعطيله مشروع الهلال الشيعي، وإثراؤه تجارب العمل الإسلامي، وكونه سبباً مباشراً في دعم الجهاد في سورية.

فعلى الأمة ألا تحتقر إمكاناتها، وألا تبخس المجاهدين جهادهم، فهم فخر الأمة وغرة جبينها.

ثالثاً: أن نسبة أهل السنة العرب في سورية أعلى بكثير من نسبتهم في العراق:

فنسبة أهل السنة العرب في سورية تراوح بين ٧٠ و٨٠٪ من مجموع السكان، وهذه نسبة كبيرة تعزز فرص النصر بقوة، خاصة مع تشرذم النسبة الباقية بين كثير من الطوائف الدينية والعرقية؛ كالنصيرية، والدروز، والإسماعيلية، واليزيدية، والنصارى، والأكراد.

أما في العراق فقد حمل أهل السنة العرب أمانة الجهاد في العراق في ظل معادلة سكانية قاسية؛ فقد استطاع الأمريكان إخراج أكثر الأكراد والرافضة من حسابات الصراع

(١) تفسير السعدي: ١٤٩.

ضد أمريكا، وبقي أهل السنة العرب يواجهون طغيان أمريكا وعدوان الرافضة، وكانت نسبة هؤلاء السنة العرب تراوح بين ٢٥ و٣٥٪ من عدد سكان العراق، ما ضاعف عبء المجاهدين في العراق، وقلل من فاعليتهم.

رابعاً: تزايد عدد المجاهدين في سورية وعتادهم عما كان في العراق:

فمع اتساع العمليات الجهادية في سورية تزايد عدد المجاهدين بصورة كبيرة، وأصبحنا نسمع عن حركات وكتائب وجبهات تعلن كل منها انضواء آلاف المقاتلين تحتها، ويستطيع المتابع لبيانات تلك المجموعات أن يحصي عشرات الآلاف من المجاهدين الذين يعلنون الجهاد صراحة في وجه الحكم النصيري.

يضاف إلى ذلك استحواذ هذه المجموعات المجاهدة على كثير من عتاد جيش بشار، وأصبح من المألوف استعمال هذه المجموعات للصواريخ، ومضادات الطائرات، والمدافع، والدبابات، بل الطائرات أحياناً.

أما الجهاد في العراق، فرغم اتساعه وانتشاره، فإن أعداد المجاهدين فيه لم تبلغ هذه الكثرة، وعتادهم لم يبلغ هذا التطور، وارتكز في معظمه على الأسلحة الخفيفة لا الثقيلة.

خامساً: أن قتال بشار بأسلحته التقليدية أيسر من قتال الأمريكان بأسلحتهم المتطورة:

فمعظم ترسانة الأسلحة السورية غير مكتملة الخصائص، ما يؤثر في دقة إصابة الهدف؛ فأصبحت معظم ضربات الجيش السوري عشوائية، وقد أعطى ذلك فرصة للمجاهدين في سورية كي ينتشروا بسهولة، ويظهروا في مسرح الأحداث بقوة وبأعداد كبيرة تقدر في بعض الأحيان بآلاف الجنود الذين يحاصرون بعض القطع العسكرية كالمطارات.

وهذا يخالف ترسانة الأسلحة الأمريكية التي عُرفت بدقة الإصابة، ما حدَّ كثيراً من تحرك المجاهدين وانتشارهم، وجعلهم فريسة سهلة للصواريخ الموجهة والضربات الدقيقة.

سادساً: قوة تضارب المصالح الإقليمية في سورية خلافاً للوضع في العراق:

فقد سارع كثير من القوى الإقليمية لبحث الوضع في سورية؛ في محاولة لتحقيق أكبر منفعة لها ودفع المضار عنها؛ فلتركيا مثلاً إشكالياتها الحدودية مع سورية في لواء الإسكندرون ومخاوفها من الأكراد، وللطوائف اللبنانية حساباتها المتعددة، وكذلك العراق، وإيران، ودول الخليج، والأردن، وإسرائيل، وأمريكا، وروسيا، والصين.. وهذا التضارب في المصالح يوفر مساحة ضخمة من المناورة والتخطيط، ويعطل كثيراً من مخططات الأعداء ومكرهم.

وهذا يخالف الوضع في العراق؛ حيث استطاعت أمريكا بتسلطها وإرهابها أن تنفرد بالعراق، وأن تنفذ فيه ما تراه، دون اعتبار لمصالح عديد من القوى الإقليمية؛ مثل تركيا التي تضررت من وضع الأكراد في كردستان، ودول الخليج التي تأثرت بنفوذ الشيعة في العراق.

سابعاً: تغيّر موازين القوى العالمية الآن عما كان وقت حرب العراق:

فالجهاد في سورية الآن ينطلق بعد مضي عشر سنوات على الجهاد في العراق، وقد تغيرت في هذه السنوات العشر كثير من موازين القوى الدولية:

- فلم تعد أمريكا وبريطانيا كما كانتا قبل، بل تحاولان استخدام القوة الناعمة أكثر من استخدامهما القوة العسكرية المباشرة، وتحاول فرنسا التضلع بدور ما في المعادلات الجديدة.
- وأفرزت الثورات العربية موازين قوى جديدة ومعادلات لم تكن في الحسبان من قبل، وأصبح وصول بعض التيارات الإسلامية للحكم في عدد من البلدان مؤثراً في الأحداث.
- وانتشر المدّ الجهادي في بلدان عديدة لم يكن له فيها موطئ قدم من قبل.
- ويتعرض الهلال الشيعي لمقاومة قوية في إيران نفسها، والعراق، وسورية، ولبنان.

كل هذا التغيّر في الموازين يعطي للجهاد في سورية فرصاً لم يكن المجاهدون في العراق يحظون بأقل القليل منها.

ثامناً: ضعف الترابط العشائري في سورية وقوته في العراق:

لم يظهر في سورية دور مؤثر لزعماء وشيوخ ورؤساء العشائر والقبائل الشعبية، ولم يكن للترابط العائلي كبير الأثر في الجهاد السوري، وظل التحرك الفردي أو الجماعي المحدود هو السائد بين السوريين، ما أضعف محاولة نظام بشار في التأثير المباشر على أفراد العشائر.

أما في العراق؛ فقد كان لشيوخ القبائل تأثير كبير على أفراد القبائل، فاستغل الأمريكان هذه التركيبة السكانية، واستمالوا عدداً من شيوخ العشائر.

تاسعاً: ظهور الشبيحة في سورية يضعف من فاعلية تكرار تجربة الصحوات في العراق:

تطلق كلمة الشبيحة في سورية على المتورطين في دعم بشار الأسد في حربه ضد المسلمين، سواء كان هذا الدعم عسكرياً أو مادياً أو معلوماتياً، وأصبح عامة المسلمين في سورية يعدُّون هذه الطائفة من طوائف الأعداء التي يحاربونها ضمن حربهم ضد بشار، ولا يختلف في هذا الموقف أحد من الكتائب المقاومة في سورية، سواء سميت إسلامية أو سميت ثورية.

وهذا التمايز الواضح منذ بدايات الأحداث قلل احتمالية وجود صحوات فاعلة في المستقبل أسوة بصحوات العراق؛ حيث تمايز أكثر الخبيث في سورية مبكراً، خلافاً للمقاومة في العراق التي كانت في بداياتها شعبية عامة ضد الغزو الأمريكي؛ فلما جاءت الفتن كان من أسباب قوة الصحوات أن عناصرها في المقاومة والمجتمع لم تكن متميزة عن سائر المجاهدين، بل كانت تغدو بينهم وتروح دون شبهة تلاحقهم، فلما اتفقت الصحوات مع الأمريكان استطاعت أن تستغل سابق جهادها، وطول خبرتها، وعمق معرفتها بالمجاهدين؛ لإيقاف العمل الجهادي في العراق.

عاشراً: نضج الجهاد في سورية باستفادته من تجارب الجهاد في العراق:

استفاد الجهاد في سورية من خلاصة تجارب كثير من الحركات الجهادية في العالم عموماً، والعراق خصوصاً؛ بسبب التقارب الشديد بين البلدين، وسهولة انتقال الخبرات بينهما؛ لذا فقد تجاوز الجهاد في سورية العديد من الإشكاليات التي انتابت الجهاد في العراق وسببت صدعاً في العمل الجهادي؛ ومن ذلك مثلاً:

- قضية استهداف عناصر شرطة وجيش بشار؛ حيث اتفق الجميع على ضرورة حرب الطائفة الممتنعة التي تقاتل مع بشار؛ سواء كان أصلها نصيريّاً أو سُنيّاً، أما في العراق فقد اشتبه على البعض قتال الجنود العراقيين الذين يساعدون الجيش الأمريكي، ما سبب فتنة في الصف الجهادي.
- التنبّه والتيقظ والحذر من الوقوع في الفخاخ التي وقع فيها البعض في العراق؛ كتلطُّخ بعض العراقيين مثلاً ومشاركتهم في عملية سياسية كانت بمثابة اعتراف بالاحتلال الأمريكي، وكذلك خدعة الصحوات التي قامت بدعوى حماية مناطق السنة من الاعتداءات الطائفية، ثم تحولت بسرعة إلى حرب المجاهدين والإيقاع بهم.
- الاقتصاد في استخدام العمليات الاستشهادية؛ حيث طوّر المجاهدون في سورية بدائل متنوعة كاستخدام السيارات المتحركة آليّاً، ولم يلجأوا للعمليات الاستشهادية إلا في نطاق ضيق؛ ما يتيح فرصاً أكبر للاستفادة القصوى من الكتلة البشرية للمجاهدين، خلافاً للجهاد في العراق الذي شهد نوعاً من التوسع في استخدام العمليات الاستشهادية بلا حاجة ماسة.
- التنسيق بين المجاهدين في سورية في كثير من الميادين؛ مثل العمليات الجهادية الكبرى المشتركة بين عدد كبير من الفصائل المجاهدة، كتحرير المطارات، ومراكز الدفاع، ومستودعات الذخيرة، وكذلك التنسيق في العمل الاجتماعي كما في تجربة الهيئات الشرعية التي تكوّنت من نتاج عدد كبير من الحركات الجهادية، وتدير حاجيات الناس في كثير من الأماكن المحررة، ما قرب المسافة بين الكتائب والفصائل والجبهات المجاهدة بصورة لم يستطع المجاهدون في العراق الوصول إلى مثلها.

❋ فيا أهل المروءات: هذا بنيان المجد يعلو، ونوره يفشو، فاحذروا سرابيل العجز والوهن، وسارعوا للعلا وسابقوا، وليفتش كل امرئ عن ثغر يسده لا يؤتى الإسلام من قبله ما دامت فيه عين تطرف، ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١١٠].

وختاماً:

فهذه كانت عشر بشريات ظاهرات تدل المتأمل على بشريات أخرى وبشريات، ما يؤكد أن نصر الإسلام لا محالة قادم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢٠ - ٢١].

الشيخ عبد الهادي أوانج رئيس الحزب الإسلامي الماليزي لـ البيان:

لا يمكن لجماعة أن تقدِّم نفسها

■ أجرى الحوار: فيصل بن سعيد الحذيفي

■ الشيخ عبد الهادي أوانج رئيس الحزب الإسلامي الماليزي (PAS).

■ ولد في عام ١٩٤٧م.

■ حصل على الليسانس من الجامعة الإسلامية بالمدينة في عام ١٩٧٣م.

■ حصل على الماجستير من جامعة الأزهر عام ١٩٧٥م.

■ عضو اللجنة المركزية ونائب لرئيس الحزب ١٩٧٧م.

■ رئيس للحزب منذ عام ٢٠٠٢م.

■ أصبح والياً لولاية ترنجانو خلال ٢٠٠٠ - ٢٠٠٤م.

■ وكيلاً لاتحاد علماء المسلمين.

■ عضو مجلس أمناء مؤسسة القدس.

قابلته في بيته المتواضع في قرية روسيلا، إحدى ضواحي مدينة ترنجانو في شمال ماليزيا.. يبهرك بإلمامه بالوقائع التاريخية وأرشفتها في ذاكرته.. ينظر إليك مبتسماً ويقول: اكتب فلربما لا نلتقي ثانية.. وفيما يلي تفاصيل الحوار بالكامل.

البيان: إن التجارب السياسية المعاصرة أثبتت أنه لا يمكن لأي فصيل سياسي أن يتحمّل بمفرده الحكم.. فهل للحزب الإسلامي تجربة ائتلاف أو تعاون مع أي من المكونات الحزبية والفئوية في البلاد؟

تجربة ائتلاف الحزب الإسلامي الماليزي مع القوى السياسية في ماليزيا قديمة وناجحة قبل الاستقلال في مواجهة الاستعمار البريطاني، حيث قمنا بالتحالف مع القوى السياسية العلمانية المعارضة من اليمين واليسار ضد الجبهة الوطنية التي ساندها الاستعمار البريطاني (الحزب القومي الملاوي «أمنو» والحزب القومي الصيني والحزب القومي الهندي)، ونجحنا في تنصيص الإسلام ديناً للدولة في الدستور، ورغم أن هذا النص صيغ بحسب التفسير العلماني، وذلك بسبب قوة نفوذ الاستعمار البريطاني حينها ومساعدة القوى العلمانية؛ لكنه يكفي أن يكون أساساً للتغيير بعد ذلك. وائتلفنا مع حزب الوطن العلماني المعارض المنشق من حزب «أمنو» في عام١٩٦٠م في الانتخابات البرلمانية الأولى، وانتصر

ـــــها على أنها جماعة المسلمين

الحزب الإسلامي في ولايتين (ترنجانو وكلنتان) في الانتخابات لمجلس الولايات، بحسب النظام الفيدرالي، وكالعادة تعرضنا لحصار إداري وسياسي واقتصادي وإعلامي مرير، وسقطت منا حكومة إحدى الولايتين (ترنجانو بعد سنتين وبقيت كلنتان لـ ١٨ سنة)، وبقينا في البرلمان المركزي كأكبر قوة معارضة.

وفي عام ١٩٦٤م قمنا بالتحالف السياسي مع الحزب الاشتراكي وحزب العمال وحزب الوطن، وذلك في فترة نزاع حدودي بين ماليزيا وإندونيسيا التي استنكرت نشأة ماليزيا؛ لأن بريطانيا وضعت قنابل موقوتة بين البلدين، كذلك سمحت باستقلال سنغافورة عن ماليزيا، وربطت الجميع برابطة الكومونولث، وكان مشروعنا ضم إندونيسيا إلى اتحاد الملايو بحكم التقارب العرقي والديني بيننا، فنحن جميعاً نشكل شبه جزيرة الملايو وجزرها (الأرخبيل) وننحدر من عرق واحد ولغتنا واحدة وديننا واحد، لكن شاءت الأقدار بفعل الحنكة والمكر الاستعماري البغيض الذي جثا على صدورنا وضمن مستقبل يحكمه الشتات والنزاع بين بلداننا، فكان أن انحسر المشروع من مشروع وحدوي كبير إلى مشروع الدولة الوطنية بمفهومها الضيق والبسيط، وبما أننا لا يمكن أن نغرد خارج السرب ونبكي على ليلى، كما يقول إخواننا العرب، عملنا وَفق فن الممكن وأبقينا التنسيق والتعاون مع إخواننا في إندونيسيا قائماً بحكم الأخوّة والجوار، وفي انتظار القادم الأجمل - إن شاء الله -.

حدثت انتخابات ثانية عام ١٩٦٤م وتعرضنا لضغوط شديدة من الحكومة الماليزية وبريطانيا، فائتلفنا مع الحزب الوطني والحزب الاشتراكي وحزب العمال، وفي تلك الفترة كان كثير من قادة الحزب معتقلين في السجون والمنفى تحت قانون أمن الدولة.

البيان: كيف خرجتم من هذه المحنة؟ وهل وجدت الحكومة مبررات أو أخطاء من قبلكم واجهت بها الرأي العام وجعلتها تقدم على مثل هكذا إجراء؟

انتشرت الصحوة الإسلامية بين الملاويين فلجأت الحكومة إلى الإعلام

الذي تتفوق به، فأشاعت بأننا تكفيريون وأننـــا أتينا بدين جديد يختلف عما كان عليه آباؤنا، وهذه الأسطوانة المشروخة يعاد إنتاجها بمسميات وأقاويل مختلفة من فترة لأخرى، وكان الحزب الإسلامي في المقدمة وتصـــدى لبطش الحكومة بالصبـــر وفوتنا الفرصـــة عليهم رغم اعتقال القادة، ولم نتمكن من إحراز أي تقدم في الولايات. وفتنة التكفير كانت في الأصل ردة فعل على العلمانيين الذين هاجموا الشريعة الإسلامية واستهزؤوا بها، وقع فيها بعض الشـــباب المتحمس، وذلك مـــن تأثر الأمة بالغـــزو الفكري والثقافـــي، وأنا في نظـــري أن الحوار واختيار المواجهة الســـلمية واســـتغلال بعـــض أدوات الديمقراطية والائتلاف؛ هو الأصلح بدلاً من الصراع داخل الأمة الواحدة التي غرقت في محيط الجهالة والأمية من طول عهد الاستعمار.

البيان: نعود إلى الائتلافات والانتخابات البرلمانية والولائية؟

نعـــم، دخلنا الانتخابـــات منفردين ولأول مـــرة في عـــام ١٩٦٩م، وحدثت حينهـــا نزعـــة قومية فـــي ماليزيا بين المســـلمين الملاويـــين، وهـــم الســـكان الأصليون، والوافدين الجدد (الصينيون والهندوس)، فارتفعت أسهم الحزب بين الملاويين وكســـبنا أنصاراً جـــدداً كانوا يصوتـــون تلقائيـــاً مع الحـــزب الحاكم (الجبهـــة الوطنيـــة، وهـــي مجموعة الأحزاب العلمانية من أمنو (الملايويين) وحـــزب القوميـــة الصينيـــة والقومية الهنديـــة)، واهتـــزت الجبهـــة الوطنية الحاكمـــة بحصولنـــا على زيـــادة في مقاعد البرلمان والبقاء في ولاية كلانتان والسلطة الشـــعبية في ولايتي ترنجانو وقـــدح رغم قيام الســـلطة بتزوير إرادة كثير من الناخبين، بعدها أُعلنت الأحكام العرفية ونزل الجيش للشـــارع فدخلت الحكومـــة بعدهـــا بمأزق، فاســـتدعي الحـــزب الإســـلامي للحـــوار من أجل الدخول في الحكومة، فقدمنا شروطاً، منها: أن يكون الحزب الإســـلامي حراً في رأيه وأنشـــطته، وأن يكـــون له دور فـــي تطبيق الإســـلام، ودعينا إلى عقد مؤتمر داخلي للحزب الإسلامي للتشاور مع لجنـــة العلماء في الحـــزب لحماية وحدة الصف في القرار الحاسم وتقوية الموقف على ضرورة تحكيم الشريعة في حياة الناس، واتخذنا قرار المشاركة في الحكومة بشروط.

ولعلي أذكر هـــذه القصة وهي تدل على بركة المشـــاركة والتصـــدر للولاية العامـــة ولو مـــع الآخر وفـــق القاعدة الشـــرعية «مـــا لا يدرك جلـــه لا يترك كلـــه»، وهو أنه وفـــي بروتوكول تنصيب الحكومـــة كان هنـــاك تقـــديم للخمور وحفلة رقص، فمـــا كان من أعضائنا إلا أن رفضوا حضور المراسيم استنكاراً لمثل هـــذا البروتوكول، وهددوا بالانســـحاب من الحكومة، فاســـتجاب رئيس الوزراء وألغى البروتوكـــول نهائياً لحد الآن، كما أنه ســـمح بالأذان في أوقات الصلاة في الإذاعة والتلفزيون، وانتشرت الدعوة في الجامعات والدوائـــر الحكومية، وعُقدت الندوات وورش العمل والمحاضرات بشكل علني حـــول تعريف الشـــريعة وقوانينها وفقه تطبيقها، والتوعية الإســـلامية في السياسة والاقتصاد والإدارة.

البيان: ما الذي فضَّ هذا الائتلاف؟

الائتـــلاف انفـــرط عقـــده بمجرد ســـيطرة الدكتور مهاتيـــر محمد على الحزب الحاكم عندما كان نائباً لرئيس الـــوزراء فـــي عـــام ١٩٧٨م، وانقلـــب علينا في كلنتن، فقـــد دبَّر اضطرابات مصطنعة وأخذ منـــا الولاية بانتخابات شـــابها التزوير الواضـــح والانتهاكات. وقام مهاتير، المعروف بحنكته السياسية، بنصب فخاخ ضد الحزب الإســـلامي، ومنهـــا دعـــوة بعض الإســـلاميين إلى الدخـــول معه في الحكومـــة بعيداً عن الرأي الجماعـــي والأطـــر التنظيمية، ولعلكم تذكـــرون الدكتور أنوار إبراهيم، رئيس حركة الشـــباب الإسلامي، بحجة تعالوا معي لكي تؤســـلموا الدولة، وكان ســـماً بين عســـل، واتضـــح أن الهدف هـــو تمزيق صف العمل الإســـلامي في ماليزيا، ولما لـــم يجد بغيته وخاف على منصبه كان ما كان مع أنوار إبراهيم، أو غيره، والقصة معروفة.

البيان: ماذا عن تشكيل الجبهة السياسية الحاليـــة ضـــد الجبهـــة الحاكمـــة، وهـــل لديكم تحالفات مع منشقين من الحزب الوطني غير أنوار إبراهيم؟

نعم، سأبدأ الإجابة من شق السؤال الأخير، ففي عام ١٩٩٠م حدث انشقاق داخل الحزب الوطنـــي في صراع على الرئاسة بين مهاتير وتنكو غزالي حمزة، وزير المالية الأســـبق، قطبي الحزب في تلك الفترة، وانشقت جماعة تنكو غزالي وأسس حزب ٤٦ (للتفاؤل بعام ١٩٤٦م، حيث أســـس حـــزب أمنـــو الملايوي)، وائتلفنا مع المنشـــقين وحـــزب الحركة

الديمقراطية الاشتراكية الصينية، وكان تنكو غزالي من كلنتن وله شعبية كبيرة، واتفقنا على أن يكون هو رئيس الوزراء في الحكومة المركزية، بتقديرنا أن الانتصار في الولاية فقط.

وفي انتخابات ١٩٩٠م أعيدت كلنتن بأغلبية ١٠٠٪، ولحد الآن، وكلنتن ولاية يحكمها الحزب الإسلامي وعلى رأسها الشيخ المعروف نيك عبد العزيز، وفي عام ١٩٨٧م تم عزل أنور إبراهيم بعد نهاية استخدامه وبسبب قيامه بالانقلاب على مهاتير داخل حزب أمنو، وزج به في السجن بالتهمة السياسية المعروفة، فتأسست جبهة سياسية جديدة ودافعنا من خلالها عن إبراهيم باعتباره مظلوماً، وتشكلت الجبهة من حزب العدالة والتنمية الذي رأسته زوجة أنور إبراهيم، وهو حزب علماني برجماتي، والأحزاب العلمانية الصغيرة من الاشتراكية والليبرالية والشخصيات المعارضة ومنظمات دينية مختلفة، وبدأنا بالحوارات والنزول الميداني، وقمنا بسياسة التحالف السياسي على ثبات الحزب الإسلامي على مبادئه الإسلامية وبرامجه، لكن التحالف على حسب الأمور المشتركة، لا سيما ضد الظلم والفساد وتعريف العدالة للجميع، مع مراعاة الخلاف في الأيديولوجيات.

وكانت النتيجة أن الحزب الإسلامي حصل على أكثر المقاعد في مجالس الولايات، وحافظنا على كلنتن، وأضيفت إليها ترنجانو الغنية بالبترول التي ساعدت باقي الولايات في انتخابات ١٩٩٩م، ثم في انتخابات ٢٠٠٨م حكمنا ولاية قدح وولاية بيراك وولاية سلانجور بالائتلاف تحت قيادة حزب أنوار وولاية بينانج بالائتلاف تحت قيادة حزب الحركة الديمقراطية الاشتراكية الصينية.

البيان: ماليزيا متعددة الأديان والعرقيات، والمسلمون يشكلون نحو ٦٠٪ من مجموع السكان.. فهل منسوبو الحزب فقط من المسلمين؟

الحزب الإسلامي واضحة تسميته، ونحن نحمل مبادئ الإسلام التي هي للجميع، لكن لكل شيء سبب، فدخول غير المسلمين في الحزب كان بعد نجاحنا في تطبيق الشريعة الإسلامية في ولايتي كلنتن منذ ١٩٩٠م وترنجانو بعد انتخابات ١٩٩٩م، وقدح وبيراك عام ٢٠٠٨، والمتمثلة في وسطية الإسلام وعدالته، وصلاحه للتعامل مع الجميع، وفق الأبجديات المعروفة وفقه الأولويات، لا سيما نجاحنا في أمور البلديات وإصلاح الأراضي ومكافحة الفقر والبطالة وغيرها من الأمور الحياتية اليومية والاستراتيجية، ما أدى إلى التأثر بالسياسة الإسلامية العادلة للمجتمع المتعدد الأجناس عند غير المسلمين، وطلبوا الانضمام إلى الحزب الإسلامي، وهذا التأثر كان من أواخر عام ١٩٩٠م، لكن الطلب ازداد بعد عام ٢٠٠٠م، وقمنا بالمشاورة بين علماء الحركات الإسلامية في العالم الإسلامي واجتمعنا في بريطانيا وبحثنا إشراك غير المسلمين في الحزب الإسلامي، واتفقنا على جواز قبول غير المسلمين في الحزب؛ بحجة الاستعانة من حيث ترجيح الأدلة، ورجعنا إلى ماليزيا بعد النقاشات في داخل الحزب وقمنا بتعديل دستور الحزب بوجود عضوية من غير المسلمين بلجنة خاصة برئاستهم والمستشار من المسلمين.

البيان: هذا الكلام يا شيخ يقودنا إلى السؤال عن الهيكل التنظيمي للحزب؟

نعم، فالهيكل التنظيمي يتكوّن من لجنة مركزية منتخبة من قبل المؤتمر العام الذي ينعقد كل سنتين ويتفرع من اللجنة إلى دواوين: ديوان العلماء، وديوان الشباب، وديوان للمسلمات، ولجنة خاصة لمجموعة غير المسلمين. وللحزب مجلس شورى يعيّن من اللجنة المركزية من بين العلماء المعتبرين الراسخين في الحركة من أعضاء الحزب، حيث يتكوّن من أربعة من القادة واثنين من علماء الشباب واثنين من علماء المسلمات، ثم هؤلاء يختارون أربعة منهم متخصصين كأعضاء في مجلس شورى العلماء، وهذا المجلس له مكانة خاصة وقراراته ملزمة؛ لضمان استقامة الحزب على نهج الشريعة الإسلامية المنصوصة في دستور الحزب.

وفي الحزب هيئات إدارية، وهناك لجنة شؤون سياسية للحزب مشكلة من اللجنة المركزية والشباب والمسلمات المعيّنين ولجنة التربية والإعلام والعمال والطلبة... وغيرها.

ولجنة السياسة لتخطيط استراتيجية الحزب ومجلس شورى العلماء مرجعية عليا وقراراته ملزمة.

البيان: ماليزيا لم تتأثر بالربيع العربي.. ما السبب من وجهة نظركم؟

هناك خصوصية لماليزيا من حيث

الكثافة السكانية وتوزيعهم في المدن والأرياف، وهي تختلف عن الوطن العربي، ولذلك الربيع العربي يتأثر بالإعلام الجديد، أما نحن فلا نستطيع الإفادة في القرى والأرياف، لكنها أكثر تأثراً من حيث الصحوة الإسلامية؛ من ٨٠-٢٠٠٠م كان انتشارنا في المدن وضواحيها، لا سيما في الولايات ذات الأكثرية الإسلامية، والتي تمثل مدن شمال وشرق ماليزيا، لكننا بدأنا حراكاً تغيّرياً قبل حدوث الربيع العربي، ونفذنا اعتصامات ووقفات ضد السياسات الخاطئة للدولة، وقامت بتصحيح بعضها بفعل هذا الحراك، كما أننا في كل مرة نحقق مكاسب انتخابية ومن خلالها يتم عمل وإحداث تغيير للأفضل.

البيان: الفساد السياسي في ماليزيا هل ينحسب على أداء العملية والفاعلية الانتخابية؟

هذا لا يختلف عليه اثنان، ولو كانت الانتخابات نزيهة لشكلنا الحكومة منذ زمن ولما بقي حزب «أمنو» يحكم ماليزيا من الخمسينيات، فعلى سبيل المثال انتهجت استراتيجية للتزوير الواضح منذ الستينيات إلى الآن، وفي تقسيم الدوائر الانتخابية الدستورية مثلاً يحتاج إلى التغيير لكل عشر سنوات لازدياد عدد الناخبين الجدد، لكن الولايات ذات الكثافة الإسلامية تبقيها على حالها، فلكل دائرة مائة ألف ناخب كما حصل مؤخراً في ولاية كلانتان وترنجانو وقدح، فقد قامت الحكومة بإعادة تخطيط السكان لكل دائرة انتخابية بإعادة التموضع الديمغرافي ببناء مساكن ومجمعات لغير المسلمين في هذه المناطق والدوائر، أما في الولايات الجنوبية فلكل دائرة ١٢ ألف ناخب فقط، كما أن تكرار التصويت وعدم تعديل سجلات الناخبين واستخدام المال العام والوظيفة العامة والإعلام وبثّ الإشاعات؛ كلها وسائل أيضاً للفساد تستخدم ضدنا، وماليزيا التي تصنع شيفرة الكمبيوتر والتقنية العالية كما تسمعون في البلاد العربية، لا يوجد فيها حبر للناخبين، وتخيّل معي كيف ستكون الانتخابات نزيهة إذا كانت تفتقد مثل هذه المعايير؟ (وأخيراً تم الضغط على الحكومة لتوفير الحبر الفسفوري بمواصفات تتطبق مع المعايير الدولية).

البيان: المعركة السياسية تدار بأدوات منها الإعلام بمختلف وسائله، فهل يمتلك الحزب الإسلامي مثل هذه الأدوات في إدارة العملية الانتخابية والدعائية؟

مع الأسف الدولة لا تسمح بإنشاء قنوات فضائية، والجرائد والمجلات والإعلام تخضع لسلطة الدولة، ولعلك لاحظت أنه لا توجد أجهزة لاقطة للأقمار الصناعية في أسطح منازلنا، وإنما تقوم الحكومة ببيع البث بالاشتراكات الشهرية للمواطنين، وليس لدينا إلا المحاضرات والندوات بترخيص من الشرطة وبصعوبة، لكن نتجاوز القانون أحياناً أسوة بتجاوز الحزب الحاكم.

وللحزب الإسلامي صحيفة داخلية مرخصة للأعضاء فقط، وأما الحزب الحاكم فيستخدم الإعلام الحكومي وغير الحكومي المرخص بأكمله.

البيان: الشباب هم عماد الأمة ومصدر نهضتها، فكم يمثل الشباب في خريطة العمل التنظيمي والسياسي للحزب الإسلامي؟

منذ السبعينيات ركزنا على الشباب عندما كنا في الحكومة، وانتصرنا في انتخابات اتحادات الطلاب بهؤلاء الشباب الذين تخرجوا من الدول العربية والغربية في مختلف التخصصات العلمية والمهنية من الجنسين، وهم المسؤولون الآن، بل كثير منهم رؤساء فروع الولايات، ولذلك السبب نصف قادة الحزب من الشباب، وفي هيكلة الحزب كما أسلفنا ديوان خاص بالشباب، وللحزب استراتيجية في الابتعاث سنوياً ومحاضن التربية والتعليم في الداخل كذلك، ومنها يخرج القادة من الشباب.

البيان: ما التصنيف الأيديولوجي الذي يمكن أن نصف به الحزب الإسلامي الماليزي؟

نحن مسلمون والحمد لله وننتهج الوسطية كدين نتعبّد الله به، أما من حيث التربية التي نلزم بها أعضاءنا فقد استفدنا من كل الحركات الإسلامية وبما يتناسب مع الخصوصية للشعب الملايوي المحافظ؛ فأخذنا من حركة الإصلاح والتجديد منذ بداية القرن الماضي وجماعة الإخوان المسلمين طريقة التنظيم، ومن جماعة التبليغ أسلوب الدعوة العامة، واستفدنا من الجماعة الإسلامية في باكستان ومن حزب الرفاه التركي والأحزاب السياسية الإسلامية في الدور السياسي، ولدينا طلابنا في الجامعات السعودية، فنحن سلفيون، لكننا نترجم العمل الإسلامي على حسب الواقع في مجتمعنا.

نحن لا ندَّعي الريادة في الفكر الإسلامي، لكننا نتعاون مع جميع الحركات الإسلامية التي تشاركنا الهدف ونتفق معها على سلامة الوسائل.

في عضوية الحزب كان بعض المتأثرين بالحركات الإسلامية، مثل حزب التحرير والإخوان، وحصلت مناقشات كثيرة وعقدت ندوات وورش عمل حتى استطعنا توحيد جبهة العمل الإسلامي، ولهذا تجد الحزب الإسلامي هو الحزب الإسلامي الوحيد في ماليزيا.

البيان: هل تتعاونون مع الجماعات الدعوية في العالم الإسلامي؟

بكل تأكيد، فالمسلمون تتكافأ دماؤهم، فقد شكلنا لجنة للتنسيق بين الجماعات الإسلامية في العالم، مع تفهم ظروف كل جماعة وخصوصية كل بلد وظروفها الاجتماعية والاقتصادية.. تذكرت عندما كنت طالباً في السعودية وعندما خرج محمد قطب من السجن أيام الملك فيصل، اجتمعنا معه في أسره، سئلَ ما أول بلد يمكن أن يكون قاعدة للعمل الإسلامي، قال الأستاذ: لكل واحد منكم أن يكون في بلاده وأن تكون هي الرائدة.

البيان: هل تقدمون أنفسكم على أنّكم جماعة المسلمين؟

لا لا إطلاقاً، فنحن لا نقدم أنفسنا على أننا جماعة المسلمين، لكننا من جماعة المسلمين، ونشكّل مع إخوتنا داخل وخارج ماليزيا جماعة المسلمين، فلا يمكن لجماعة أو حزب أو فئة أن تقدم نفسها على أنها جماعة المسلمين.

البيان: في ضوء نتائج الانتخابات الأخيرة، هل أنتم راضون عن هذه النتائج، ومدى تقبلكم لها؟

إن تحالف الوفاق الشعبي المكوّن من الحزب الإسلامي وحزب عدالة الشعبي وحزب الحركة الديمقراطية؛ لا يعترف بنتيجة الانتخابات الأخيرة؛ لعدم نزاهتها وانعدام الشفافية، فالتزوير واضح، إلى جانب تسخير إمكانات الدولة المختلفة من إعلام ومال عام ووظيفة عامة في خدمة الجبهة الوطنية الحاكمة، والذي ساعد على هذا الأمر أن الانتخابات لا تزال على النظام البريطاني الذي يعتمد النتيجة على حسب الدوائر المحلية لا على حسب عدد الناخبين، مع هذا حصلنا على نسبة أكثر من الناخبين (٥٠٪)، وازدادت عدد مقاعد التحالف الشعبي، غير أنها لا تكفي لتشكيل الحكومة، كما أنها أفقدت الجبهة الحاكمة أغلبية الثلثين في البرلمان، كذلك استطاع الحزب الإسلامي الحفاظ على ولاية كلانتان وزيادة ساحقة في ترنجانو ونسبة التأييد أكثر من أمنو، لكنها ناقصة بنسبة مقعد واحد فقط.

وتمكنا من الدفاع عن ولاية سلانجور بصعود الحزب الإسلامي فيها وزادت عدد المقاعد في مجلس ولاية جوهور، وبالمقابل خسرنا ولاية قدح.

البيان: وعسى أن يكون الخير كامناً في الشر، فالإحصائيات الحالية تدل على تقدم المعارضة بنسبة أكبر جداً.. هل رصدتم خروقات جوهرية في إجراءات العملية الانتخابية أدت إلى هذه النتائج؟

نعم، رصدنا ممارسات لا تمت للديمقراطية بصلة، بل تؤثر في شرعية أي حكومة قادمة، لكن الحمد لله المعارضة متعقلة وتغلّب دائماً مصلحة الشعب الماليزي والحفاظ على السلم والأمن الاجتماعي بشكل مباشر، وفوق أي مصلحة.

البيان: كان تحالف الوفاق الشعبي من أجل تشكيل ضغط انتخابي على الحزب الحاكم وتشكيل حكومة ائتلافية في حال الفوز، لكن في ظل هذه النتائج التي منحت الحزب الحاكم أغلبية المقاعد في البرلمان وفي الحكومات المحلية، ما مستقبل تحالف المعارضة، وهل سيستمر؟

إن شاء الله سيستمر طالما بقيت الأسباب التي دعت إلى وجوده قائمة. ولقد عرض علينا ترك هذا التحالف ومشاركة الحزب الحاكم في الحكومة القادمة، وسنطور آليات التعاون ضمن أحزاب هذه الجبهة لتحقيق الأهداف المشتركة والخروج بالبلاد إلى بر الأمان إن شاء الله تعالى. وفي هذه المناسبة أشكر كل الناخبين الذين صوّتوا لصالح الحزب الإسلامي ولكل جبهة المعارضة، ونقول لمحبينا تقبّلوا الواقع مع الشكر والصبر وتأكدوا أن وعد الله سيأتي بكل تأكيد.

مرصد الأخبار

عمرو عبد البديع(*)
amro@albayan.co.uk

«حماس» ستراقب «كل من يسهم في خفض مستوى الرجولة»

أعلن وزير الداخلية، فتحي حماد، في الحكومة التي تقودها حركة «حماس»، أن أجهزته الأمنية «ستراقب كل من يسهم في إخفاض مستوى الرجولة» في قطاع غزة، في إشارة إلى انتشار المظاهر الشبابية غير المنسجمة مع الطابع المحافظ للمجتمع الغزاوي. وقلَّل من أهمية انتقادات منظمات حقوق الإنسان في هذا الشأن. وقال «لن نحسب حساباً لكل حقوق الإنسان التي تتلقى أموالاً. لا بد أن تراجع. ولا أقول إنها كلها مشبوهة».

وأضاف: «من حاول أن يخترق ثغرة الرجال عليه الترحال. لا مكان له بيننا. ولدينا أساليبنا الخاصة التي سنطبقها».

وقال: «نشكر جهاز الأمن الوطني الذي شارك بكل قوة في الفتوة تدريباً، وكذلك لإعلاء مستوى الرجولة»، متابعاً: «رجالنا وشبابنا ومجاهدونا ونساؤنا وكذلك فتياتنا في المدارس والجامعات وشبابنا في المدارس في الفتوة؛ على قلب رجل واحد». (الحياة: ٢٠١٣/٥/٢٢)

مليون لغم في الجولان المحتل

نقل الموقع الإخباري «بازام» عن أحد الضباط الكبار في سلاح الهندسة التابع لجيش الاحتلال الإسرائيلي، معلقاً على حادثة مقتل الجندي الإسرائيلي في انفجار لغم في هضبة الجولان قبل يومين، بالقول «على ما يبدو فإن الحادث ناتج عن خطأ تقني أدى لانفجار اللغم عندما أراد الجندي معالجته».

وخلال مقابلة الموقع مع نائب رئيس قسم إخلاء الألغام في وزارة الجيش العقيد «مارسل أبيب»، أكد أنه من المبكر الحكم على نتائج حادث الانفجار الذي أودى بحياة الجندي، مشيراً إلى أنه يوجد ما يقارب الـ ٢ مليون لغم في المنطقة الشمالية، نصفها موجود في هضبة الجولان.

وأضاف الضابط أن العدد الحقيقي غير معروف، لافتاً إلى أن الجيش يعلم عن وجود آلاف من حقول الألغام في الجولان، مشيراً إلى أنها تحتوي على أكثر من مليون لغم من أنواع مختلفة ضد الأفراد وضد الدبابات، موضحاً أن جزءاً منها عمرها عشرات السنوات كان قد وضعها السوريون قبل حرب الأيام الستة. (مركز عكا: ٢٠١٣/٥/٢٣)

مثلث الشريعة في هولندا وقيام «الخلافة الصغرى»

يخضع جزء من حي «شخيلدرزفايك» في لاهاي لحكم «الشريعة الإسلامية». هذا ما خلصت إليه يومية «التراو» في عددها ليوم السبت ١٨ مايو. وسريعاً تلقَّف الإشارة السياسي المثير للجدل خيرت فيلدرز، المعادي للإسلام والأجانب، وطالب البرلمان بنقاش عام للقضية، كما وعد سكان الحي بزيارة دعم ومساندة.. «صحيح هناك بعض مظاهر التزمّت في الحي، ولكن الحديث عن تطبيق الشريعة أمر فيه مزايدة سياسية»، يقول أحد سكان الحي. (الإذاعة الهولندية: ٢٠١٣/٥/٢٣)

بريطانيا تمنح ٦٠٠ مترجم أفغاني حق الإقامة

قرَّرت الحكومة البريطانية منح ٦٠٠ مترجم أفغاني عملوا مع قواتها في أفغانستان، حق الإقامة في المملكة المتحدة، ومنح تعويضات لمترجمين آخرين فضّلوا البقاء في بلادهم. (الإسلام اليوم: ٢٠١٣/٥/٢٢)

(*) نرحب بمقترحاتكم البنَّاءة في باب مرصد الأحداث على بريد الكاتب.

«CIA»: الأسد سيفوز في الانتخابات القادمة بنسبة ٧٥٪!

أفاد تقرير أعده جهاز CIA حول الأوضاع في سورية، بأن الرئيس السوري بشار الأسد سيحصل على ٧٥٪ من أصوات الشعب السوري في حال ترشّحه للانتخابات الرئاسية السورية التي ستجري في العام المقبل ٢٠١٤، وسيستمر بذلك برئاسة سورية للعام ٢٠٢٠.

(إكسبريس إف. إم: ٢٠١٣/٥/١٦)

مرشدات يهوديات يطالبن بـ «حرق العرب»!

مرشدات من حركة الشبيبة الدينية القومية اليهودية «عزرا»، كتبن شعاراً على قمصانهن «نحرق العرب من أجل التربية الصالحة». وقال إسرائيلي: شاهدت رسومات على القمصان إضافة إلى كتابة يظهر فيها صبي يهودي يحرق عربياً.

(معاريف: ٢٠١٣/٥/١٩)

فلسطينيات يلعبن كرة القدم في «تل أبيب»!

نشرت القناة الأولى الإسرائيلية تقريراً حول نشاط رياضي «تطبيعي» في تل أبيب، بين شبان فلسطينيين وإسرائيليين، من مختلف الأعمار، ومن كلا الجنسين، وأن هذه الفعالية جاءت بدعم وتمويل من الاتحاد الأوروبي، وهناك خطط أخرى لتنظيم عدة فعاليات في المستقبل القريب.

وذكر التقرير أن ستة فرق من الشبان والفتيات الفلسطينيين والإسرائيليين، شاركوا في الفعالية الرياضية بمدينة «حولون»؛ في محاولة لجمع شمل الجانبين – على حد تعبير القناة.

وقالت إسرائيل: إن ما حدث يعكس الرغبة الحقيقية لدى الشباب الفلسطيني في العيش بسلام مع جيرانهم الإسرائيليين، وهذه هي الرسالة الحقيقية لكرة القدم، وهي «نشر السلام بين الشعوب».

(وكالة رم للأنباء: ٢٠١٣/٥/١٤)

ضرائب على القبور لسدّ عجز ميزانية «إسرائيل»!

تتجه تل أبيب إلى اعتماد سياسة تقشف لتقليص الإنفاق الحكومي بنحو سبعة مليارات دولار بمختلف المجالات، كما ستطرح لأول مرة «ضريبة الجمجمة»، وضرائب أخرى؛ يمكن أن تحقق خمسة مليارات دولار سنوياً، وذلك سعياً لخفض العجز.

(الجزيرة: ٢٠١٣/٥/١٩)

زواج المثليين أصبح مشروعاً في فرنسا!

يمكن لمثليي الجنس في فرنسا الارتباط بعلاقة زواج رسمية، بعدما وقع الرئيس، فرانسوا هولاند، قانوناً يسمح للمثليين بالزواج والتبني، لتصبح بلاده تاسع دولة أوروبية تسمح بهذا الزواج.

(سي إن إن: ٢٠١٣/٥/١٨)

السجن ١٠ سنوات لكاهن بريطاني ارتكب ٣٦ «جريمة جنسية»!

أصدرت محكمة بريطانية حكماً بالسجن لمدة ١٠ سنوات بحق كاهن؛ لإدانته بـ «انتهاك أطفال جنسياً»، خلال عقدي الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي.

وأدانت محكمة التاج في بلدة لويس الواقعة جنوب شرق إنكلترا، الكاهن غوردون رايداوت (٧٤ عاماً)، بارتكاب ٣٦ جريمة منفصلة من الجرائم الجنسية خلال الفترة بين ١٩٦٢ و١٩٧٣ في مقاطعتي هامبشاير وساسكس.

(الحياة: ٢٠١٢/٥/٢١)

تعداد وتوزيع الفلسطينيين في العالم والأراضي الفلسطينية

أصدر جهاز الإحصاء المركزي الفلسطيني تقريراً مفصلاً بمناسبة إحياء ذكرى النكبة الـ ٦٥، عن أرقام تعداد وتوزيع الفلسطينيين في العالم والأراضي الفلسطينية منذ عام ١٩٤٨ حتى نهاية العام الماضي، مستعرضاً أوضاع الشعب الفلسطيني من خلال الأرقام والحقائق الإحصائية.

وأشار التقرير الإحصائي إلى أن عدد الفلسطينيين عام ١٩٤٨ كان يبلغ ١,٣٧ مليون نسمة، في حين قدر عدد الفلسطينيين في العالم نهاية عام ٢٠١٢ بنحو ١١,٦ مليون نسمة، وهذا يعني أن عدد الفلسطينيين في العالم تضاعف ٨,٥ مرة منذ أحداث نكبة ١٩٤٨، موضحاً أن عدد الفلسطينيين المقيمين حالياً في فلسطين التاريخية (ما بين النهر والبحر) بلغ عددهم نحو ٥,٨ مليون نسمة، ومن المتوقع أن يبلغ عددهم نحو ٧,٢ مليون نسمة بحلول نهاية عام ٢٠٢٠، وفق معدلات النمو الحالية.

وأظهر التقرير أن نسبة اللاجئين الفلسطينيين في فلسطين تشكل ٤٤,٢ ٪ من مجمل السكان الفلسطينيين المقيمين بها، كما بلغ عدد اللاجئين المسجلين لدى وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين «الأونروا» منتصف عام ٢٠١٣، نحو ٥,٣ مليون لاجئ فلسطيني، يشكلون ما نسبته ٤٥,٧ ٪ من مجمل السكان الفلسطينيين في العالم، منتشرين بواقع ٥٩ ٪ في كل من الأردن وسورية ولبنان، و١٧ ٪ في الضفة الغربية المحتلة، و٢٤ ٪ في قطاع غزة، ويعيش نحو ٢٩ ٪ من اللاجئين الفلسطينيين في ٥٨ مخيماً موزعة بواقع ١٠ مخيمات في الأردن، و٩ بسورية، و١٢ بلبنان، و١٩ بالضفة الغربية، و٨ مخيمات في قطاع غزة.

وتمثل هذه التقديرات الحد الأدنى لعدد اللاجئين الفلسطينيين باعتبار وجود لاجئين غير مسجلين، إذ لا يشمل هذا العدد من تم تشريدهم من الفلسطينيين بعد عام ١٩٤٩ حتى حرب يونيو ١٩٦٧، حسب تعريف وكالة الغوث للاجئين، كما قدر عدد السكان الفلسطينيين الذين لم يغادروا وطنهم عام ١٩٤٨ بنحو ١٥٤ ألف فلسطيني، في حين يقدر عددهم في الذكرى الـ ٦٥ للنكبة بنحو ١,٤ مليون نسمة، بينما يبلغ عدد السكان في فلسطين نحو ٤,٤ مليون نسمة، منهم ٢,٧ مليون في الضفة الغربية، ونحو ١,٧ مليون في قطاع غزة، وفي محافظة القدس يبلغ عدد الفلسطينيين بها نحو ٤٠٠ ألف نسمة.

وحول أعداد الأسرى والشهداء الفلسطينيين، تشير الإحصائيات إلى أن عدد الشهداء منذ بداية انتفاضة الأقصى حتى الآن بلغ ٧٧٦٦ شهيداً، وتوضح الأرقام أن عدد الشهداء نهاية عام ٢٠٠٩ بلغ ٧٢٣٥ شهيداً، منهم ٢١٨٣ شهيداً في الضفة الغربية، وفي قطاع غزة ٥٠١٥ شهيداً، والباقي من أراضي عام ١٩٤٨ وخارج فلسطين، ويشار إلى أن عام ٢٠٠٩ كان أكثر الأعوام دموية، حيث سقط فيه ١٢١٩ شهيداً، يليه عام ٢٠٠٢ حيث بلغ عدد الشهداء فيه ١١٩٢ شهيداً، بينما استشهد في حرب غزة الأخيرة ١٨٩ شهيداً.

وأشار تقرير إحصائي حول أعداد الأسرى الفلسطينيين أصدرته وزارة شؤون الأسرى والمحررين، إلى أن قوات الاحتلال الإسرائيلي اعتقلت منذ عام ١٩٦٧ حتى الآن قرابة ٨٠٠ ألف أسير وأسيرة، بينهم قرابة ١٢ ألف أسيرة وعشرات الآلاف من الأطفال، بحيث لم تعد هناك عائلة فلسطينية إلا وتعرّض أحد أو جميع أفرادها للاعتقال، وهناك من تكرر اعتقالهم مرات عديدة. وتظهر البيانات أن ما يقارب من ٤٩٠٠ أسير ما زالوا قابعين في سجون ومعتقلات الاحتلال الإسرائيلي، بينهم عشرات الأسرى العرب من جنسيات مختلفة، كما يوجد ١٤ أسيرة، و٢٣٥ طفلاً، ويشكلون ٤,٨ ٪ من إجمالي عدد الأسرى، ومن بين الأسرى ٧٧ أسيراً مضى على اعتقالهم ٢٠ عاماً، وهناك ٢٥ أسيراً مضى على اعتقالهم ربع قرن وما يزيد.

كما يتضح من البيانات أنه ومنذ بدء انتفاضة الأقصى في عام ٢٠٠٠، سجلت أكثر من ٧٨ ألف حالة اعتقال، بينهم قرابة ٩ آلاف طفل، و٩٥٠ أنثى، منهن أربع نساء وضعن مواليدهن داخل السجن، ومن بين المعتقلين عشرات النواب والوزراء السابقين، كما صدر أكثر من ٢٣ ألف قرار اعتقال إداري ما بين اعتقال جديد وتجديد اعتقال.

مرصد الأرقام

كشف استطلاع للرأي أجرته مؤسسة جالوب الأمريكية، عن أن ٥٧٪ من المصريين قالوا إنهم يولون ثقتهم للمؤسسات المصرفية والاقتصادية خلال عام ٢٠١٢، بينما قال ٢٦٪ إنهم لا يثقون بتلك المؤسسات، ورفض ١٨٪ الإدلاء برأي محدد. (التغيير: ٢٠١٣/٥/٢٠)

١,٤ مليار جنيه من الموازنة العامة لمشروعات تنمية الصعيد.. «وزير التخطيط والتعاون الدولي المصري عمرو دراج».

(الشروق: ٢٠١٣/٥/٢٠)

كشف تقرير عن أن تكلفة مراقبة مؤسس موقع ويكيليكس الذي يتخذ من سفارة الإكوادور في لندن ملجئاً سياسياً له، تكلف دافعي الضرائب البريطانيين ٤,٢ مليون جنيه استرليني.

(صنداي تايمز: ٢٠١٣/٥/٢٠)

يستقبل موقع يوتيوب أكثر من مليار شخص شهرياً، ويمثل هذا الرقم نصف مستخدمي الإنترنت في العالم، وأكثر من ٤ مليارات ساعة فيديو تتم مشاهدتها على يوتيوب شهرياً، كما أنه يتم رفع ٢٧ ساعة كل دقيقة على يوتيوب، وتوجد ٣٥ نسخة محلية من يوتيوب متاحة بـ ٦١ لغة.

(الشروق: ٢٠١٢/٥/٢٠)

تشير الإحصاءات إلى تراجع عدد المسيحيين في بريطانيا إلى نحو ٣٣ مليون نسمة، لتصل نسبتهم إلى ٥٩٪ بعد أن كانت ٧١,٧٪ في السنوات العشر الماضية.

وارتفعت أعداد المسلمين إلى ٢,٧ مليون نسمة لتصل نسبتهم إلى ٥٪ من إجمالي السكان.

وإنه من بين كل عشرة مواطنين بريطانيين دون سن الـ ٢٥ يوجد بريطاني مسلم.

(الأهرام: ٢٠١٢/٥/٢٠)

تغريدات

محمد عبدالله الوهيبي

@mohammadalwh

لن ينكسر المشروع الصفوي بمن يواجهونه بالأساليب السياسية فقط، لن يهزمه إلا من يحملون مشروعاً عقدياً يفضح توجهاته وخداعه وأهدافه.

د. عبد الكريم بكار

@Drbakkar

أهل القصير الأبيّة استقبلوا شيعة لبنان عام ٢٠٠٦ في بيوتهم وقاسموهم الرغيف، واليوم الندل حسن نصر الله يرسل من يذبح أطفالهم!

عبدالعزيز الطريفي

@abdulaziztarefe

القائد يحتاج إلى الناصح أكثر من المادح؛ لأن فساد الدول بغلو المادحين أكثر من فسادها بغلو الناصحين.

ياسر الزعاترة

@YZaatreh

استبعاد رفسنجاني ومشائي يشكّل ضربة لنجاد واستخفافاً بالشعب في آن. سيتفق جماعة المرشد على مرشح، بينما يبقى حسن روحاني كمرشح إصلاحي بأمل محدود.

أحمد الصويان

@Asowayan

من قواعد المحدثين: أن كلام الأقران بعضهم في بعض لا يُعبأ به، خاصة إذا تبيّن أنه عن حسد أو عصبية، ألا ترون أن كلام الجماعات المعاصرة من هذا الباب؟!

محمد صالح المنجد

@almonajjid 20 May

الله تعالى يستخرج بسنّة المدافعة جهاداً وبذلاً وصدقة ودعاء وثباتاً وبطولة وتعاوناً واجتماعاً وأوبة وتضرعاً وإنابة ما كانت لتحصل لولا هذه المدافعة.

نظرة معاصرة إلى أيام العرب
وحالة انفراط السلام

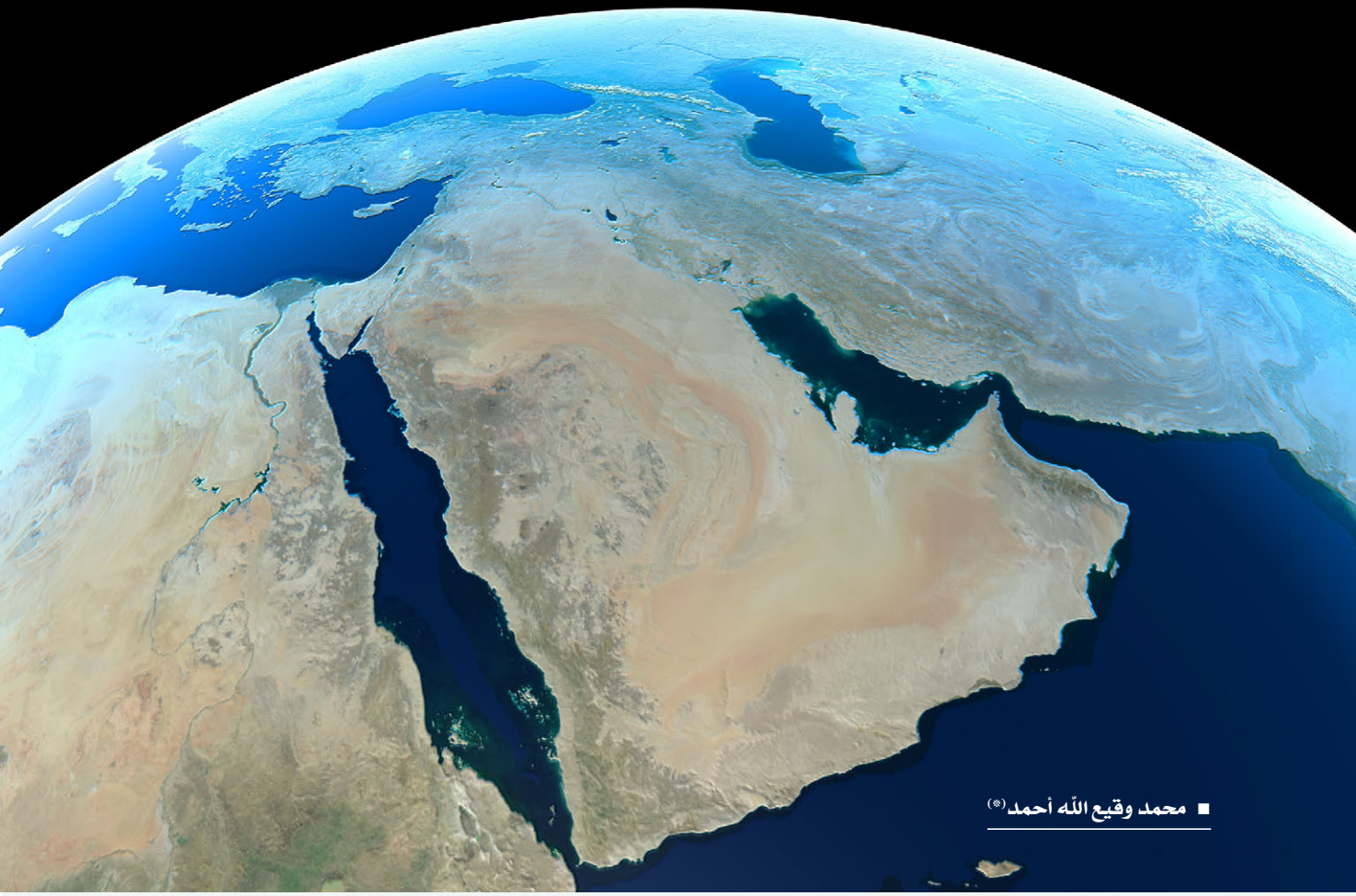

■ محمد وقيع الله أحمد(*)

تمهيد:

اتسم العصر الجاهلي بأنه عصر نزاعات استفاضت بها أيام العرب المشهورة التي خلدها التاريخ أمثلة للحروب التي تثيرها الحماقات، وتُضرِم نيرانها كلما خبت التِّرات والثأرات.

وبذا ظلت حالة الحرب هي الحالة الأصل في الحياة الجاهلية، ولم تتخللها إلا حالات سلام معدودة: «فقد تفرقت القبائل العدنانية بأحيائها وبطونها وقبائلها.. وكان كل منها مستقلاً بأحكامه وأعماله، يتخاصمون، ويتحاربون، على ما تقتضيه طبيعة البداوة، ويندر أن يجتمعوا تحت راية واحدة، يدلك على ذلك أنهم لم يجتمعوا في الجاهلية كلها إلا ثلاث مرات»(١).

(*) جامعة خليفة للعلوم والتكنولوجيا والبحوث، الشارقة – الإمارات العربية المتحدة.

(١) جورجي زيدان، العرب قبل الإسلام، (القاهرة)، دار الهلال، ٢٠٠٦م، ص ٢٥١. وقد ذكر ابن الأثير تفصيل ذلك، الكامل في التاريخ، ١٤١٥هـ، ص ٤٠٠.

هـــذا ما حققه المؤرخـــون، ومنه يمكن القـــول إن تلك الحروب هي أبرز ما في ســـجلات وصحائف تاريخ العرب، قبل الإسلام. وكانت هذه الحروب بعض أهم الأغراض التي دارت عليها قصائد الشعر الجاهلي ومقطوعاته التي نعتمد عليها في التصوير والتوثيق.

لكن لا بد من التنويه إلى أن العصر الجاهلي لم يخلُ من متأملين اســـتبطنوا أحواله بعمق وحذق، وخرجوا بالعظات التي عبروا عنها في شـــعر جزل منيف.. بيد أن الشـــعر لم تكن له فائدة عملية في أخذ الناس إلى ناحية الســـلام؛ لأن الشـــاعر ليس نبياً، ولا صاحب سلطان يفرض به ما ينصح به للناس.

ولما جاء الإســـلام هرع الناس إليه؛ لأنه جاء بما شجب عهود الفوضـــى، وجاء بالآلة التنفيذيـــة التي تفرض واقع السلام.

ولم يستغرب أن تكون أول المجتمعات استجابة للإسلام أكثرهـــا تعرّضاً لنيـــران الحروب، وهـــي جماعات الأوس والخزرج التـــي انخرطت فـــي الحروب التـــي كادت تبيد خضراءهم وتأتي عليهم أجمعين.

١ مظاهر انفراط السلام في الحياة الجاهلية:

وأيام العرب هي أبرز مظاهر انهيار حالات السلام في مجتمعاتهم. وقد نقل ابن منظور عن ابن السكيت أن العرب كانـــت تطلق لفظ الأيام في معنـــى الوقائع، وقد زادت، كما روى أبو الفرج الأصبهاني، عن ألف وسبعمائة يوم.

ومن أشـــهرها: حرب البسوس، وكان ســـببها أن ناقة كســـرت بيض حمام، ويروي لنا القلقشـــندي القصة ببعض التفصيل، فيقول: «يوم البســـوس، وهـــو من أعظم حروب العرب، كان بين بَكر بن وائل، وتَغلب بن وائل. وكان للبسوس، خالة جســـاس، ناقة، فرآها كليب بن ربيعة قد كسرت بيض حمام في حماه كان قد أجاره، فرمى ضرعها بســـهم، فوثب جســـاس على كليب فقتله، فهاجت الحروب بســـبب ذلك، ودامت بين الفريقين أربعين سنة»[١].

فسبب الحرب التي دامت أربعة عقود هي ناقة لا بشر، ومع ذلك أُخذ البشـــر بجريرتها، ولـــم تكن تلك إلا حماقة من حماقات الجاهلية، واستعدادها لخوض الحروب لأدنى التعـــلات. وأما نتائج الحرب فقد تمثلت في إهلاك مقاتلي القبيلتين، وفي طليعتهم قادتهم الكبار، وإضعاف القبيلتين، إذ قل عدد أفرادهما بالموت أو الهجرة إلى البحرين. وأطمع ضعف القبيلتـــين الأحباش، فأعدوا العـــدة للغزو، وأخذوا اليمن، وتهيّأوا للزحف على بقية أرض العرب[٢].

وفـــي هذه الغضون ظـــل العرب يتقاتلـــون، واحتدمت المعـــارك بين تميم من مضر وبكر بـــن وائل من ربيعة، رغم جوارهما في الأرض، أو ربما بسبب ذلك الجوار، الذي قاد إلى التنازع حول المرعى، ونشـــبت بين القبيلتين ١٢ معركة حامية، انتصرت تميم في نصفها، وبكر في النصف الآخر.

ومن أشـــهر الأيام: ذي طلوح، ولم يكن سببه سوى سوء تفاهم يسير؛ وذلك أن عميرة بن طارق اليربوعي، التميمي، تزوج مرية بنت جابر العجلي البكرية: «وكان له في بني تميم امرأة أخرى، تعرف بابنة النطف، من بني تميم، فأتى أبجر أخته يزورها وزوجها عندها. فقال لها أبجر: إني لأرجو أن آتيـــك بابنة النطف امرأة عميرة. فقـــال له: ما أراك تبقي علي حتى تسلبني أهلي. فندم أبجر، وقال له: ما كنت لأغزو قومك، لكنني مستأســـر في هذا الحي من تميم»[٣]. وهكذا قاد سوء تفاهم يسير، كان بالإمكان تداركه، إلى قتال عنيف وطيس.

ومن أشـــهر المعارك: يوم الوقيظ ومعركة يوم الشيطين، وهما واديـــان خصيبان كانا لبكر بن وائل.. ويوم المشـــقر، أو الصفقة، بين فارس وتميـــم. ويوم الفِجار، ونقل صاحب السيرة الحلبية، عن ابن سعد، قال: قال رسول الله ﷺ: «قد حضرته مع عمومتي، ورميت فيه بأســـهم، وما أحب أني لم أكن فعلت». وقد كان لرســـول الله ﷺ من العمر حينها أربع عشرة ســـنة. قال الحلبي: وهذا الفجار الرابع، وهو فجار البرّاض.

وذكر الحلبي خبر يوم الفِجار الأول، وســـببه، فقال: إن رجلاً يقال له بدر بن معشر الغفاري جلس يوماً بسوق عكاظ، وبســـط رجله، قائلاً: أنا أعز العرب، فمن زعم أنه أعز مني فليضربها بالســـيف. فوثب عليه رجل فضربه بالسيف على ركبته، وأســـقطها. واقتتل القوم على أثر ذلك قتالاً شديداً. وحينذاك كان لرسول الله ﷺ من العمر عشر سنين.

ومن أشـــهر أيام العرب: يوم بُعـــاث، وقد جاء ذكره في حديث عائشـــة – رضي الله عنهـــا – قالت: «كان يوم بُعاث يوماً قدَّمه الله لرسوله ﷺ، فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق

(١) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م، ص ٦٤.

(٢) دراسات في تاريخ العرب: عصر ما قبل الإسلام، دار المعارف، ١٩٦٧م، ص ٣٧٨.

(٣) الكامل في التاريخ، ١٤١٥هـ، ج/ ١، ص ٢٠٩.

ملؤهم، وقتلت ســـرواتهم، وجرحوا، فقدَّمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإســـلام»[1]. وقد كان من تقاليد العرب أن الشخص الأصيل لا يقتل بالشخص الحليف؛ ولذلك لما قتل رجل مـــن الأوس حليفاً للخـــزرج أرادت الخزرج أن يقيدوه فامتنعوا، فوقعت عليهم الحرب لهذا الســـبب»[2]. وقيل إن حرب بعاث دامت أكثر من مائة سنة.

هذه نمـــاذج من أيام العـــرب ومآلاتها ذكرناهـــا باختصار، وأخبارها منثورة في مراجـــع تاريخ الجاهلية، وهي أكثر من ألف وسبعمائة يوم، تدلُّ أسبابها، ونتائجها، على مدى اتساع الخرق في الحياة الجاهلية، واتسامها بحالة العداء، وانفراط عقدة السلام.

٢ أسباب انفراط السلام في الحياة الجاهلية:

فمن أســـبابها ما يرجع إلى الطبائع النفســـية العربية، ومنهـــا ما يرجع إلى الظـــروف الاقتصادية، ومنها ما يتعلق بعدم وجود رابطة روحية دينية بين الجاهليين.

ومما يتصل بطبائـــع الجاهليين العدوانية، ذلك القانون التاريخـــي الذي انتبـــه إليه الإمام ابن خلـــدون، وقرر في صياغته لـــه أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أســـرع إليها الخراب؛ وذلك لأن من طبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس، ولأن رزقهـــم في ظلال رماحهم، ولأنه ليس عندهم في أخذ أموال الناس حد ينتهون إليه[3].

فالتعدي واللصوصية لـــم تكن من منكرات الأفعال، بل ربما كانت شرفاً لدى بعض الأقوام، وكان الأخذ بالثأر قانوناً في مقام التجلة والتقديس؛ فلا تسامح، ولا سلام، يقر بين الأقـــوام، وهو الأمر الذي بعثر المجتمعات الجاهلية شـــذر مذر، ومنع نشوء حكومات مستقرة صالحة فيها.

وهـــذا ما حدا بالإمـــام ابن خلدون لأن يصـــوغ قانوناً تاريخيـــاً آخر، يقرر فيه: «إن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية، من نبوة، أو ولاية، أو أثر عظيم من الدين على الجملة. والســـبب في ذلك أنهم لخلق التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعـــض، للغلظة والأنفة وبعد الهمة، والمنافسة في الرئاسة.

فقلما تجتمع أهواؤهم، فإذا كان الدين بالنبوة، أو الولاية، كان الوازع لهم من أنفســـهم، وذهب خلق الكِبر والمنافســـة منهم، فســـهل انقيادهم واجتماعهم، وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والألفة، الوازع عن التحاسد والتنافس.

فإذا كان فيهـــم النبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام بأمـــر الله، ويذهـــب عنهم مذمومات الأخـــلاق، ويأخذهم بمحمودهـــا، ويؤلف كلمتهم لإظهار الحـــق؛ تم اجتماعهم، وحصل لهم التغلب والملك، وهم مع ذلك أســـرع الناس قبولاً للحق والهدى؛ لسلامة طباعهم من عوج الملكات، وبراءتها من ذميم الأخلاق، إلا ما كان من خلق التوحش، القريب المعاناة، المتهيئ لقبول الخير، ببقائه على الفطرة الأولى، وبعده عما ينطبع في النفوس من قبيح العوائد، وسوء الملكات، فإن كل مولود يولد على الفطرة، كما ورد في الحديث»[4].

وفي معرض ذمٍّ قال الحطيئة وهو يعرِّض بإحدى قبائل العرب ويعيِّرها بحفظ الذمم والعهود والامتناع عن الظلم:

قُبَّـيـلـةٌ لا يـغـدِرون بـذمـَّة
ولا يَظلمون النَّاس حبَّة خردل!

وقد اســـتخدم الشـــاعر لفظ التصغير في الإشارة إلى القبيلة إمعاناً في التنكيل بها.

وقد عرف الجاهليون عواقب الحروب حق المعرفة، ومع ذلك لم يتقونها، بل تفاخـــروا بخوض غمارها، والاصطلاء بنارها.. وهذا جساس بن مرة يصف الحرب وهولها فيقول:

تـأهـب مـثـل أهـبـة ذي كـفَـاح
فـإن الأمـــر جـلَّ عـن الـتَّـلاحـي
وإنـــي قـد جـنـيـت عـلـيـك حـربـاً
تُـغِـصُّ الـشـيـخَ بـالمـاء الـقَـراح
مُـذَكَّـــرةً مـتـى مـا يَـصْـح منها
فـتـى نـشـبَـتْ بـآخـر غـيـر صـاح!

ومنهم من خاض أعنف الحروب، لكنه انتهى إلى شجبها، ودعا إلى السلم، ومنهم قيس بن زهير القائل:

يـــود ســنـانٌ لـو نـحـاربُ قـومَـنـا
وفي الحـربِ تفريقُ الجماعةِ والأزلِ
يـــَدبُّ ولا يخفى ليُفسدَ بيننا
دبيباً كما دبَّت إلى حُجرها النَّمل
فيا ابني بغيضٍ راجعا السِّلم تسْلَما
ولا تشمِتا الأعـداء يفترقُ الشَّمل
وإن سـبـيـلَ الحـــربِ وعـــرٌ مضلةٌ
وإن سبيلَ السِّلـم آمـنـةٌ سَهل!

(١) أخرجه البخاري، باب مناقب الأنصار، رقم ٣٥٦٦.
(٢) المرجع السابق، ص ١٤٠.
(٣) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار الفكر، د.ت. ص ١٥٠.
(٤) المرجع السابق، ص ١٥١.

وقد نجمت ظاهرة طلب الثأر بسبب افتقاد المجتمع السلطة، الحكومية، الشرعية، القوية، الملزمة، التي تتولى إنفاذ أحكام القانون؛ ولذلك طفق المظلوم يأخذ القانون بين يديه، وينفذه كيف يشاء، ويوقع أحكام الثأر على من يجده من أهل الظالم، مجانفاً بذلك مبادئ النصفة التي لا تسمح بأن يؤخذ بريء بجريرة مجرم.

واتخذت قضية الثأر بُعداً اجتماعياً مهماً في حياة الجاهليين، فما برحوا يحرّمون على أنفسهم متع الحياة وزينتها، وتضخمت قضية الثأر في ضمائر الجاهليين، حتى غدت عقيدة لا يمترون في صحتها. وفحوى تلك العقيدة أن طائراً يقبل من جهة رأس المقتول ولا ينى يصرخ مطالباً بالأخذ بثأره، ويحدو بأهله أن يشربوا من دم قاتله، ولا يهنأ لهم عيش دون الأخذ بثأره، طال الزمن أو قصر.

٣ نتائج انفراط السلام في الحياة الجاهلية:

وقد أدى انفراط حالة السلام في حياة الجاهليين إلى نتائج سلبية عانت مجتمعاتهم منها طويلاً، من أهمها:

١ - انحسار ظل القانون، وتضاؤل سلطانه، وطغيان معيار القوة، الذي صار الحكم الأعلى.. فالقوي قاهر غالب، والضعيف مقهور مغلوب، ولا يمكن أن تنشأ حياة فاضلة على هذا المنوال، فالقوة ما لم يعادلها حكم القانون العادل تمسي داعياً ملحاً للغي، والبغي، والفساد.

٢ - انطباع حياتهم بالفوضى، والتنقل، وقلة الاستقرار، وذلك ناتج عن ضعف مدنيتهم، وانطباعهم بطباع الخشونة، وتضعضع نظمهم، فلم يقدروا على أن يكونوا كالأمم التي عاصروها، وحكمتها دول قوية مستقرة، في فارس وروما.

٣ - رسوخ التخلف في حياة القوم، فما كانت حياة تفتقد حالة السلام بصالحة لنمو الحضارة والمدن فيها، فالحرب تهدم كل جهد، ولو ضئيل، يبذل في اتجاه تنمية تلك المجتمعات.

٤ - تناقص أعدادهم باستمرار؛ لأن أيام العرب، ووقائعها، أفنت أعداداً وفيرة منهم. والعجيب أن من عرب تلك الأيام من كان يفخر بتلك الظاهرة المدمرة للعمران، ويقول مباهياً:

إنا لمن معشر أفنى أوائلنا
قولُ الكُماةِ ألا أين المحامونا؟!

٥ - ومن نتائج هذه الحروب مسألة وأد البنات، وهي مسألة اجتماعية غاية في الخطورة. وقد وأد العرب بناتهم لأسباب عدة، منها: عدم انفراط حالة السلام في مجتمعاتهم، وخشيتهم من الغارات التي قد تسبي نساءهم وبناتهم.

وقد عاتبهم الله تعالى في ذلك بقوله جل وعلا: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير: ٨].. وكانوا يدفنون بناتهم أحياء لخصلتين: إحداهما: كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله فألحقوا البنات به. الثانية: إما مخافة الحاجة والإملاق، وإما خوفاً من السبي والاسترقاق[١].

٤ البحث عن السلام في العصر الجاهلي:

ولشناعة نتائج حالات انفراط السلام في المجتمعات الجاهلية، أخذ بعض عقلاء القوم، في ذلك العصر، يبحثون عن السلام، واعتبروا بأهوال الحرب، وتشوقوا إلى عيش السلام، ولهم في ذلك شعر تخلل شعر الحرب؛ منه المديح، حيث: «أشاد الشعر بمحاولات الساعين لإصلاح ذات البين، وإشاعة السلام، بين القبائل المتحاربة، واعتد ذلك عنصراً مهماً من عناصر الصفات المؤهلة للمدح»[٢]. ومن أمثلة ذلك قول الحارث بن حلزة يمدح ويدعو إلى الصلح:

أَعَمرو ابنَ فَرَّاشَةِ الأَشيَمِ
صَرَمتَ الحِبالَ وَلَم تُصرَمِ
وَأَفسَدتَ قَومَكَ بَعدَ الصَّلاحِ
بَني يَشكُرَ الصيدَ بِالمَلهَمِ
دَعَوتَ أَباكَ إِلى غَيرِهِ
وَذاكَ العُقوقُ مِن مَأثَمِ
كَفى شاهِداً إِلى الصَفا
إِلى مُلتَقى الحَجِّ بِالمَوسِمِ
فَهَلّا سَعَيتَ لِصُلحِ الصَّديقِ
كَسَعيِ ابنِ مارِيَةَ الأَقصَمِ
وَقَيسٌ تَدارَكَ بَكرَ العِراقِ
وَتَغلِبَ مِن شَرِّها الأَعظَمِ
وَأَصلَحَ ما أَفسَدُوا بَينَهُم
وَذَلِكَ فِعلُ الفَتى الأَكرَمِ
وَبَيتُ شَراحيلَ مِن وائِلٍ
مَكانَ الثُّرَيّا مِنَ الأَنجُمِ!

(١) الجامع لأحكام القرآن، دار الفكر، د.ت. ج/١٩، ص ١٩٥.
(٢) المرجع السابق، ص ١٨.

ومبعث ذلك أن المنذر بن ماء السماء كان قد أصلح بين بكر وتغلب بعد حرب البسوس، وأرسل أعلام الحيين وأشرافهما إلى مكة، لينزعوا ما في صدورهم من ضِغن وغِل، وأوكل تنفيذ ذلك الصلح إلى قيس بن شُراحبيل بن مرة بن همام، فمدحه الحارث بهذه الأبيات.

ومن شعر السلام عند الجاهليين ما اتخذ مسرب الرثاء، ومن ذلك شعر جليلة بنت مرة الشيبانية، أخت الجساس الذي قتل كليباً زوجها، وقد أخرجوها من مأتم كليب؛ لأنها أخت واتره، وقالت لها أخت كليب: رحلة المعتدي، وفراق الشامت، ويل غداً لآل مرة من الكرة بعد الكرة!

فردت عليها جليلة تقول: وكيف تشمت الحرة بهتك سترها، وترقب وترها؟! أسعد الله جَدَّ أختي، أفلا قالت: نُفرة الحياء وخوف الأعداء؟!

ثم جاءت جليلة أباها فسألها: ما وراءك؟ قالت: ثكل العدد، وحزن الأبد، وفقد حليل، وقتل أخ غير قليل، وبين ذين غرس الأحقاد، وتفتت الأكباد، وأنشأت تنشد من شعرها:

يا ابنةَ الأعمامِ إن لمتِ فلا
تَعجلي باللومِ حتى تسألي
فإذا أنتِ تبيَّنتِ الذي
يُوجبُ اللومَ فلومي واعذلي
إن تكنْ أختُ امرئٍ ليمت على
شفقٍ منا عليه فافعلي
جَلَّ عندي فعلُ جسَّاسٍ فيا
حسرتي عمَّا انجلى أو ينجلي
فعلُ جسَّاسٍ على وَجدي به
قاطعٌ ظهري ومُدنٍ أجلي
يا قتيلاً قوض الدَّهرُ به
سقفَ بيتيَّ جميعاً من عَل
هدم البيتَ الذي استحدثتُه
وانثنى في هدم بيتي الأول
خصَّني قتلُ كليبٍ بلظىً
من ورائي ولظىً مستقبلي
ليسَ من يبكي ليوميْه كمَن
إنما يبكي ليومٍ ينجلي
يشتفي المُدركُ بالثأرِ وفي
دركيَ ثأري ثُكلُ المثكل
أيتمَ المجدُ كُليباً وحْدَه
واستوى العالي معاً والأسفل
من لحكمِ الناسِ في حَيْرتهم
وقِرى الأضيافِ يومَ البُزَّل
ولإصلاحٍ وإفسادٍ معاً
في صدَى الرُّمحِ وريِّ المُنصل!

فهي قطعة قوية من الشعر، تنبض بالأسى الحارق، وتكمن قيمتها التاريخية في أنها واحدة من أقدم قطع الشعر العربي التي وصلت إلينا، كما أنها أقدم قطعة تعرف لشاعرة عربية على الإطلاق، وهي بعد ذلك كله زاخرة بتصوير الوضع الاجتماعي، الحربي، لذلك العهد البعيد، وشديدة الدعوة للتخلص من عقابيله الوبيلة.

ومن الشعر الجاهلي الذي دعا إلى السلام شعر النصح والإرشاد، ومن ذلك شعر زهير بن أبي سُلمى:

وَما الحَربُ إلّا ما عَلِمتُم وَذُقتُم
وَما هُوَ عَنها بِالحَديثِ المُرَجَّمِ[1]
مَتى تَبعَثوها تَبعَثوها ذَميمَةً
وَتَضرَ إذا ضَرَّيتُموها فَتَضرَمِ[2]
فَتَعرُككُم عَركَ الرَحى بِثِفالِها
وَتَلقَح كِشافاً ثُمَّ تَحمِل فَتُتئِمِ[3]
فَتُنتَج لَكُم غِلمانَ أَشأَمَ كُلُّهُم
كَأَحمَرِ عادٍ ثُمَّ تُرضِع فَتَفطِمِ[4]
فَتُغلِل لَكُم ما لا تُغَلُّ لِأَهلِها
قُرىً بِالعِراقِ مِن قَفيزٍ وَدِرهَمِ![5]

وللشاعر في هذه الأبيات إشارة سديدة إلى ما تنجب الحرب من أجيال السوء، والجنوح، والشر.

استخلاص:

وهكذا بلي أُناس العصر الجاهلي بشرور حالات انفراط السلام، وخبروها عن قرب ومعايشة، وذاقوا مرارتها وضراوتها، وغدوا يستشرفون عصراً جديداً يأتي بقيم جديدة تعلي من شأن حالة السلام، وتظلل بها مجتمعاتهم.. ولذا كانت استجابتهم عظيمة لنداء الإسلام ودعوته الكبرى إلى السلام، فكأنما كانت حياتهم السابقة خير تمهيد أعدَّهم لقبول نقيضها، المتمثل في قيم الإسلام، والتسامح، والإخاء، والوئام.

---

(١) المرجم: المظنون.
(٢) ضريتموها: أوقدتم نارها.
(٣) تلقح: حمل الولد. تتئم: تلد توأمين.
(٤) أحمر عاد: قصد أحمر ثمود اتساعاً وهو من عقر الناقة.
(٥) تغلل لكم: أي تغل لكم من الديات بدماء قتلاكم ما لا تغل قرى العراق من المحصولات الوافرة. قفيز: مكيال ثمانية مكاييك.

الدولة العميقة..
معضلةُ الربيع العربي

■ أحمد عمرو(*)
Ahmedamr2001@hotmail.com

الدولة العميقة.. ذلك المصطلح الذي أربك المشهد السياسي في كثير من الدول العربية، فرغم أن بن علي هرب من تونس، والقذافي قُتل في ليبيا، ومبارك سُجن في مصر؛ إلا أنه وبعد مضي عامين تزيد قليلاً أو تقل قليلاً، ما زالت دول الربيع العربي في تعثراتها، وما زالت تشهد حالة من عدم الاستقرار، وما زالت المظاهرات والاحتجاجات تجتاح الشارع.

ولنا أن نحلل ذلك الخبر الغريب، وهو وإن كان غير خاص بدول الربيع العربي، إلا أنه يعدّ حالة كاشفة لما نريد أن نلقي الضوء عليه؛ فقد تناقلت وكالات الأنباء العالمية أواخر العام ٢٠١٢ خبراً يحكي عن اكتشاف أنقرة أجهزةَ تنصت ومكبرات للصوت مزروعة في بيت رئيس الوزراء رجب طيب أردوغان وفي مكتبه.

ما يعني أنه وبعد مضي نحو عشر سنوات لحزب العدالة والتنمية في الحكم، إلا أن هناك قوة خفية استطاعت اختراق مكتب رئيس الوزراء التركي ومنزله.. ورغم أن حزب الحرية والعدالة التركي قضى ما يقرب من عشر سنوات في الحكم خاض خلالها حرباً شرسة واسعة ضد بؤر الفساد التي ظلت تصنع السياسة وتدبر المؤامرات والانقلابات خلال الثلاثين سنة السابقة على الأقل؛ إلا أن تلك القوى الخفية ما زالت تعمل ضد السلطة الحاكمة الشرعية في الدولة وتتجس عليها من أجل إحباط إنجازاتها والانقضاض عليها.

ومن المشهد السياسي التركي إلى المشهد السياسي في مصر، فمؤسسات الإعلام والشرطة والقضاء ما زالت في معظمها تعمل لحساب قوى خفية تعمل ضد النظام، فعلى سبيل المثال: أصدر القضاء المصري في الآونة الأخيرة أحكاماً بتبرئة عديد من قادة الشرطة المصرية: حسن عبد الرحمن رئيس جهاز أمن الدولة، وإسماعيل الشاعر مدير أمن القاهرة، وحسن رمزي مدير الأمن المركزي، وإذا أضفنا إلى ذلك صدور أحكام بالبراءة لمعظم أقطاب وأعمدة النظام المصري السابق أمثال: أنس الفقي وزير الإعلام السابق، وفتحي سرور رئيس مجلس الشعب، وصفوت الشريف.

وفي الوقت الذي يُحكم فيه بالبراءة لتوفيق عكاشة في تهمة سبّ رئيس الجمهورية، يُحكم على عصام سلطان، نائب رئيس حزب الوسط، بالسجن والغرامة في تهمة سبّ رئيس وزراء مبارك السابق أحمد شفيق.. كل ذلك يؤشر لمعنى واحد فقط وهو أن هناك قوى خفية تعبث بكل نجاح تحققه الثورة وأنها تسعى لتوجيه الثورة في خط دائري يعود بها من حيث بدأت وإلى نفس النقطة التي انطلقت منها.

تلك القوى الخفية اصطلح على تسميتها بـ «الدولة العميقة». فما المقصود بالدولة العميقة، وما مكونات وجذور تلك الدولة؟

• الدولة العميقة وجذورها المادية:

يرجع تاريخ هذا المصطلح إلى الخبرة التركية، حيث يشير مفهوم الدولة العميقة إلى شبكة من عناصر رفيعة المستوى داخل أجهزة المخابرات (المحلية والأجنبية) والقوات المسلحة التركية والأمن والقضاء والمافيا.

فكرة الدولة العميقة مشابهة لفكرة "دولة داخل الدولة".. فالأجندة السياسية للدولة العميقة هي المحافظة على السلطة والنظام القائم، بحيث تعمل دوماً من وراء ستار لضمان هيمنتها على أجهزة الدولة الأمنية والإدارية.

وسائل الدولة العميقة لا تتوقف عند العنف، بل تستخدم كل وسائل الضغط الأخرى للتأثير في النخب السياسية

(*) مدير وحدة الحركات الإسلامية في المركز العربي للدراسات الإنسانية.

والاقتصاديـــة لضمان تحقـــق مصالح معيّنـــة ضمن الإطار الديمقراطي ظاهرياً لخريطة القوى السياسية.

وتحرك قيادة الدولة العميقة شبكة تابعة خفية تشكّل جسم الهرم الغاطس، وتتكوّن من رجال أعمال وبعض البيروقراطيين والمثقفين والإعلاميين والفنانـــين والرياضيين، الذين يقومون «بالتخديم» على رغبات الدولة العميقة، في العادة مقابل منافع سياسية واقتصادية واجتماعية.

تعـــادي الدولة العميقـــة بطبيعة تكوينها فكـــرة الثورات الشـــعبية وتعتبرها أخطر أعدائها، حيث من المؤكد أن تحرص الثورة على الإنهاء الكامل الســـريع، وربمـــا العنيف، للوضعية الخاصة لهذه النخبة من الشبكات غير المعلنة بروافدها العلنية والســـرية وتفكيك مفاصلها والقضاء على مصالحها الواسعة، ومن ثم، فمن المفهوم أن تســـعى الدولـــة العميقة للقضاء على الثورة بكل السبل الممكنة.

هـــذا التركيب المعقّـــد للدولة العميقة يجعـــل من عملية التحـــول إلى دولة الحرية مخاضاً صعباً ومعقّداً والطريق إليه محفوفاً بمخاطر أشـــدها تفتت كيان الدولة نفسه. لذلك؛ فإن معركة شـــعوب الربيع العربي الأخطر الآن هي معركة تصفية آثار الدولة العميقة.

• الدولـة العميقة وجذورها النفسـية (الحنين إلى الديكتاتور):

قبل فترة ليست بالطويلة صرّح المغني التونسي صلاح مصباح بأنه يحيّي بحرارة الرئيس السابق زين العابدين بن علي[1].

وفـــي اليمن يتلقى الرئيس الســـابق (عبد الله صالح) في مقر إقامته في صنعاء، برقيات ومكالمات التهاني والإشادة في ذكرى وحدة اليمن.

لكـــن الصـــورة المصرية تظـــل الأوضح، إذ تنعـــش نتائج انتخابات الدورة الأولى من الرئاســـة اعتذاريي مبارك وتعيد حملة «أنا آســـف يا ريس» التذكير بإنجازاته من خلال نشـــر كتاب «مصر مبارك».

والتاريخ شـــهد الكثير من حالات التوحـــد مع الجلاد: فحين قامت الحرب الأهلية الأمريكية بين الشمال والجنوب وكان الشمال قد أقـــرّ قانوناً بتحرير العبيد، ومع ذلـــك قاتل الآلاف من الجنود السود في صفوف الجيش الجنوبي الذي رفض قرار تحرير العبيد.

ومن الأمثلة المشهورة أيضاً ما جرى في ستوكهولم عام ١٩٧٣ وأطلق عليه علماء الطب النفسي متلازمة ستوكهولم، حيث اقتحمت مجموعة ملثّمة أحد البنوك السويدية واتخذوا كل من فيه رهائن، وقامت الشرطة السويدية بمحاصرة البنك لمدة ٦ أيام كاملة.

قام الخاطفون بتهديد الرهائن بالقتل جميعاً.. وقتل عدد من الرهائن بالفعل عند محاولتهم الهرب أمام الجميع.

الغريب.. أنه بعـــد مرور أربعة أيام حـــدث ما لم يتوقعه أحد، حيث بـــدأ الرهائن الذين نجوا من المـــوت بالدفاع عن العصابـــة وبـــدأوا يفكرون لهم في طريقـــة للهروب من رجال الشرطة السويدية التي تحاصر البنك! بل قام بعضهم بالدفاع عـــن هؤلاء اللصوص والتماس الأحـــكام المخففة لهم، من هنا عرف هؤلاء الضحايا باسم متلازمة ستوكهولم أو حب الجلاد.

ويعرّف علماء علم النفس الشخص الذي يتعاطف مع جلاده بـ«المازوكي»، وهو الذي يقوم بأشياء (بوعي أو دون وعي) تعرضه للفشـــل أو الضياع أو الإهانـــة أو التحقير أو الإيذاء اللفظي أو البدني، وهو يكرر هذا الســـلوك ويجد متعة خفية في ذلك رغم شكواه الظاهرية. ويستمر الشخص في هذا السلوك بشكل شبه قهري مهما تعرّض للمشـــاكل والمتاعب، فهو يعشق دور الضحية والمظلوم والمقهور والمعذب. والمازوكية على هذا المستوى هي نوع من اضطراب الشـــخصية المصحوب بسلوك هادم للذات. هذا الشخص يستعذب الذل ويحب بالمهانة ويشعره الألم بالسعادة.

• وأخيراً:

إذا كانت الشـــعوب تعاني فلول النظم الســـابقة وبقية أجهزتهـــا المتغلغلة في المجتمع، فـــإن أزمتها الحقيقية تقبع بداخلهـــا؛ لأن العبودية مرض عضال يعيق تقدم الشـــعوب ويجعلها تخشى أن تخرج من السجن الذي حُبست فيه، وكلما حانت ساعة الإفراج ازداد قلق السجين، حتى إذا دقت ساعة الحقيقـــة فإنه يفضل أن يقبع في ســـجنه الذي ظل يصرخ بداخله ويســـتغيث كي يأتي من يخرجه منه، واقرأ إن شئت قوله تعالى عن بني إســـرائيل: (فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض)، ذلك أن الجيل الذي تربّى على ذل العبودية من فرعون سيظل يستعذب ويتلذذ بالعبودية.

ما يحدث الآن في كثير مـــن دول الربيع العربي ليس اســـتكمالاً لسياق الثورة، ولا هو موجة أخرى من أمواجها، بل هو أشـــبه بمحاولات العنف الذي يدفـــع به العبد عن نفســـه إذا جاء موعد خروجه من قبوه. وإن من أوضح ما يســـتدل به في هذا المقام مقولة المفكر الإســـلامي الكبير ســـيد قطب – رحمه الله –: «العبيد هم الذين يهربون من الحرية، فإذا طردهم ســـيد بحثوا عن سيد آخر.. إنهم لا يدركون بواعث الأحرار للتحرر، فيحسبون التحرر تمرداً».

(١) صحيفة الشرق الأوسط، الثلاثاء ١ رجب ١٤٣٣، ٢٢ مايو ٢٠١٢، على الرابط:
http://www.aawsat.com/details.asp?section=4&article=678386&issueno=12229

مجلة

البيان

www.albayan.co.uk

تفاعل معنا إلكترونياً

YouTube

Available on the iPhone App Store

موقع البيان الإلكتروني
يطلق نافذته الإندونيسية